لا.. للعنف

دراسة علمية فى تكوين الضمير الإنسانى

لا للعنف - د. سيد عويس

اسم العمل الفنى: نصب الحرية ١٩٦٠

التقنية: نحت بالبرونز

جواد سليم

فنان عراقى، يعد رائد النحت العراقى، وقد درس الفن فى باريس وروما ولندن، وهو فنان تعبيرى، استلهم تراث بلاد الرافدين فكان ذلك بداية الطريق إلى عبقريته الفنية، وإلى الإبداع الحر والتعبير عن المستقبل.

نشأ جواد سليم فى محيط فنى، أخذ يرسم، وسافر إلى باريس ١٩٣٨ فاطلع على أعمال رودان، ثم سافر إلى إيطاليا وعاد إلى بغداد ليساهم فى النهضة الفنية العراقية، وذهب إلى لندن بمعهد سليد ليتتلمذ على يد هنرى مور. وبعد أن عاد إلى بغداد حرر النحت من الواقعية التقريرية وصارت تتجاذبه نزعتان، أولهما العودة إلى الماضى للبحث فى مكنون التراث (السومرى والبابلى والآشورى) وثانيهما الارتباط بمفهوم النحت الرمزى الذى ظهرت بواكيره فى الغرب.

محمود الهندى

رقم الإيداع ١٥٩١٨ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 8153 - 6

لا.. للعنف

دراسة علمية فى تكوين الضمير الإنسانى

د. سيد عويس



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢
مكتبة الأسـرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
سلسلة الأعمال الفكرية

لا .. للعنف

دراسة علمية فى تكوين الضمير الإنسانى

د. سيد عويس

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ :

صبرى عبدالواحد

المشرف العام :

د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

علي سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة باصدراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصدارتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى **«مكتبة الأسرة»** .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك..**

د. سمير سرحان

المقدمة

أرجو أن يوافقني القارئ الكريم على أن مطلب "السلام" للإنسانية مطلب يرحب به كل ذى عقل راجح، وأن مطلب العنف" للإنسانية مطلب مدمر ولا يقره ذو عقل راجح.

والملاحظ أن الإنسانيّة قد عانت من العنف على مر التاريخ منذ وجد الإنسان على وجه الأرض ألوانا وأشكالا.. وكان الأفراد الأقوياء يستخدمون أساليب العنف الرهيبة لكي يحققوا مصالحهم ضد كل إنسان يعارضهم سواء كانت هذه المصالح مادية أو معنوية. حدث كل ذلك عندما كان الإنسان فى الكهوف أو كان عضوا فى قبيلة أو أداة طيعة فى يد الاستعمار بكل ألوانه.

وكانت أساليب العنف التى تستخدم عديدة، ولعل أسلوب القتل كان أحدها، والحروب التى لا تفرق بين المحاربين وغير المحاربين قد اشتعلت منذ أن اشتغلت وفى جعبة القوى الأسلحة المدمرة.. التى تفتك بالأضعف دون ما ذنب أو جريرة إلا أن يكون قد يطالب بحقه فى الحياة.. وقد يشكل هذا المطلب عقبة فى سبيل طمع الأقوياء أو جشعهم.

وقد عاصرت حربين عالميتين الأولى والثانية، وعشت مع أعضاء أسرتى وساكنى الحى الذى أعيش فيه العنف والظلم والظلام والإظلام جميعا، وفى ضوء هذه الخبرات أكتب الكتاب الحالى وموضوعه "لا.. للعنف" .

وأرجو أن يتفضل القارئ الكريم بملاحظة أن عنوان هذا الكتاب مستعار من الرسالة التى تفضل "قداسة البابا بول السادس" بإلقائها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى أول شهر يناير عام (١٩٧٨)، وتتضمن هذه الرسالة الإنسانية ضمن ما تتضمن الدعوة إلى أبناء المعمورة كلهم، دون ما تفرقة بين الدين والجنس والنوع، لكى يعيشوا فى سلام، والسلام كما يراه قدسته، هو مفهوم يشع الجلال والبهاء والوداعة، ومن أجل ذلك فهو مفهوم ممجد والإنسانية فى حاجة ماسة إلى تحقيقه على الأرض، وبكل تواضع محمود قال قداسته فى رسالته الإنسانية: إن "السلام" ليس من اختراعنا وإنما

أتانا من "المملكة غير المنظورة" مملكة السماء. إننا نحس بسموها عندما نتلو متواضعين ونكرر هذه التلاوة :

"المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة (لوقا ١٤:٢).

ويذكر قداسته تأييدة للسلام إذ يقول : "يجب أن يسود السلام فالسلام ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا". إنه بلاغ للناس وإن هذا البلاغ يتجدد فهو بشارة عظيمة، إنه أيضا بشارة منذ بزوغ عام (١٩٧٨) وعلى مر الزمان للناس قاطبة. فالسلام عطية تعطى ويجب أن تعطى لكل الناس الذين يستطيعون بل يجب أن يستطيعوا قبولها، ويضعونها فوق قمة أرواحهم وبرامجهم وآمالهم فضلا عن سعادتهم. فالسلام ليس حلما مثاليا أو أنه مجرد شئ جذاب لا يتحقق. إن السلام هو،- بل يجب أن يكون -حقيقة، حقيقة دينامية وأن يسود فى كل مرحلة من مراحل الحضارة، إنه الخبز الذى لا نعيش إلا به، وهو ثمرة الأرض التى نحيا على أديمها، بل هو ثمرة "العناية الإلهية"، وهو أيضا نتاج العمل الإنسانى.

والسلام ما هو إلا معادلة أو موازنة تحيا بالحركة وتعطى دائما الطاقة الروحية وطاقة العمل، إنه الذكاء والشجاعة الحية، ومن ثم ونحن على مشارف عام (١٩٧٨) نرجو أعضاء المجتمعات الإنسانية، الرجال منهم والنساء، وبخاصة أصحاب النيات الطيبة من القادة ذوى أنماط السلوك السوية الجماعية الذين يعملون من أجل حياة المجتمعات الإنسانية سواء أكانوا من رجال السياسة أم من المفكرين أم من الناشرين أم من الفنانين أم من الذين يعملون فى مجالات الرأى العام والإعلام أم من المدرسين فى مدارسهم، أم من مدرسى الفن والدعاة إلى الصلاة فضلا عن المخططين وعمال أسواق الأسلحة فى العالم - نرجو الجميع بلا استثناء أن يبدأوا مرة ومرات فى التأمل الأمين الكريم من أجل سيادة السلام فى عالم اليوم.

وتقويم السلام لكى يسود لا يختلف عليه اثنان من ذوى العقول الراجحة ومن الذين يملأ صدروهم الإيمان، ونجد فى وقتنا الراهن من يحاول أن يرفع رايته فى "منظمة الأمم المتحدة" وبخاصة فى "الجمعية العامة"، لهذه المنظمة التى عقدت اجتماعا خاصا لمناقشة مشكلة نزع

السلاح، ومع ذلك فإننا نلاحظ مع الأسف الشديد أن ظاهرة الازدواجية ترفع رايتها في عالمنا المتمدين في الوقت الراهن، حيث نلاحظ ظاهرة الحماس المتعمد لظاهرة العنف، ويرجع وجود ظاهرة العنف، بالضرورة إلى الفساد الذي يستشري في الضمير الأخلاقي الذي لم يدرب التدريب السوي ولم يساعد لتحقيق ذلك الهدف النبيل. بل على العكس نجد أن التفاؤل الاجتماعي يتبدد روحيا وذوقيا مما يؤدي إلى عدم الالتزام بالأمانة من أجل الأمانة، وبكل ماهو جميل وسعيد في القلب الإنساني : أي مايملأ القلب الإنساني بالمحبة الحقيقية النبيلة الصادقة.

والمعلوم أن العنف كظاهرة لا يمكن أن يعني أبدا الشجاعة إنه مجرد انفجار أو تبديد أعمى للطاقة التي تنحط بالإنسان الذي يباهي باستخدامه، إلى مستوى الانفعال النفساني المزري، والملاحظ أن العنف هو نشاط غير اجتماعي وذلك لأنه يستخدم أساليب.. نفس الأساليب.. التي تسمح له لكي يسبب ارتكاب الجرائم.. ومن ثم فالسكوت على حدوثه يعني مؤامرة صامتة ضد الإنسانية.. فهو أي العنف يتلاعب إذ يخون العمليات القانونية العادية فضلا على أن من يستخدمونه يعملون بالقوة على تفادي التدابير الإجرامية التي تنحط إلى مستوى أعمال الإرهاب التي لا ترحم.

وقد تضمنت الرسالة البابوية أيضا بعض التحذيرات إذ تقول: إن العنف هو عدو للسلام،وإن الحروب المحلية والقومية وما يتخللها من ألوان من العنف التي تسبب الكوارث للآمنين والمحاربين على السواء، كما تضمنت التأكيد على أن معنى "نعم" للسلام يتسع ليكون "نعم" للحياة، وأن السلام لا يجب أن نذكره ونحن نخوض المعارك الحربية فحسب بل نذكره حيثما وجد الإنسان. وأن هناك - بل يجب أن يكون - السلام الذي لا يحمي فقط هذا الوجود من التهديدات التي تسببها أسلحة الحرب فقط ولكن ليحمي أيضا الحياة ضد كل خطر وكل النكبات وكل هجوم غادر.

إن حفظ الحياة هو هدف الأهداف.. إن رحم الأم ومهد الطفل هما أول الحصنين اللذين ليس فقط يحميان السلام ولكنهما أيضا يحميان الحياة بل ويبنيان قواعد السلام :

"هو ذا البنون ميراث من الرب ثمرة البطن أجرة" (مزمور ١٢٧:٣)

والذى يختار السلام ويعارض الحرب والعنف، يختار آليا الحياة، والاهتمام بمتطلباتها الضرورية.

وقد أعلنت الرسالة التى كتبت خصيصا بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى المشار إليه آنفا فى يوم ٨ من شهر ديسمبر عام (١٩٧٨)، وتفضل الأخ الأستاذ الدكتور ميشيل فرح بإعطائها لى لكى أدرسها وأكتب فى ضوئها دراسة ألقيها فى احتفال "لجنة العدالة والسلام" فى تمام الساعة السادسة والنصف مساء يوم الخميس ٢٦ من شهر يناير (١٩٧٨) بقاعة النيل، شارع بنك مصر القاهرة.

ولما كنت أصغر مقاما من المتحدثين اللذين تفضلا بقبول الحديث فى هذه المناسبة وهما قداسة البابا شنودة والأستاذة الدكتورة سهير القلماوى ، فقد بدأت حديثى وتفضلت الاستاذة الدكتورة سهير القلماوى فألقت حديثها بعدى، وكان ختام الأحاديث ختام مسك تفضل قداسة البابا شنودة الثالث بإلقائه.

وكان الحضور جما غفيرا شرفه بعض الآباء القساوسة كما شرفه المريدون والأب الكبير بطريرك الأقباط الكاثوليك ورئيس لجنة العدالة والسلام والسادة أعضاؤها.

ومهما يكن من الأمر فإن الموضوعات المدونة فى الكتاب الحالى تتضمن عدا المقدمة والخاتمة مايلى :

أولا : من مفاهيم الدراسة الحالية.

ثانيا : دراسة عن السلوك الإنسانى

ثالثا : أمثلة حية معاصرة عن بعض أنماط العنف.

رابعا : أمثلة حية تاريخية عن بعض أنماط العنف.

خامسا : العمل من أجل السلام.

ولعل القارئ الكريم قد لاحظ أن هذه الموضوعات قاصرة عن تحقيق أهداف ما يجب أن يتضمنه الكتاب الحالى، وإننى إذا أعترف بذلك

أرجو ملحا أن يغفر لى هذا القصور. فالموضوع الذى يتحدث عنه الكتاب الحالى هو كما ذكرت من قبل موضوع الحياة بحلوها ومرها وبنسيمها وأعاصيرها. وأننى فى خبراتى المحدودة لا أستطيع أن ألم بكل عناصره العديدة التى وجدت على الأرض ما وجدت الحياة، حياة الإنسان أشرف المخلوقات :

"ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" (ك الإسراء : ٧٠)..

ومهما يكن من الأمر أيضا فالرجاء أن يتقبل القارئ الكريم.. هذا الكتاب قبولا حسنا، وليعلم أننى على الرغم من ألوان شقاء الإنسان من ألوان العنف التى تنفث العداوة حيث نجد الصراع بينها وبين ألوان السلام العادل والسلام الروحى، فإن التفاؤل يجب أن يكون ديننا.. ففى ضوء الخبرات الإنسانية نلاحظ أن الشر لا ينتصر باستمرار وأن ألوان السلام، وإن توارت عوامل وجودها، عندما تكون الظروف الاقتصادية والسياسية والتسلط الغاشم والقوة المستبدة تبدو أنها السائدة، تنتظر الظروف المواتية لكى تظهر وتسود.

وأكرر قولى إنه فى ضوء خبراتى المحدودة لا أستطيع أن ألم بكل العناصر العديدة لموضوعات هذا الكتاب، إذ كتبت ما كتبت عنها، فإننى كتبتها بوصفى "ياء" المفكرين المصريين فى المجتمع المصرى المعاصر.

ولا يسعنى وقد عرضت موضوعات الكتاب الحالى فى الصفحات التالية إلا أن أتقدم بالشكر العميق الخاص إلى أعضاء أسرتى الكريمة : زوجتى وابنتى آمال وتيسير وأبنائى أحمد وسمير ومسعد على تشجيعى للقيام بتأليفه وبخاصة فى الظروف التى أواجهها فى حياتى الراهنة التى تعنى كبر السن والتى يظللها ظلام عدم الوفاء الدامس.. فكان لهذا التشجيع الإنسانى الرائع الحافز الأكبر لأعيش.. وأن اكتب ما كتبت، حياة مشرقة أرجو من الصميم أن تكون مثمرة لأعضاء المجتمع المصرى الخالد الذين يعملون جاهدين على إرساء قواعد السلام العادل.

ولن أنسى ما حييت فضل السيدة (الزا ثابت) التى لولا حفزها لى ماديا ومعنويا لما خرج هذا الكتاب إلى النور.. وانتهز الفرصة فأدعوا الله

جل وعلا لسيادتها بالشفاء العاجل من مرضها راجيا لسيادتها أن تتمتع بالصحة والعافية.

وإن أنس لا أنسى فضل الأخ الفاضل الحاج "محمد شوقى" والسيدة الفاضلة حرمه الكريمة على تعاونهما على نسخ موضوعات هذا الكتاب على الآلة الكاتبة لهما ولأبنائهما التوفيق والسداد.

والرجا التوفيق

د. سيد عويس

مصيف جمصة السياحى

شهر أغسطس عام (١٩٨٨)

من مفاهيم الدراسة الحالية

١٠- مفهوم العنف والسلام في التراث الثقافي الاجتماعي المصري :

وإذا أتحدث عن هذين المفهومين فأنني أتحدث في ضوء خبراتي كباحث علمي اجتماعي مصري.. وهذه الخبرات تكون، بالضرورة، خبرات محدودة، ومع ذلك فأنني أبادر بالقول بأنها خبرات منتظمة (أي علمية) تتضمن نتائج بحوث ودراسات علمية قمت بإجرائها أو الإشراف على إجرائها في ظل المناخ الثقافي الاجتماعي المصري، والخبرات التي أتحدث عنها، مع ذلك قد تتضمن في بعض الأحيان بعض الانطباعات وبعض الآراء، وإن كان همها الأول أن يقتصر على الحقائق.

وأرجو أن يغفر القارئ الكريم إذ حاولت دراسة مفهوم "العنف" دراسة علمية بقصد محاولة فهمه فهما موضوعيا، أي محاولة التعرف على معناه وعلى بعض أنماطه وعلى بعض صور التعبير عنه، فلعل التعرف على هذه الأمور، وغيرها أن ييسر لي، وإن كان ذلك بالضرورة غير كاف، التعرف على مايواجهها من أمور بمفهوم "السلام".

ومفهوم العنف، لغة بضم العين ضد الرفق أو الأخذ بالشدة والقسوة، والملاحظ أن مفهوم العنف في هذا الضوء غير التعنيف أي التعيير واللوم.

وأرجو أن يعلم القارىء أن مفهوم العنف في هذا الحديث يقصد به "العنف الإنساني" أي الذي يصدر عن البشر من بني الإنسان.. فالعنف موجود بين الإنسان والطبيعة وبين الإنسان والحيوان وبين الحيوان والحيوان، ولكنني أتحدث عن العنف بين الإنسان والإنسان أيا كان هذا الإنسان ذكرا كان أو أنثى، رجلا كان أو امرأة، شابا كان أو شابة، صبيا كان أو طفلا الذين يعيشون تحت سماء مصرنا الخالدة سواء أكانوا معاصرين أم غير معاصرين.

والملاحظ أن العنف لا يحدث بين الأفراد فحسب ولكنه يحدث كذلك على مستوى الجماهير، وقد يكون تلقائيا، أى لم يخطط أو ينظم له من قبل، وذلك على عكس ما يصدر من أنماط السلوك العنيفة عن بعض الجماعات أو التنظيمات الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية أو السياسية المنظمة، كالجامعات والأحزاب والتنظيمات المهنية.

وفى ضوء إحدى الدراسات العلمية التى قام بها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، فسر "العنف الجماهيرى" بأنه عنف الجماهير ضد ممثلى السلطة، وهو فى ضوء طبيعته لاسلوك عدوانى ايجابى "بدنى أو مادى ضد بعض ممثلى السلطة (أو ضد فئات أخرى) موجهة من بعض أفراد الجمهور - على أساس انتمائهم لجماعات معينة أو دفاعهم عن قيم معينة تتعارض مع قيم المجتمع بوجه عام، أو تتعارض مع القيم التى يرعاها ممثلو السلطة الذين وقع عليهم العدوان، وأرجو أن يلاحظ القارئ عبارة "تتعارض مع قيم المجتمع بوجه عام" فهى عبارة غامضة على الرغم من أن البحث رجع إلى أحد المراجع الأجنبية لتفسير هذه العبارة أو لتبرير وجودها فى المتن (انظر بحث العنف التلقائى الجماهيرى فى المجتمع المصرى، "١٩٧٦" صفحات ٤٤- و٤٨-٤٩) لأننا نلاحظ أن الأخذ بظاهرة الثأر موجود فى بعض المجتمعات المحلية فى المجتمع المصرى مثلا، وارتكاب إحدى جرائمها يتضمن بالضرورة العنف الجماهيرى ضد الأشخاص (القتل) أو الأموال (تسميم المواشى) أو الآداب (صيانة العرض والشرف) أوحتى ضد الدولة أو ممثليها (فترات الانتخابات) وفى ضوء البحوث والدراسات العلمية نجد أن ظروف الحياة المعاشة فى ظل مناخ ثقافى له ذاتية ثقافية معينة تجعل أعضاء هذا المجتمع المحلى مهما كان مستوى تعليمهم أو إمكاناتهم الاجتماعية ذكورا كانوا أو إناثا تغرس فى نفوسهم قيم ظاهرة الأخذ بالثأر ويتمثلونها وهم أطفال ويعيشون بها ولها وإذ تختار احدى الجماعات (العائلات الكبيرة) أحد أعضائها لارتكاب ماتمليه عليه جماعته من جرائم قام بذلك، وإذ يفعل من اختير ما أمر به فإن قيمه لم تتعارض مع قيم مجتمعه المحلى وإن اعتبرت خرقا لقانون العقوبات المصرى.. لذلك نرى أن القضاة الذين يحاكمون الجانى يأخذون فى الاعتبار عادة ما تمثله من قيم يعيش بها

ولها والتى تحدد أنماط سلوكه فنجد هؤلاء القضاة لا يحكمون عادة على الجانى بأقصى العقوبة التى ينص عليها قانون العقوبات المصرى.

ونذكر بهذه المناسبة أن شخصية الإنسان منا تتكون محدداتها وملامحها عند بلوغ الفرد منا سن الخامسة أو السادسة ويرى البعض أن هذه المحددات والملامح تبقى مابقى الفرد حتى يصير شخصا أى فرد أصاحب شخصية اجتماعيا، وقد لا يرى البعض هذه المقولة حيث إن محددات شخصية الإنسان منا وملامحها تتغير بتغير التجارب والخبرات الاجتماعية التى يواجهها فى حياته، والملاحظ أن محددات شخصية الإنسان قد تكون أدواره الاجتماعية التى يتوقع المجتمع الذى ولد فيه ويعيش أن يؤديها، وقد تكون محددات تكوينية تتعلق بالتكوين الجسمى والبيولوجى للشخص. أو محددات ثقافية اجتماعية وهى تعنى الخبرات التى يواجهها الشخص منذ أن يولد وحتى الوقت الذى تدرس فيه هذه الشخصية.. وقد تكون محددات عقلية ونفسية تتعلق بصحة الشخص العقلية أو النفسية أى ضعفه العقلى أو ماقد يصيبه من مرض أو أمراض عقلية أو نفسية، ومن ثم فإنى أرجح تغير شخصية الإنسان تغيرا مقصودا أو غير مقصود. ولعل التغير المقصود يكون أقرب إلى الصواب.

وكما ذكرت آنفا أننا نلاحظ أن مفهوم العنف ألوان وأنماط، وأن الشعور بالعداوة صور وأنماط أيضا.. والملاحظ أن الشعور بالعداوة فى أحد أنماطه – النمط الفردى أو الشخصى – ما هو إلا انفعال يندفع من شخص معين ضد شخص آخر. وقد يكون هذا الشعور بغضا مقنعا، أو يكون فعلا بغيضا موجها ضد شخص، وما الفعل البغيض الموجه ضد شخص إلا تعبير ظاهر عن الشعور بالعداوة ضده.. فنحن نلاحظ بوضوح أن تهديد أى شخص بالقيام بفعل بغيض أو توجيه هذا الفعل البغيض ضده يثير عادة أنواعا متباينة من الاستجابات فى نفسه قد يكون الشعور بالعداوة أحدها، والمقصود بالتهديد هنا هو الخوف الحقيقى أو حتى الوهمى من أمور بغيضة مثل الأذى أو الضرر أو التحقير أو حرمان الذات حرمانا على مستوى معين، وقد يتحقق هذا التهديد أيضا عند إعاقة شخص معين من فرصة فهم نفسه حق الفهم، أو من توقع هذا الشخص تحقيره أو تقييده.. وقد يتحقق هذا

التهديد كذلك إذا خشى الشخص من رفض الاعتراف بحاجاته المشروعة أو رفض الاعتراف بحقوقه كعضو فى جماعة معينة.

وإذا كان مفهوم "العنف" فى هذه الدراسة هو "العنف الإنسانى" فإنى إذ أتحدث عن "مفهوم السلام" أعنى أيضا "السلام الإنسانى، صحيح أن "السلام" فى ضوء التعاليم الدينية قد يكون اسما لله عز وجل وعلا، تماما كمفهوم المحبة، ومع ذلك فأرجو أن يعذرنى القارئ إذا ذكرت أن معنى مفهوم السلام هنا قد يكون التحية بين أعضاء المجتمع وقد يكون الأمان أو الصلح أو النجاة من الآفات فضلا عن السلامة (على المستوى البشرى) والبراءة من العيوب.

ومهما يكن من الأمر فإن مفهوم السلام هو ضد مفهوم العنف بالمعنى الذى ذكرناه من قبل، والملاحظ فى الحياة الإنسانية أن الشعور بالعداوة (وليد العنف بصوره وأنماطه) يوجد كما يوجد الشعور بالمحبة (وليد السلام بصوره وأنماطه) والملاحظ أيضا فى هذه الحياة أى الحياة الإنسانية أن هذين النوعين من الشعور الإنسانى فى صراع مستمر. فهما فى الواقع سمتان من سمات هذه الحياة، والصراع بينهما هو فى الحقيقة سنة الحياة، وكلنا يعلم أن الشعور بالمحبة، محبة الناس بعضهم لبعض، فى ضوء تراثنا الثقافى المصرى هو هدف كل الأهداف، والشعور بالمحبة محبة الناس بعضهم لبعض، فى ضوء قيم المجتمع المصرى المعاصر ومبادئه ومثله العليا هو، أيضا غاية كل الغايات وفضلا عن ذلك، وربما مع كل ذلك، فهو فى ضوء التراث الإنسانى، أمل كل الآمال.

وإذا كان الشعور بالعداوة والشعور بالمحبة، كما سبق أن ذكرت يتصارعان، فإننا نجد أن الدعوة إلى العنف الإنسانى والدعوة إلى السلام فى محيط البشر يتصارعان كذلك ويعنى مفهوم "الصراع" فى الدراسة الحالية، أى معناه الاجتماعى، هو "عملية اجتماعية وموقف يحاول فيه اثنان أو أكثر من الكائنات البشرية أو الجماعات الاجتماعية أن يحقق كل أغراضه ومصالحه، ومنع الآخر من تحقيق ذلك لو اقتضى الأمر القضاء عليه وتحطيمه، ويرتبط الصراع جوهرا بوجود حدود لمصادر الإشباع المختلفة، وفى معناه السوسيولوجى يتضمن بالضرورة كائنات إنسانية، وهو مثله مثل

الشعور بالعداوة ذو درجات من الشدة والانتشار تبعا لأهداف وأغراض أطراف الصراع، ويعد الصراع ظاهرة عامة تلحظ في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية وفي الاقتصاد والسياسة والدين والمعايير الأخلاقية وبين الطبقات وفي اللغة (التنابذ بالألقاب التي تحدث في المشاكسات مثلا) وقد يكون الصراع داخل الجماعات الاجتماعية أو بينها.

وإذا اعتبرنا الصراع نوعا من التفاعل الاجتماعي بمعنى أنه عملية من العمليات الاجتماعية فإنه يجب التمييز بينه وبين "المنافسة" وقد يرى البعض أن الصراع نوع من التنافس، يحاول المتنافس أن ينظم فيه جهوده وقوته، أملا في الفوز ولذلك يرون أنه أقسى عملية بين العمليات الاجتماعية أو أنه نوع عنيف من التنافس، ومع ذلك فهناك فارق بين المنافسة والصراع فالوعي شرط ضروري للصراع في حين أن هذا الوعي ليس ضروريا بالنسبة للمنافسة بل إن هناك أنواعا من المنافسة تكون الشعورية. هذا ويعتبر كل من الصراع والمنافسة أشكالا للنضال والكفاح.

ومع ذلك فالملاحظ أنه إذا كان مفهوم "العنف" يوجد في المجتمع المصري المعاصر على مستوى الأفراد، فإن التراث الثقافي لهذا المجتمع يتعطر بمفهوم "السلام" ويكفي لتأكيد ذلك أن نذكر أن الكتاب المقدس قد تضمن مفهوم السلام" بصوره وأنواعه ١٣٣ مرة كما تضمن مفهومي "العداوة والأعداء" وهما وليدا مفهوم "العنف" بصورهما وأنواعهما ٤٠ مرة، وقد ذكر مفهوم "السلام" لفظه ومشتقاته في مواضع عديدة في القرآن الكريم، في سوره وآياته ١٣١ مرة كما تضمنت مفاهيم "الاعتداء والعدو والعداوة والعداون" وهي وليدة مفهوم "العنف" بصورها وأنواعها ١٠٤ مرات.

٢- مفهوم الضمير الإنساني في التراث الثقافي الاجتماعي المصري. ـ

إن مفهوم "الضمير الإنساني" لغة هو "استعداد نفسي لإدراك الخبيث والطيب من الأعمال والأقوال والأفكار والتفرقة بينها، واستحسان الحسن واستقباح القبيح منها، والملاحظ أن الفرد منا لا يولد وعنده "ضمير" وحتى كبار السن منا لا نستطيع أن نجد عضوا من أعضاء أجسامهم كالكليتين

وعضلة القلب والرئتين والغدد مثلا اسمه "الضمير" وقد يرى البعض أن الضمير هو النفس التى قد تكـون نفسـا مطمئنـة أو نفسـا لوامـة. وإذا كـان لا يولد الإنسان وعنده ضمير فلابد إذا أخذنا بالمعنى اللغوى للضمير أن يتكـون كلما ازدادت عوامل تكوينه فى خلال مراحل حياته مرحلـة بعد مرحلـة. أى أن يربى الشخص منا لكى يدرك الخبيث والطيب من الأعمال.. الخ.

والمعلوم أن مفهوم "التربية" لا يعنى مفهوم "التلقين وعلى الرغم مـن أن معانى ودلالات المفهوم الأول تتعدد فإننى أرى أنه ينبغى أن تفهم التربيـة علـى أنهـا "عمليـة تغيير" بواسطتها ينمـو الإنسـان ويزدهـر وتتفتـح ملكاتـه وقدارته، وهو أى الإنسان، إذ يفعل ذلـك يكـون نفسـه ويتحـول هـو ذاتـه مـع تكوينه وتحويله الآخريـن، والبيئـة التـى يعيـش فيهـا. إن عمليـة التغيـير هـذه تهدف أولا وقبل كل شئ إلى إعداد المواطن (الإنسان) لكى يستطيع أن يؤدى أدواره الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع الذى ولد فيه ويعيش. إنها عملية تكويـن الشـخصية أى عمليـة جعل "الفـرد" شـخصـا أى فـردا لـه شـخصية اجتماعية، أى يكون المواطن شخصـا ذا اتجاهات فكرية نحو من يحيط به من الناس سواء كـانت هـذه الاتجاهـات ممـا يفيـد أو يضـر المجتمـع وجماعاتـه، وتكون فائدته للمجتمع وجماعاته فى ضوء قيم هذا المجتمع، ويكـون ضـرره فى نفس هذا الضوء. أى أن قيم المجتمع وجماعاته قد تكون أهدافهـا حميـدة، أى قيما بناءة تكون من وراء أنماط سلوك أعضـاء المجتمـع. أقصـد أفكـارهم واتجاهاتهم ونظرتهم نحو الأمور والأشياء والأشخاص، أى نحو الحيـاة التـى يعيشونها أو التى يصنعونها أو التى يحاولون صنعها على السواء، وهـى قيـم أهدافها حميدة لأنها تدعو إلى الخير ولا تدعو إلى الشر. وأعنـى بـالخير كل ما يعين على العمل الصـالح مـن أجل الآخريـن فـى ضـوء مـا يـدرك عضـو المجتمع عن طريقها ما هو خبيـث مـن الأعمـال والأقوال والأفكـار فيتجنبـه وفى ضوء مـا يـدرك هـذا العضـو عن طريقهـا مـا هـو طيـب مـن الأعمـال والأقوال والأفكار، فيعمل به، ومن ثم فإنه يصبح إنسانا أو فـردا ذا شـخصية عنده ضمير يستحسن كل ما هو حسن ومحبـوب ويسـتقبح كل مـا هـو قبيـح ومكروه.

وفى ضوء التاريخ نجد أن المصريين القدماء قد عرفوا منذ الماضى السحيق عن طريق التفكير والتأمل أن الرجل الفاضل يسمى "محبا للسلام" وبالنص الحرفى "حامل السلام" وهذا التعبير فى ضوء ما يعنيه هو تعبير أخلاقى ما فى ذلك من شك حيث يمكن التعرف على الفاضل (صاحب الضمير) بعلاقاته بمن حوله، وعلى النقيض منه ماوصل إليه هؤلاء الأقدمون عندما أطلقوا على كل من يخطئ فى حق من حوله اسم "حامل الجريمة" أو المجرم" ولعل القارئ الكريم إذا اطلع على أمثال "بتاح حتب (حكيم مصرى قديم) التى يرجع تاريخها إلى الدولة القديمة أو من عام ٣٤٠٠ إلى ٢٤٧٥ ق.م (الأسرة الخامسة) يرى أنها تقوم شاهدا على تقدم الاختمار الخلقى. أو مايمكن أن يسمى مولد الضمير الإنسانى وتطوره، ولعل المثال التالى يوضح ما أقول (انظر كتاب "سيد عويس" قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى القاهرة دار روز اليوسف إبريل عام "١٩٨٨" صفحة ٩٦):

"لا تكن متعجرفا بسبب علمك ولا تنتفخ أوداجك لأنك رجل عالم استشر الجاهل كما تستشير العالم، لأن حدود الفن لا يمكن الوصول إليها، وليس هناك فنان كامل فى براعته. الكلام الطيب أندر من الحجر الأخضر الثمين، ومع ذلك فإنه يوجد أحيانا فى حديث الجوارى العاملات فى طحن الغلال بين أحجار الرحى"

وقد علق "جورج سارتون فى كتابه تاريخ العالم : الجزء الأول، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ديسمبر عام "١٩٧٦" على هذا المثال قائلا : "من الواضح أن هذه العبارات وأمثالها لا تتعلق بالفن أو العلم أو الدين، ولولا هذه العبارة وأمثالها لاستحال بقاء أية حضارة مدة طويلة" (انظر صفحتى ١٢٩-١٣٠)

وتعنى الصفات التى يتحلى بها الإنسان ذو الضمير الإنسانى الذى يحب السلام، فى ضوء التعريف السابق وفى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى الراهنة، أن يكون مواطنا صالحا يعرف حقوقه ويؤدى واجباته التى يتطلبها هذا المجتمع وقد قدمت حقوق عضو المجتمع المصرى المعاصر متعمدا فالملاحظ أن المصريين منذ أن عاشوا على ضفاف النيل

يعطون لكثر مما يأخذون ويواجهون الأزمات الأقتصادية والسياسية التى تواكبها عادة المشاكل الاجتماعية التى تتضمن ضمن ما تتضمن ألوانا عديدة من الانحرافات، منها وأهمها معاناة الشباب منهم من القلق المرضى، وارتكاب الجرائم وتعاطى المخدرات، ومن التطرف السياسى أو الدينى.

وإذ أدعو إلى السلام فإننى أدعو إلى السلام القائم على العدل، والملاحظ أن مفهوم "العدالة" قد نبت من تربة مصرنا الخالدة منذ آلاف السنين في شخص الآلهة "ماعت" ومنذ اينابنوس المصرى" أول أسقف كرسه "مرقص فى عام ٦٤ ميلادية" نجد آيات الكتاب المقدس تتلألأ بمعانى حقوق الإنسان وتنشر نورها فى أعماق قلوب المصريين المسيحيين، وتعطر المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى منذ ذلك الحين :

"العدل العدل تتبع لكى تحيا وتمتلك الأرض التى يعطيك الرب الهك" (سفر التثنية اصحاح ١٦ : آية ٢٠) و"هكذا قال الرب، احفظوا الحق واجروا العدل. لأنه قريب مجئ خلاصى واستعلان برى" (سفر اشعياء اصحاح ٥٦ : آية ١).

ثم عانقت الآيات القرآنية الكتاب المقدس التى تعطر بها المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى منذ أن اقيمم 'اول مسجد فى مصرنا الخالدة فى عام ٢١ هجرية الموافق عام "٦٤١" ميلادية :

".. واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير" (٤١ ك الشورى آية ١٥)

و"إن الله يامر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون" (١٦ ك النحل : آية ٩٠).

دراسة عن السلوك الإنسانى

3- متصل السلوك العدوانى الانسانى :

أرجو أن، يغفر لى القارئ الكريم إذا كنت استعرت "مفهوم المتصل" لأشرح تدرج السلوك العدوانى الذى كما ذكرت أنه وليد العنف، وعلى الرغم من أننى لم أقصر فى سرد بعض أنماط هذا السلوك أقصد السلوك العدوانى، فإننى تحت هذا العنوان سأحاول أن أذكر ما تبقى دون ماتكرار حتى لا يمل القارئ من التكرار

وقد استعرت مفهوم المتصل من علم الاجتماع الحضرى وهو يعنى التغيرات المتدرجة بين درجات التريف والتحضر على أساس أنه من الممكن تصنيف المجتمعات (المحلية) المختلفة وفقا لنقاط معينة على هذا المتصل، ويفترض من أجل ذلك أن المجتمعات المحلية تتدرج بشكل مستمر ومنتظم من الريفية إلى الحضرية، وفقا لعدد من الخصائص وأن هذا التدرج تواكبه بالضرورة اختلافات أو فروق متسقة فى أنماط السلوك، ونحن نلاحظ فى الوقت الراهن أن مدن المجتمع المصرى المعاصر، وبخاصة مدينة كمدينة القاهرة الكبرى قد تريفت، بمعنى أن أنماط السلوك الإنسانى لمن يعيشون بين جنباتها قد اختلطت وأصبحت أقرب إلى أنماط الريف. فقد نلاحظ مثلا أن "الأتوبيس العام" قد يكون مزدحما بمن يحمله من الركاب الذين يبغون الوصول إلى مواقع عملهم او إلى مدارسهم وجامعاتهم، فإذا بالسائق يوقف "الأتوبيس" حتى يتيسر "للكمسارى" أن ينزل لجلب كوبين من الشاى مثلا من المقهى الذى وقف أمامه ولا يتحرك الأتوبيس من مكانه على الرغم من الأجسام المكدسة سواء كانت أجساما لأطفال أو لشباب أو لرجال أو لنساء حتى يحضر الكمسارى المطلوب، وتصرف السائق والكمسارى فى هذه الحالة هو تصرف من يملك الشارع وكأنهما يسيران على "الزراعية" فى الريف المصرى، ومثل هذا النمط من السلوك الريفى نجده عندما تجمع كناسة "الشارع" أو "المنزل" وتحرق بلا مبالاة فى أحد أركان الشارع أمام المنزل ! وأصبحت أنماط السلوك الريفى تملأ المناخ الثقافى الاجتماعى فى

هذه المدينة وغيرها من المدن والمراكز فى المجتمع المصرى فى الوقت الراهن، ولعل ذلك يرجع إلى الهجرة الداخلية غير المنتظمة سواء كانت هجرة داخلية من الريف إلى الحضر أو هجرة إلى مدن مصر، قد تكون مؤقتة نعم، ولكن المهاجرين يحملون على أكتافهم عناصر ثقافة أوطانهم التى جاءوا منها، وقد تختلف هذه العناصر جذريا مع عناصر الثقافة المصرية.

والمعلوم أن أنماط التعبير عن العنف عن طريق السلوك العدوانى سواء كان الأخير ضد الأفراد أو ضد السلطة وممثليها، كما سبق أن ذكرت مرات عديدة، وفى ضوء متصل السلوك العدوانى الإنسانى الذى اتخذته نبراسا كما أوضحت نلاحظ أن هذا السلوك قد يبدأ سلبيا ثم يتدرج إلى أن يكون إيجابيا، وأقصد بذلك فى ضوء المقصود من الدراسة الحالية أن عدوان الشخص قد يوجه ضد الآخرين عن طريق الاعتداء على الأموال (السرقة مثلا) أو الاعتداء ضد الآداب العامة (ظاهرة البغاء مثلا) أو يوجه ضد الدول (التجسس لحساب دولة أخرى) أو يوجه ضد الأشخاص (الضرب والقذف والقتل مثلا).

وفى ضوء ما سبق، أى فى ضوء، "المتصل السلوك العداونى الإنسانى " الذى تبنته الدراسة الحالية، أرجو أن يلاحظ القارئ الكريم العلاقة الحميمة بينه وبين "علم الإجرام" والمقصود بهذا العلم أنه يهدف إلى دراسة الظاهرة التى تسمى عادة بظاهرة "الإجرام" أو ظاهرة "الجريمة".والملاحظ أن علم الإجرام قد يكون علما نظريا أو علما تطبيقيا. ومهما يكن من الأمر فإنه كعلم استقرائى. مثله مثل العلوم الاستقرائية يهتم بملاحظة الحقائق (الوقائع) ملاحظة دقيقة بقدر الإمكان، ويحاول بكل الأساليب المتاحة التعرف على عوامل الظواهر الإجرامية ومن ثم فهو فى هذه الحالة يهتم أول ما يهتم باحدى مناطق اهتمامه ألا وهى التعرف على "عوامل الجريمة" أو ما يسمى بعلم الـ(Etiology) ، وإذا كانت المادة التى يهتم بها علم الإجرام هى ظاهرة الإجرام، أى الجرائم التى ترتكب وأعضاء المجتمع الذين يرتكبونها فضلا عن الإجراءات القانونية التى تتصل بهذه الجرائم من قريب أو من بعيد – فإنه من المستحسن محاولة تعريف مفهوم أو ظاهرة الجريمة، والملاحظ أن هذا المفهوم كأحد المفاهيم الإنسانية له صور عديدة فضلا عن أنه مفهوم

فضفاض، أى له معان عديدة أيضا، وهى أولا وقبل كل شئ أنماط من السلوك إذا أداها المواطن أو امتنع عن تأديتها، فى ضوء قانون العقوبات، يستحق العقاب.

وقد يرى البعض أن مفهوم أو ظاهرة الجريمة ينتمى إلى فئة الأفعال اللاأخلاقية، ومع ذلك فالملاحظ أنه ليس كل الأفعال اللاأخلاقية تكون بالضرورة جرائم

ويجب التأكيد على أن مفهوم علم الإجرام بمعناه الواسع لا ينتمى فقط إلى علم الـ (Etiology) بل ينتمى أيضا إلى علم الـ (penology) وعلم الـ(Criminalistics) .

والملاحظ أنه منذ منتصف الستينيات من القرن الحالى قد ظهرت حركة مميزة من أجل التغيير الجوهرى فى نظرية "علم الإجرام" وتطبيقاتها حين قام بالتمرد طلاب الجامعات والعمال، والفقراء ساكنو المناطق المنعزلة فى المدينة (الحوارى) فى البلاد الغربية الصناعية فى ذلك الحين. وكانت آثار ردود الفعل لهذا التمرد، على الحكومات وبخاصة فيما يتعلق بالتوازن السياسى الاجتماعى ومايتصل به، أن أوجدت الحوار المتنوع والمناقشات العديدة ليس فقط فى محيط العمل الراديكالى بل فى الفكر الراديكالى أيضا.

ومن ثم اتجه علم الإجرام نحو الراديكالية كما اتجه نحو موضوع "الضبط الاجتماعى" وبخاصة ما تعلق بالمهن التى تهتم بالمساعدة على تأييد وجوده فى المجتمع.

والملاحظ أن تعريف مفهوم علم الإجرام (الراديكالى) مسألة صعبة المنال، ولكننا نجد أن هذا المفهوم يرى، على وجه العموم، أن القانون الجنائى والإدارة التى تشرف عليه هما جزء من الدولة وأن هذه الدولة إن هى إلا جهاز قمعى يعمل فى سبيل مصالح الطبقة التى تملك رأس المال (الطبقة البروجوازية)..

والملاحظ أيضا أن ما هو راديكالى من حيث نسبته إلى علم الإجرام لم يكن متحجرا بل أخذ فى اعتباره اختلاف الثقافات وتغيرها فى النظرية وفى التطبيق وقد اهتم هذا العلم منذ بزوغ فى أفق المعرفة (أى منذ منتصف

الستينيات من القرن الحالى) بالتغييرات الرئيسية المتعلقة بالسلوك الإجرامى، أى بمعناها ودورها المتاح فى التغيير الاجتماعى، فضلا عن الحالة التى تؤدى الدولة وظائفها بالنيابة عن مصالح الطبقة التى تؤيدها، وهى فى هذه الحالة الطبقة البرجوازية، وعلى سبيل المثال يمكن أن نتساءل : هل السلوك الإجرامى يعنى أنه تأييد للرجعية السياسية ؟ وهل الأشخاص المجرمون هم ضحايا أم أنهم أشخاص متمردون ؟

والملاحظ كذلك أن علم الإجرام الراديكالى يهتم أول ما يهتم فى ضوء عوامل وجوده، بدراسة مصالح الدولة، وأن حواراته ومناقشاته تدور حول هذه المصالح من حيث إنها تخدم الدولة وتيسر وجودها عن طريق الوعى الطبقى أو يكون ذلك عن طريق التعسف البنائى الموجود فى المجتمع. (انظر سيد عويس : المعجم العربى فى العلوم الاجتماعية، المركز الإقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية).

وبالإضافة إلى ماذكرته من قبل أرجو أن يسمح لى القارئ الكريم بأن أذكر بعض القضايا التى تتصل به، وهى قضايا وصلت إليها فى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التى قمت بإجرائها وهى :

– إن تقدم العلوم المادية (علوم الفيزياء والكيمياء والميكانيكا مثلا) يكون له أثر فعال على الإنسان فى علاقته مع نفسه ومع الناس الذين من حوله.

– إن معنى ذلك أن العلوم المادية تسبق عادة العلوم الإنسانية (علم الإجتماع وعلم النفس الاجتماعى وعلم الخدمة الاجتماعية مثلا) التى تتعلق مباشرة بالسلوك الإنسانى على وجه الخصوص.

– إن العلوم المادية وغير المادية تزدهر فى ظل الظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية المواتية، وهى أيضا فى تطور مستمر وتتجدد على مر الأيام.

– إن تباين تقدم العلوم غير المادية ومنها علم الإجرام فى المجتمعات البشرية لا يرجع عادة إلى المستوى الذى بلغته العلوم المادية ولكن أيضا إلى الواقع الحى لهذه المجتمعات وعلاقة كل مجتمع بالمجتمعات الأخرى المتقدمة

منها والنامية، فضلا عن واقع الثقافات السائدة فى هذه المجتمعات وتاريخ كل مجتمع منها.

- إن التكامل الثقافى بين العلوم المادية والعلوم غير المادية أصبح قضية لا يختلف عليها اثنان. (انظر سيد عويس : علم الإجرام : دراسة مقارنة، دراسة علمية غير منشورة، عام ١٩٨٦).

وفى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التى قمت بإجرائها وموضوعها "حول عقوبة الإعدام فى مصر" (المجلة القومية الجنائية - العدد ٢ - ٣ يونيو - نوفمبر ١٩٧٨، صفحات ٩٣ - ١١٧) اتضح لى مايلى :

- إن فئة المجرمين بعامة هم نتاج المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون. فالمجتمع أى مجتمع كما يستحق المواطنين الصالحين الذين يضمهم فهو أيضا يستحق المواطنين الصالحين (ومنهم المواطنون المجرمون) الذين يوجدون فيه

- إن جريمة القتل جريمة خطيرة وينفر منها المجتمع الإنسانى مافى ذلك من شك، وذلك لأن المجتمع يخسر الشخص الذى قتل أو الأشخاص الذين قتلوا، ومع ذلك فالملاحظ أن القتل فى المجتمعات الإنسانية لا يحدث بالضرورة كمخالفة لقانون العقوبات، فالحروب والفيضانات والزلازل وحوادث الطيران وغيرها كحوادث المرور تسبب قتل الأبرياء وغير الأبرياء من الأطفال والشباب والرجال والنساء.

- إن القتلة العاديين الذين يدانون ويحكم عليهم بعقوبة الإعدام لا يختلفون كثيرا عن القتلة الأخرين من الأشخاص الطبيعيين كالقتلة فى الحروب وحودات المرور مثلا، ولا يعنى ذلك أن يترك القاتل العادى الذى يمثل أمام المحكمة ويدان وشأنه، بل يجب أن تدرس حالته حتى نصل إلى بعض الحقائق عن شخصيته لكى نيسر له إعادة تنشئته إلى حظيرة الإنسانية مواطنا صالحا يحب السلام ويدعو إليه، ولكى يزداد فهمنا للنفس البشرية مما يسر عمليات التنشئة السوية للمادة البشرية فى المجتمع ووقاية أعضائها من الجريمة والجناح والأنماط الأخرى التى تكون مادتها العنف بألوانه المختلفة

- إن القاتل العادى أو حتى غير العادى (أى الذى يقتل وهو يحارب بدافع الوطنية أو الذى يرتكب جريمة قتل خطأ أيا كانت مثلا) لا يمكن أن يحاسب ويعاقب، فيعدم الأول ويسجن أو يعتقل الثانى مثلا على أساس أنه يملك مايسمى بالإرادة الحرة، ومن ثم فهو مسئول عن تصرفاته وأفعاله. ذلك أنه لا يوجد إنسان يملك هذه الإرادة الحرة، وأن ردع المجرم الذى يعدم لا طائل فيه وردع الآخرين لا يثبته الواقع، فالجرائم لا تزال ترتكب سواء أكانت جرائم قتل عمد ارتكبت مع سبق الإصرار والترصد أم غيرها كالضرب الذى أفضى إلى الموت والسرقة بالإكراه، والتزوير والتجسس.. إلخ. صحيح أن الإنسان منا "البالغ" لديه إرادة ولكنها ليست حرة حرية مطلقة. إنها محدودة فى ضوء الإمكانات والقدرات. والملاحظ أن القدرات الإنسانية قد تكون منتظمة أو غير منتظمة، والقدرة المنتظمة هى التى تستند إلى العلم، أقصد التى تستند إلى الفهم الموضوعى للظواهر الإنسانية أو المادية، وذلك فى ضوء التعرف على القوانين التى تحكم هذه الظواهر الإنسانية أو المادية، ومن ثم نرى ان قدرة الإنسان المنتظمة هى قدرته التى تيسر التغيير إن اقتضت الضرورة هذا التغيير.

- إن الأحكام بعقوبة الإعدام قد زادت بعد عام "١٩٥٢" (أى فى خلال الفترة من "١٩٥٣" إلى عام "١٩٧٣") عنها قبل ذلك (أى فى خلال الفترة من عام ١٩٣٢ إلى ١٩٥٢) ومن ثم فإن الأشخاص الذين حكم عليهم بالإعدام فى الفترة الأولى قد زاد عددهم، وكانت نسبة من حوكم من هؤلاء أمام محاكم استثنائية مثل المحاكم العسكرية، ومحاكم أمن الدولة العليا ومحكمة الشعب، ومحكمة الثورة فى خلال فترة الدراسة العلمية الحالية (أى من عام "١٩٢٣" إلى عام "١٩٧٣" نحو ١٦,٣٪ من الحالات التى عرفت فيها جهة صدور الحكم بالإعدام شنقا أى ٨٩ شخصا من ٥٤٦ شخصا) وقد حوكم ٧٠ شخصا من الـ ٨٩ شخصا فى الفترة من عام (١٩٥٣ إلى عام ١٩٧٣)، أى بعد عام ١٩٥٢ بنسبة نحو ٧٨,٧٪ أما الباقى وقدره ١٩ شخصا بنسبة نحو ٢١,٣٪ فقد حوكموا أمام محاكم استثنائية فى خلال الفترة من عام "1932" إلى عام "١٩٥٢".

- ليس كل من يرتكب جريمة قتل أو جرائم أخرى تستحق، في ضوء قانون العقوبات المصرى، عقوبة الإعدام يحكم عليه إذا ما أدين بالإعدام، وليس كل من يحكم عليه بالإعدام بالضرورة ينفذ فيه هذا الحكم.

- إن عددا من الذين حكم عليهم بعقوبة الإعدام من المواطنين المصريين فى خلال فترة الدراسة الحالية ونفذ فيهم هذا الحكم، لا يعتبرهم الكثيرون فى ضوء تغير الظروف الاجتماعية والسياسية مذنبين. بل هم فى نظر هؤلاء أبطال وشهداء، والأمثلة على ذلك عديدة، ومن حق القارئ الكريم أن يأخذ بما يراه هؤلاء أو لا يفعل ذلك، ومهما يكن من الأمر فإن المجتمع المصرى بإعدامهم قد خسر، فى رأيى، حتما النفع الاجتماعى الذى يكمن بالضرورة فى شخصية كل منهم، وهو نفع فى ضوء مستواهم الثقافى والاجتماعى، وفى ضوء الاهتمام العام الذى كان يملأ نفوسهم سواء كان اهتماما بالعقيدة أو بالوطن أو بالفكر، وفى ضوء العصر الذى عاشوا فيه، وماتوا نفع ثمين مافى ذلك من شك.

وبالإضافة إلى ما سبق فإننى أذكر أنه فى ضوء وقائع التاريخ نجد الكثير من المفكرين وأصحاب العقائد والمثل العليا قد أدينوا ظلما وحكم عليهم بالموت. فقد استقبل حياة الخلود كل من المعبود المصرى القديم "أوزوريس" (أول الشهداء) والفيلسوف "سقراط" (٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م)، والقديس "مرقص البشير" (٦٨م) والإمام على بن أبى طالب (٢٣ قبل الهجرة - ٤٠ هجرية، أى حوالى ٦٠٠ - ٦٦٠م) والإمام الحسين بن على (أبو الشهداء ٦٢٥ - ٦٨٠ م) والإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (٦٩٩ - ٧٦٧ م) والفيلسوف "جيوراندو برونو" (١٥٤٨ - ١٦٠٠ م) لأنهم وقفوا صامدين يدافعون عن عقائدهم وأفكارهم وكأن لسان حالهم كما قال سقراط لقضاته : ".. سيذهب كل منا فى طريقه، أنا فى طريقى إلى الموت، وأنتم فى طريقكم لتعيشوا، والله يعلم أى الفريقين أهدى سبيلا، وكما قا الإمام على بن أبى طالب لابنه الحسن فى شأن ضاربه "أبصروا ضاربى، أطعموه من طعامى، واسقوه من شرابى، وإذا أنا مت فلا تغال فى كفنى، وكبر على سبعا، وفى رواية خمسا، وغيب قبرى"

والتاريخ يزخر بغير هؤلاء الأبطال، التاريخ القديم والتاريخ الحديث، والحديث عن صرعى التفرقة العنصرية أو التفرقة الدينية، والمعتقلات، والسجون، أصحاب الرأى والعقيدة، طويل طويل طويل، فنحن فى عصرنا الحالى نعيش خبراتهم فى كل يوم بل فى كل لحظة، ولعل ذلك يرجع إلى ماذكره "العقاد" فى كتابه (العبقريات الإسلامية، المجلد الثانى، بيروت، دار الكاتب اللبنانى صفحة ١٥٩) ".. مسكينة هذه الإنسانية !.. لا تزال فى عطش شديد إلى دماء الشهداء، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سبيل المصلحة الزائلة، أو لعل العطش الشديد إلى دماء الشهداء يزداد فى هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة، لأنه الزمن الذى وجدت فيه الوحدة الإنسانية وجودا ماديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد فى الضمير وفى الروح كما وجدت فى الخريطة الجغرافية وفى برامج السفن والطائرات "

وقد يلخص هذا وربما يؤكده ما ذكره "صلاح عبد الصبور" مؤلف المسرحية الشعرية "مأساة الحلاج" (*) (الحسين بن منصور الحلاج : ٨٥٨ - ٩٢٢ م) الذى كان مشغولا بقضايا مجتمعه فوقفت الدولة ضده وصلبته فى احدى ساحات بغداد ولسان حاله :

"كان يقول :
إذا غسلت بالدماء هامتى وأغصنى
فقد توضأت وضوء الأنبياء
كان يريد أن يموت، كى يعود للسماء
كأنه طفل سماوى شريد
قد ضل عن أبيه فى متاهة المساء
كان يقول :
كأن من يقتلنى محقق مشيئتى
ومنفذ إرادة الرحمان

(*)(انظر كتاب: صلاح عبد الصبور، مأساة الحلاج، مسرحية شعرية، بيروت منشورات دار الآداب، ١٩٦٥، صفحات ٢٠-٢٢)

لأنه يصوغ من تراب رجل فان
أسطورة وحكمة وفكرة
كان يقول :
إن من يقتلني سيدخل الجنان
لأنه بسيفه أتم الدوره
لأنه أغاث بالدماء إذ نخس الوريد
شجيرة جديبة زرعها بلفظي العقيم
فدمت الحياة فيها، طالت الأغصان
مثمرة تكون في مجاعة الزمان
خضراء تعطي دون موعد، بلا أوان
وحين أسلمه السلطان للقضاء
ورده القضاة للسلطان
ورده السلطان للسجان
ووشيت أعضاؤه بثمرة الدماء
تم له ماشاء
هل نحرم العالم من شهيد ؟
هل نحرم العالم من شهيد ؟

-4ظاهرة الشعور بالعداوة وبعض أنماطها وعواملها :-

تحدثت قبل ذلك عن "مفهوم العنف" وذكرت أن العنف هو سلوك عدواني، أو هو وليد الشعور بالعداوة. وذكرت أيضا أن الشعور بالعداوة قد يوجه ضد الطبيعة أو يوجه من أفراد إلى أفراد أو من أفراد إلى جماعات منتظمة أو من جماعات منتظمة إلى جماعات أخرى منتظمة.

وفي ضوء ما سبق نجد أن مفهوم "الإرهاب" بمعنى السعي للحصول على السلطة والسلطان بالقوة والعنف، سواء أكانت الجماعات القائمة بهذا الإرهاب من الأقليات أم كانت من جماعات الأغلبية – موجود في كل زمان ومكان، ولكن الملاحظ أن الإرهاب، الذي يواكبه العنف بالضرورة، يستشري في دول العالم في الوقت الراهن، وبفضل وسائل الإعلام العديدة

التى جعلت من العالم الذى يعيش بنو البشر بين جنباته مجرد قرية صغيرة، أصبح الإرهاب يكاد أن يوجد فى كل مكان فيها. فهو موجود فى الوقت الحاضر فى جميع قارات العالم..

وفى ضوء الواقع نلاحظ أن أساليب الإرهاب متنوعة، فقد يستعمل الإرهابيون كل أنواع وسائل العنف (المتفجرات واختطاف الطائرات أو البواخر أو الأسلحة النارية مثلا). ونحن نلاحظ أن كل جماعة من جماعات الأقليات أو جماعات الأغلبية يرى أعضاؤها أن أهداف إرهابهم مشروعة : كل من وجهة نظره. وإذ أتساءل عن هذه وجهة النظر، لكى أيسر على القارئ الكريم التعرف على ماسبق ذكره، السؤال الضرورى وهو : الإرهاب الذى يستخدم الوسائل العنيفة المتنوعة ضد من ؟ فإننى أجد كما يجد غيرى أن الإجابة عن هذا السؤال تكون فى العادة إجابة متحيزة ! وذلك لأننا نلاحظ أنه باسم "الوطنية" مثلا تشن الحروب التى يكون ضحاياها الملايين من البشر، والتى تدمر الحضارات وتقف فى بعض الأحيان أو فى الحقيقة فى الكثير من الأحيان فى سبيل ازدهارها وتنميتها، فضلا عما تجلبه من الهلع، والدمار النفسى للأطفال، وكبار السن، والمعوقين، والمعوقات.. إلخ (انظر سيد عويس : المعجم العربى فى العلوم الاجتماعية، المركز الإقليمى العربى للبحوث والتسويق فى العلوم الاجتماعية)

وأود أن أعترف للقارئ الكريم أن الموضوع الحالى لا يقصد أن يتحدث عن مفهوم الإرهاب، ولكن هدف أهدافه التحدث عن ظاهرة الشعور العدوة، وبعض أنماطها وعواملها. ولولا أن الصلة وثيقة بين هذا المفهوم وبين ارتباطه بظاهرة الشعور بالعداوة التى هى كما سبق أن أوضحت معناها، فإننى أرجو أن ألا يمل القارئ الكريم من هذا التكرار وإن كنت مازلت مصرا على موقفى من هذا الرجاء.

وأنماط الشعور بالعداوة عديدة. نلاحظ وجود هذا الشعور وهو يوجه من الذات إلى خارجها، وفى هذه الحالة يعمل على مستويات معينة. منها مستوى الشعور بالعداوة المركز على أشخاص. معينين، ومنها مستوى الشعور بالعداوة المركز على جماعات معينة أو مستوى الشعور بالعداوة

الجماعي، وهناك مستوى أخر لهذا الشعور يوجه عادة ضد الذات من داخلها، وقد ذكرت من قبل أمثلة على هذا المستوى منها الانتحار مثلا.

ومن أنماط الشعور بالعداوة ما يعتبر عدوانا مزاغا او منحرفا، أى أنه لا ينعكس ضد المصدر الأصلى بل يحيد عنه وينحرف ضد مصدر آخر بديل، ويعتبر هذا النمط من الشعور عاملا هاما من عوامل الصراع العنصرى أو الصراع الثقافى، ومن الظروف التى تحدد هذا النمط نجد ألوان الإحباط أو الحرمان التى تفرضها بعض المصادر الغامضة أى المصادر التى يصعب تعريفها أو تحديدها، أو تلك التى يفرضها الأشخاص الذين يكونون من ذوى النفوذ والسلطان على الشخص الذى يمارس هذا النمط من الشعور الذى تفرضه المنظمات الثقافية الاجتماعية ذات النفوذ والسلطان، أو التى يفرضها اشخاص يرتبط هذا الشخص بهم عاطفيا أرتباطا وثيقا (الأشخاص المتطرفون سواء كان تطرفهم سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا مثلا). ومن الظروف التى تحدد هذا النمط تلك التى تمنع ألوان الشعور بالعداوة المثارة من التعبير المباشر تجاه مصادر الإحباط الأصلية، وبخاصة عندما يكون بديل الهدف الأصلى للعدوان متاحا، ويكون واضحا ومن الممكن مهاجمته، بمعنى أن يكون فى وضع لا يمكنه من رد العدوان.

ويبدو أنه فى حالة العدوان المباشر نجد، دائما، قدرا من العدوان المزاغ يصاحبه والذى يضيف إلى قوة منطقية الإعتداء قوة إضافية.

ونجد من أنماط الشعور بالعداوة نمطا، آخر، واسع الانتشار، وهو نمط متكرر وعلى جانب من الأهمية، وهو أيضا نمط من أنماط التكوين العاطفى فى المجتمع الإنسانى، ونلاحظ هذا النمط فى سهوله، وفى يسر على مستوى البديهيات، والأمثلة العادية عليه عديدة. منها مثال الطفل الذى يعاقبه والده أو تعاقبه والدته فنراه يدمر لعبته او يقسو على الحيوان الأليف، ومنها مثال الموظف الذى يعامله رئيسه معاملة مهينة فنراه يعكس هذه المعاملة على أعضاء أسرته. ومنها مثال رجل الأعمال الصغير الذى يواجه الفشل فنراه ينضم إلى احدى الحركات المعادية للأقليات..

ومن عوامل الشعور بالعداوة، من حيث زيادة هذا الشعور ومن حيث انخفاض نسبته، عامل الإحباط أو احدى دلالاته أو حتى وظيفة من وظائفه.

فنحن نلاحظ فى ضوء ظروف معينة أنه كلما ازداد إحباط رغبات إنسانية عامة عند شخص معين أو عند اشخاص معينين أو إحباط حاجات اجتماعية لهم - كلما ازداد الشعور بالعداوة عندهم، ومن الملاحظ أن الإحباط. من حيث اثاره المترتبة عليه يتباين. فقد يكون مجرد "حرمان من حاجة من الحاجات التى يحتاجها الإنسان عادة أو قد يكون إحساسا بـ "تهديد شخصية هذا الإنسان" ومن المتوقع ان ينتج أشد ما يكون من ألوان الشعور بالعداوة عن ألوان من الإحباط التى تتضمن بعض السمات منها تلك التى تقف حائلا أمام الآمال العادية أو أمام التوقعات العادية التى تعتبر من الناحية الأدبية توقعات منطقية، ومنها تلك التى تولد الإحساس بأنها غير ضرورية ومن الممكن تجنبها، ومنها تلك التى تعتبر تهديدا لنظام أمن الشخصية الإنسانية كلها، أى تهديد لإحساس الشخص بمكانته الاجتماعية، وهذا يختلف الضرورة عن مجرد حرمان الشخص من حاجة من حاجاته الجزئية.

ويعتبر الشعور بالعداوة، كذلك أحد وظائف الشعور بعدم الأمان فنحن نلاحظ فى حدود معينة، انه كلما ازداد بعدم المان كلما ازداد الشعور بالعداوة، وفى ضوء نتائج بحوث ودراسات علوم الاجتماع، والنفس الاجتماعى، والطب النفسى نجد أن الأشخاص الذين يشعرون بعدم الأمان هم أنفسهم الذين يعبرون عن الشعور بالعداوة ضد الآخرين.

ويلاحظ أن القلق المرضى قد يتولد عادة من الشعور بالعداوة المكبوت وهو الشعور بالعداوة، والمثل الواضح فى المجتمع المصرى المعاصر ما يعانيه اعضاء هذا المجتمع من الشباب وبخاصة الذين فى الفئة العمرية من سن ١٥ إلى سن ٢٥، فى ضوء الظروف الاقتصادية والثقافية الاجتماعية والسياسية، من هذا القلق المرضى. فهم أى هؤلاء الشباب يعانن ليس فقط من هذا النوع من القلق ولكن من امور اخرى منا عدم وضوح الرؤية، ومنها عدم وجود القدوة الحسنة، ومنها عدم الاهتمام بإشراكهم فى تقرير مصيرهم، وتنفيذ الخطوات الضرورية لتحقيق هذا المصير من أجلهم ومن أجل من يأتى من بعدهم الذى يؤكد لهم المستقبل المشرق.

وقد يتخذ الشعور بالعداوة أشكالا متباينة عديدة ولكنها محددة، وتكون بالضرورة نتاجا لأنماط معينة من المواقف الاجتماعية التى ذكرت بعضها

فى الفقرة السابقة. مع ملاحظة أن العدوان إذا كان علنيا أو حتى إذا كان مقنعا لايكون بالضرورة هو الاستجابة الوحيدة الممكنة لتحقيق التكيف الاجتماعى، وذلك لأن "الانسحاب، والسلبية والتسامى، والاسترضاء، والهروب، وغيرها من الاستجابات مثلا" قد تكون فى بعض الأحيان ذات أثر فعال فى إضعاف البواعث العدوانية عند الذين يتعرضون للحرمان أو للتهديد. ومهما يكن من الأمر فإنه قد يكون العداون العلنى أكثر إرضاء عند الشخص من العدوان غير العلنى. وأن تكرار الاستجابات البديلة قد يتناسب طرديا مع قوة الاستجابات المتوقعة بالنسبة لتوقيع العقاب على العدوان، وأن تكرار الاستجابات البديلة قد يتناسب عكسيا مع القوة الحافزة للإستجابه التى تتعلق بتحقيق هدف معين وتكون قد أحبطت، وأن العدوان المباشر، يفترض مع كل ذلك، أن يكون أكثر إرضاء عند الشخص من العداون غير المباشر.

وفى ضوء خبراتى فإننى أرجو أن يسمح القارئ الكريم بأن أنكر إحدى التجارب التى مرت على عندما كنت أدرس للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة بوستن فقد نصحنى أستاذى "ألبرت موريس" رئيس قسم الاجتماع والانثروبولوجيا بهذه الجامعة لأنضم إلى جماعة من طلبة الدراسات العليا بالجامعة لدراسة مادة العلاج الجماعى تحت إشراف الدكتور "روبرت و هايد" وكيل المستشفى السيكوباتى بمدينة بوستن فى خلال المدة من يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٥ إلى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥. وكانت هذه الجماعة عشرة أعضاء كنت واحدا منهم، وكان موضوع البحث الذى كان على هؤلاء الطلبة أن يقوموا بإجرائه جماعيا "الشعور بالعداوة"

وكان من نتائج هذا البحث الجماعى بعض أساليب التعبير عن هذا الشعور، وقد استطاعوا أقصد أعضاء اللجنة وقد ضم إليهم الدكتور المشرف، ومساعده الوصول إلى ثلاثة وعشرين أسلوبا من أساليب التعبير عن الشعور بالعداوة هى :

الإثارة - كون الشخص متسلطا - التعبيرات البدنية - المعارضة المطلقة - مركز الانتباه - التمييز ضد - المعاملة فى غير احترام مع الأنانية - إرباك الآخرين - التعبير عن الإحساس بالسمو - المزاح -

الأسلوب العقلى - المعاملة النفعية - الجزء الزائد على الحد - الاعتداء البدنى - الوقاحة - الإسقاط - التحكم التام مع التسليم بذلك - تحميل شخص ضعيف خطايا غيره - عقاب الذات - المعاملة الصامتة - إفساد ذات البين - لهجة الحديث - الإذعان دون اقتناع.

والملاحظ أن أعضاء الجماعة المذكورة قد انتهوا إلى أن التعبير السليم عن الشعور بالعداوة، وإن كان مجرد اقتراح قدمته الجماعة لتجربته، ومحاولة إثبات فعاليته عن طريق التجربة يتفق إجمالا دون ما تفصل مع مضمون الآية القرآنية الكريمة :

"ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم" [*] (٣٤ ك فصلت : ٤١)

[*] (نظر كتاب : سيد عويس، محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة، القاهرة دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨ صفحتا ١٠٥:١٠٦ وصفحة ١١٧)

أمثلة حية معاصرة

عن بعد أنماط العنف

٥- حول مشكلة الانتحار

على الرغم من أن المصريين الأقدمين كانوا يعملون كل ما يستطيعون من أجل الخلود أى لكى يحيوا بعد الموت، وعلى الرغم من أن فكرة الحياة بعد الموت احتلت فى أنفسهم المكانة العظيمة، وعلى الرغم من أنهم كانوا يخلدون الروح فى قول، وكانوا يؤمنون بالقيامة والبعث وفى كلتا الحالتين كانوا يؤمنون بالخلود الشخصى بعد الموت

وعلى الرغم من أن المصريين المسيحيين يؤمنون أيضا بالحياة بعد الموت، حيث يرجع "التراب" (أى الجسد) إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذى أعطاها "جامعة ١٢: ٧"

وعلى الرغم من أن المصريين المسلمين يجمعون على أن الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلى حال.

وعلى الرغم من أن العنف هو عدو السلام وأن الدعوة إلى السلام هى دعوة إلى الحياة، وأن حفظ الحياة هو هدف الأهداف.

على الرغم من كل ما سبق نلاحظ فى ضوء ما تحدثت عنه عن موضوع "متصل السلوك العدوانى الإنسانى" (أنظر : ثانيا رقم ٣ من الكتاب الحالى) فإننا نجد من المصريين من يحاولون الانتحار أو ينتحرون فعلا. صحيح أن عدد هؤلاء وأولئك عدد قليل فى ضوء إحصاءات تقارير الامن العلم السنوية، ولكننا نجدهم من حين إلى حين باستمرار أى على مر السنين والأعوام، ولعل قلة عدد من يحاولون الانتحار أو ينتحرون فعلا من المصريين سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين الذين يمثلون الوحدة الوطنية فى بلادنا العزيزة. ترجع إلى التراث الذى ذكرته أنفا، وترجع أيضا إلى تعاليم الديانة المسيحية وإلى تعاليم الديانة الإسلامية.

والملاحظ أن الأساليب المستخدمة في الشروع في الانتحار أو الانتحار في بلادنا تعكس ما وصل إليه المجتمع المصري من مستوى تكنولوجي. فالمصري الذي يشرع في الانتحار أو حتى الذي ينتحر يستخدم أساليب لايستخدمها الإنجليزي أو الروسي أو الأمريكي أو الياباني. وبالمثل نجد أن عوامل الشروع في الانتحار أو الانتحار عوامل متباينة وذلك لأن العناصر الثقافية التي توجد في كل مجتمع من المجتمعات التي يعيش فيها المصري والإنجليزي والروسي والأمريكي والياباني متباينة كذلك.

وكان أول عهدي بدراسة ظاهرة الانتحار دراسة علمية عندما كنت أدرس الدراسات العليا للحصول على درجة الدكتوراه. كان علي أن امتحن امتحانا أترجم فيه فصلا من فصول كتاب باللغة الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية، وطلب مني أن أقرأ كتاب "أميل دوركايم" عالم الاجتماع الفرنسي عن "ظاهرة الانتحار" باللغتين الانجليزية والفرنسية" (لغته) الأصلية) وإنني أذكر أنني كنت أفعل ذلك كل يوم لمدة ساعة لفترة ثلاثة شهور، وكنت اقتدى بعلي ماهر الذي لم يكن يعلم عن اللغة الألمانية شيئا واضطر ليتعلمها عندما شكلت لجنة وضع الدستور عام ١٩٢٣ لكي يطلع على الدستور الألماني للإفادة منه. كان علي ماهر قد فعل مافعلته. أقصد أنني فعلت ما فعله علي ماهر، وهذا طبعا مع الفارق. كان علي ماهر يفعل مافعل عن طواعية فلم يكن أمامه اتحان في اللغة الألمانية، وكنت مضطرا لأذاكر اللغة الفرنسية حتى اجتاز امتحان الترجمة المطلوب مني قهرا.

وقد درس "دوركايم" مشكلة الانتحار في مظهرها الاجتماعي، وذلك من خلال ما يكشف عنه تحليل الإحصاءات الرسمية من تكرار حدوث الشروع في الانتحار في مجتمع معين، وفي وحدة زمنية محددة أو على مدى أكثر من وحدة زمنية واحدة، واقتضى منهج دوركايم الإشارة إلى دلالة هذا التكرار وتغايره زمانا ومكانا في مجتمع واحد أو أكثر، وارتباطه أو مصاحبته لظواهر أو مشاكل أو تغيرات اجتماعية تجري أحداثها في نفس الفترة الزمنية أو تسبقها بقليل على مسرح المجتمع موضع الدراسة.

وقد انتهى "دوريكايم" في دراسة ظاهرة الانتحار إلى تصنيف معين بعد أن حاول أن يعرف ظاهرة الانتحار بما يلي :

"إصطلاح ظاهرة الانتحار يطبق على أى موت يكون نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لفعل إيجابى أو سلبى قام به المجنى عليه نفسه "

ولكن "دوركايم"لاحظ أن هذا التعريف غير كامل فأعاد صياغته فيما يلى :

"اصطلاح ظاهرة الانتحار يطبق على جميع حالات الموت التى تكون نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لفعل إيجابى للمجنى عليه نفسه الذى يعلم أنه سيحدث هذه النتيجة"

أما اصطلاح ظاهرة الشروع فى الانتحار فقد عرفه بمايلى :

"هو الفعل الذى لا يصل إلى حد حدوث الموت فعلا"

وقد أكد "دوركايم" على أن التعريف الأخير لا يمكن أن ينطبق على الحيونات.

وقد انتهى "دوركايم" فى دراسته عن الانتحار إلى التصنيف التالى :

– الانتحار الأثرى (الذى يرتكبه الشخص الأنانى أو المحب لذاته) ويرى "دوركايم" أن هذا النمط من الانتحار يكون ناتجا عن عدم تكامل شخصية الفرد فى المجتمع الذى يعيش فيه.

– الانتحار الإيثارى (الذى يرتكبه الشخص مفضلا غيره على نفسه) : ويرى "دوركايم" أن هذا النمط من الانتحار يبدو على صور الاستشهاد والتضحية والفداء وموت الجنود فى الحروب باسم الوطنية وبقصد استعمار الآخرين واستعبادهم.

– الانتحار اللامعيارى : ويرى "دوركايم" أن هذا النمط يظهر فى فترات الاضطراب واختلال التنظيم الاجتماعي وخصوصا فى خلال الثورات والتغيرات الاجتماعية الحادة وتحت وطأة الأزمات الاقتصادية حيث تهتز القيم ذات الأهداف الحميدة وتضطرب عناصر الثقافة فى المجتمع، وقد وصل دوركايم إلى فكرة اللامعيارية فى دراساته الأخرى حتى أصبحت تستخدم فى تحليل عدد من المشاكل الاجتماعية الشخصية، وأعطاها مضمونا عكس مضمون التضامن الاجتماعى، فإذا كان التضامن الاجتماعى يعبر عن

حالـة مـن التكـامل الأيديولوجـى الجمعـى، فـإن اللامعياريـة تعتبـر حالـة مـن التخبط وانعدام الأمـن وفقدان المعـايير الأمـر الـذى تصبـح معـه التمثـلات الجمعية منهارة تماما.

ومن الأمثلةالتى ذكرها "دوركايم" بهـذا الصـدد مثـال الغنـى المفاجئ فهو يرى أنه أحد الدوافع إلى الانتحار على أساس أن الفرد الذى أصبح غنيـا ولم يكن يتوقع ذلك لا يستطيع ان يكافح الفرص الجديدة التى اتيحت له، ومن ثـم فـإن حـدود رغباتـه العاليـة أو المنخفضـة التـى كـان يرنـو إلـى تحقيقهـا، ودرجات سلم حياته، أصبحت كلها قد تزعزت واضطربت.

وضرب دوركـايم مثـلا آخـر عـن "الطـلاق" وهـو يـرى أنـه إذا وقـع الطلاق بين الرفقاء فإن نسبة ارتكاب الانتحار تعلو. وأن الموقف اللامعيارى الذى يواجهه الأزواج المطلقون أصعب من الموقف اللامعيارى الذى تواجهـه الزوجات المطلقات. وذلك لأن الأزواج هم الذين يكتسـبون أكثـر مـن تـأثير الزواج المنتظم.

والملاحـظ أن "أميـل دوركـايم" فـى دراسـاته وبخاصـة دراسـته عـن ظاهرة الانتحار كان فى حقيقة الأمر يؤدى دور عالم النفس الاجتماعى علـى الرغم من معارضته لعلم النفس. كان فى هذه المجالات فـى الواقـع يعـارض "علم النفس الفردى" وقد تجاهل دوركايم بطريقة منتظمة أهمية "مفهـوم القـوة" وكان يرى "أن الناس يوافقون على أمور معينة لأنهم ببسـاطه يرغبـون فـى ان يوافقوا، ونجد "دوركايم" إذ يتجاهل السلطة أو القوة فإنه يتعمد أن يتجـاهل أن التعليم قوة وأن عوامل الإنتاج إذا امتلكها بعض الأفراد لا يـرى فـى ذلـك قوة وكان لايرى القوة السياسية، ومع ذلـك فإنـه كـان اهتمامـه يبـدو واضحـا وهو يتحدث عن "مفهوم الثقافة" وكان يفترض، دون أن يثبت ذلك علميـا، أن ثقافة المجتمع ثقافة متجانسة.

ولابد أن أذكر أن "أميـل دوركـايم" كـان رائـدا علميـا وهـو يـدرس موضـوع ظـاهرة الانتحـار أو الشروع فيـه، ولكننـا نحـن نعلـم فـى الوقـت الحاضر أكثر مما وصـل إليـه فـى دراسـته مـن نتـائج (انظـر سيد عويس : ظاهرة الانتحار لأميـل دوركـايم، باللغـة الإنجليزيـة المجلـة الجنائيـة القوميـة العدد الأول، مارس عام "١٩٧٢"، صفحات ١١٢ - ١٢٢)

وقد واجهت التفكير فى الانتحار بقصد إيذاء ذاتى عن طريق مواجهة العنف حيث تتنازع الإنسان مناخ هذا الموقف، كمرحلة أولى من متصل السلوك العدوانى الإنسانى الذى ذكرته من قبل، قوتان : قوة القاتل وقوة القتيل معا، قوة الجانى وقوة المجنى عليه وفى وقت واحد. فقد كان تفكيرى بقصد تدمير ذاتى وهدم كيانى وإعدام وجودى. فكرت فى القيام بهذه الفعلة الشنعاء عندما لاحظت بعد عودتى من الخارج فى أواخر شهر مايو عام "١٩٥٦" حاملا درجة الدكتوراه فى جعبتى ولم يتفضل أحد من جماعتى المرجعية بزيارتى حيث كنت اجتاز محنة التعطل ولم يكن لى مصدر مالى أعيش به وأسرتى الصغيرة حياتى الإنسانية، كنت وحيدا وأعزل ومنعزلا، وكادت أن تضطرب صحتى النفسية من جراء ماكنت أعانيه فى ذلك الحين من تناقضات بين حقوقى والتزاماتى وبين الإمكانات التى كانت تحت يدى فضلا عن تصورى لتوقعات الآخرين وبخاصة من أعضاء جماعتى المرجعية. وإننى أذكر أننى كنت ضائعا حقا واحترم أعضائى أسرتى الصغيرة صمتى وعزوفى عن الدنيا.. ووصلت إلى نتيجة حاسمة، وجدتنى فجأة أفكر فى الانتحار وكانت فكرة لم تمكث إلا برهة وجيزة بددها تذكرى لمواعظ أستاذى الشيخ محمود خطاب السبكى حيث كان يندد فى مواعظه بالقتل على وجه العموم (أخذا بالثأر) أو بقاتل نفسه. كان يرى أن هذه الأفعال إن هى إلا جرائم من تعاليم الديانة المسيحية (قتل السيد المسيح عليه السلام مثلا) ومن وجهة نظر تعاليم الديانة الإسلامية، وكان يؤكد رحمة الله جل وعلا على أن تمنى الموت لا يدل على إيمان من يتمناه، ويذكر الأحاديث النبوية التى تفصح عن ذلك، ومنها :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يتمنى أحدكم الموت أما محسنا فلعله يزداد، وأما مسيئا فلعله يستعتب" (متفق عليه)..

وإننى أذكر مجئ إحدى الآنسات إلى "المعهد القومى للبحوث الجنائية" قبل أن يصبح "المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية" وذلك قبل عام "١٩٥٩" وكانت تحمل هذه الآنسة دراسة عن "ظاهرة الانتحار لأميل دوركايم" كتبتها باللغة الفرنسية لترينى كم هى بارعة توطئة لكى

تنضم إلى باحثى المعهد المساعدين فى ذلك الحين. كان قد أرسل هذه الانسة إلى أحد الأصدقاء، ولما أكن ادير المعهد ومن بعده المركز، ولا سلطة ولا سلطان فى يدى فأشرت عليها أن تذهب إلى الاستاذ المدير فلعله يقتنع بشخصيتها ويكون من نصيبها أن تعين باحثة مساعدة، وقد حدث ذلك فعلا ومازالت تعمل بالمركز حتى وقت كتابة هذه السطور.

وقبل أن اختم موضوع الانتحار أود أن أبين للقارئ الكريم ان المصريين القدماء أو بعضهم فى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التى قمت بإجرائها (عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين المعاصرين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣) أنه لم تكن الحياة فى بلد من البلدان، غير مصر، أكثر جاذبية أو أكثر اشتهاء. ومع ذلك فلا يوجد أيضا بلد من البلدان، غير مصر، أميط اللثام عن الموت، فيه بمثل هذا الوضوح، ومن ثم فلا عجب إذا كان المصريون القدماء قد حملوا إلى درجة التعصب، كراهية ومقتا للموت، وخصصوا جزءا غير صغير من أموالهم لتدبير الطرق والوسائل لغلبته، ولعل هذه الخاصية النفسية الجوهرية، عند المصريين القدماء تكشفها الكلمات الرئيسية للاستغاثة المنقوشة على الكثير من شواهد قبور المملكة المتوسطة، وتحض هذه الكلمت عابرى السبيل على ترتيل الدعوات بالنيابة عن المتوفى :

"أنت الذى تعيش وتبقى، وأنت الذى تحب الحياة وتمقت الموت، كل من يمر على هذا القبر، كما تحب الحياة، وتمقت الموت، لهذا السبب فإنك تهب لى بكل ما فى يديك "

وقد بينت الدراسة المشار إليها أنه إذا كان المصريون القدماء منذ آلاف السنين، فى الماضى السحيق، يخافون الموت ويمقتونه ويكرهونه أحيانا، ولا يخافون الموت ولا يمقتونه ولا يكرهونه أحيانا أخرى، فإن المصريين القدماء، مثل المصريين المعاصرين، كانوا فى معظم الأحيان لا يخافون الموتى (انظر كتاب سيد عويس "الخلود فى التراث الثقافى المصرى" القاهرة، دار المعارف ١٩٦٦، صفحات ٩٢ - ٩٣ و٢٨ - ٢٩ و٤٤ - ٤٥)

والملاحظ أن انتحار الإنسان هو أقصى مراحل إيذاء ذاته، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن شرب "القهوة" و"الشاى" و"التدخين" و"تعاطى الخمر" و"تعاطى المخدارت بأنواعها" هى مراحل من مراحل إيذاء الذات، والإدمان عليها يؤكد هذا الإيذاء. والمقصود بمفهوم "الإدمان" هنا فى ضوء تعريف منظمة الصحة العالمية الذى تبنته فى عام "١٩٥٧" أنه :

"حالة التسمم "التخدير" الدورية أو المزمنة الناتجة عن تكرار تعاطى المادة" وتتميز هذه الحالة ببعض الصفات هى :

- رغبة قهرية للاستمرار فى تعاطى المادة والحصول عليها بأية وسيلة.
- الميل إلى زيادة الجرعة.
- ظهور اعتماد نفسى وعادة اعتماد جسمانى للتعاطى.
- تأثير مدمر على الفرد والمجتمع.

وقد تبينت المنظمة المذكورة مفهوما آخر هو التعود ويقصد به :

"الحالة الناتجة عن الاستعمال المتكرر للمادة"

والملاحظ أن سماتها يمكن تمييزها فيما يلى :

- رغبة (ليست قهرية) للاستمرار فى تعاطى المادة لرفع معنويات المتعاطى.
- عدم الميل إلى زيادة الجرعة.

ظهور الاعتماد النفسى إلى حد ما مع عدم ظهور اعتماد جسمانى مطلقا وبذلك لا تظهر أعراض الانقطاع عند عدم الاستمرار فى التعاطى.

ورأى المتخصصون فى مواد العقاقير المخدرة تداخل استعمال هذين التعريفين وأن استعمال تعريف "الإدمان" فى ضوء الصيغة السابقة، يكون فى حقيقة الأمر فى غير موضعه الدقيق حيث إن الإدمان بالصورة الى ذكرت لا ينطبق إلا على عدد محدود جدا من المواد المخدرة مثل "الأفيون والمورفين والهيروين" فى حين توجد مواد مخدرة أخرى لا ينطبق عليها هذا التعريف

"الا أنها أخطر المواد المخدرة التى عرفها القانون مثل مواد "الحشيش والكوكايين والمهلوسات". لذلك فقد رأت لجنة المخدرات بالأمم المتحدة استبعاد هذين التعريفين واستخدام تعريف آخر أكثر شمولا للتطبيق وهو مصطلح "الاعتماد" الذى يقصد به :

"الحالة التى تنشأ من التعاطى المتكرر سواء كان دوريا أو مستمرا"

والنظرية الأكثر شيوعا فى تفسير الاعتماد على "العقاقير المخدرة" تقوم على ملاحظة أن الخصائص الإكلينيكية لأغراض التوقف عن التعاطى تكون فى طبيعتها على عكس الخصائص المهدئة للعقار. (المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية : شعبة المخدرات، دراسة غير منشورة ١٩٨٧).

٦-بعض جرائم القتل :

ويتدرج "متصل السلوك العدوانى الإنسانى" من حالة إيذاء الذات واستخدام العنف فى ذلك للدرجة التى يقتل الجانى نفسه أو يحاول الشروع فى هذا القتل، أو تعاطى أنواع شتى من المكيفات التى تنتهى بفقدان حياته على الرغم من معرفته بذلك، وقد يكون الاعتداء على الاموال بالسرقة أى باختلاس مال منقول للغير أو يكون الاعتداء على الآداب العامة التى تنفر منه قيم المجتمع الحميدة، ويكون الاعتداء على الدولة بالتجسس فى غير مصلحتها.. إلخ. وقد ذكرنا ذلك وغيره من قبل.

ولاجدال فى أن جريمة القتل من أخطر جرائم الاعتداء على الاشخاص، ولقد حرمته جميع الشرائع السماوية والوضعية، واستنكرته جميع المجتمعات فى الأزمان القديمة والحديثة، وقد اهتم الكثير من الباحثين فى مجالات علم الإجرام وعلم النفس الاجتماعى فى البلاد الغربية بدراسة هذه الجريمة محاولين معرفة العوامل التى تؤثر على بعض بنى البشر فتدفعهم إلى ارتكاب هذه الجريمة.

وكان من هؤلاء أستاذى "البرت موريس" الذى آلى على نفسه إجراء بحث عن جريمة القتل، وقد تفضل، وكنت أحد تلاميذه، أن يشركنى فى جمع

مادة بحه، وقد أعد المنهج الذى استخدمه قاصدا أن يكون طريقة لدراسة أنماط الجرائم الأخرى، وكان هذا المنهج يرى أن التعريف القانونى للجريمة، وبخاصة لجريمة القتل، أولى بالاختيار والاعتماد عليه إلا إذا كانت نتائج البحث تعد له بالإضافة إليه أو بغير ذلك، وكان هذا المنهج يهتم اهتماما فى حالات الجرائم (القتل + السرقة + تعاطى المخدرات مثلا) بأسلوب ارتكاب هذه الجريمة , فهو أقصد البروفسور البرت موريس كان يوكد لنا على أن أسلوب ارتكاب الجرائم يعكس المستوى التكنولوجى للمجتمع الذى ارتكب فيه إحدى الجرائم سالفة الذكر. فالقتل مثلا قد يستخدم فى ارتكابه استخدام المسدس او البندقية، وقد يستخدم فى ارتكابه أساليب آخرى كالدبح أو الضرب بآلة حادة أو بغير آلة حادة أو كالخنق أو يستخدم أسلوب الحريق او القذف من مكان عال أو من عربة وهى تسير، والسم والغرق والصدمة الكهربائية أو الإهمال المتعمد.. إلخ. ويتضمن هذا المنهج الظروف التى تيسر للقاتل أن يرتكب جريمة القتل، فضلا عن السمات التى يتحلى بها القاتل وبخاصة سمات النوع (الذكور والأناث)، ومستوى الذكاء وحالة صحته العقلية، وكان دور المجنى عليه أو عليها موضوع الأهتمام، وكان يرى البرت موريس ان للمجنى عليه دورا فى ارتكاب جريمة القتل وبعض الجرائم الأخرى كالجرائم الجنسية مثلا، وصلة الجانى بالمجنى عليه كان يراها البروفسور موريس تساعد على تفسير ارتكاب جرائم القتل، وكذلك المجتمع الذى نشأ بين جنباته والمناخ الثقافى الذى عاش تحت ظله، فضلا عن الظروف الاجتماعية ككل، فقد كان يرى أن القوى الاجتماعية هى التى تساعد على تغيير السلوك الإنسانى وأهتم منهج البحث بالعواقب الاجتماعية لجريمة القتل وبخاصة ما تعلق منها بحوادث المرور وقتل السياسيين.

ومهما يكن من أمر فإن البروفسور موريس كان يؤكد أهمية دراسة جرائم القتل مرارا وتكرارا إذ كان يقول لمساعديه وكنت واحدا منهم إنها من الجرائم اللامعة اجتماعيا.

وإذا كانت جميع جرائم القتل، كما يذكر ذلك أحد البحوث التى أجراها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (انظر : المركز القومى للبحوث الاجتماعيية والجنائية : ملامح جريمة القتل، عام ١٩٧٠) – تتضمن

عنصرا من عناصر العنف وذلك لأن الشخص الذى يقتل إنما يقضى على حياة شخص بطريقة إجرامية. فإن هذا البحث فى ضوء نتائجه يرى أن هذا العنف الذى يصاحب القتل يتدرج من حيث الشدة. فالبعض من القتلة تنتهى جريمته بمجرد القضاء على المجنى عليه، ولكن البعض الآخر قد يستمر فى عدوانه على المجنى عليه حتى بعد موته كما يبدو ذلك واضحا فى حالات التمثيل بالجثة.

وذكر البحث المشار إليه فى هذا الصدد تصنيف القتلة تبعا لما قاموا به من عنف فى أثناء ارتكابهم لجريمتهم، وذكر أن التصنيفات التى اتبعها "جاروفالو" تتعلق بالطريقة التى ارتكبت بها الجريمة. فعندما يستخدم القاتل التعذيب أو يطيل فى عملية القتل بقصد إيلام المجنى عليه، فإنه أى جاروفالو على يقين بأن ذلك يرجع إلى قسوة القاتل الفطرية فليس هناك إنسان سوى يستطيع أن يتحمل أنين الضحية أو منظر تشويه الجثة. فالتعذيب فى حد ذاته دليل كاف على انعدام عاطفة الرحمة حتى ولو لم يكن قصد القاتل واضحا، وذكر هذا البحث أن فى بعض الوسائل المستخدمة فى جريمة القتل نوعا من استخدام العنف أكثر من غيره كما فى حالة استخدام الشنق أو الخنق أو الطعن بأداة حادة كالبلطة مثلا فى مقابل استخدام السم.

- شاب قتل مرتين فى مدينة القاهرة :

وفى ضوء إحدى الدراسات العلمية الاجتماعية التى قمت بها عن شاب مصرى فى الثالثة والعشرين من عمره ارتكب جريمتى قتل : الأولى قتل فيها رجلا بالاشتراك مع آخر والثانية قتل فيها احدى السيدات بالاشتراك مع آخرين، وقد حكم على هذا الشاب بالاعدام فى كل من الجنايتين - تبين أن هذا الشاب قد ولد وكان عمر أبيه ٤٥ عاما، وقد ولد بعد ميلاد ثلاث بنات، ويبدو أنه نشأ مدللا ولايحتمل أبواه (وخصوصا والده) أى شخص يمسه بسوء أو إهانة.

وكان فى الأسره أخوه الأكبر، شاب مجتهد، كان محل اهتمام جميع أعضاء الأسره كان متميزا عن أبناء الأسره وبناتها فى كل شئ. فله مدرس خاص ليتعلم الموسيقى وحجرة خاصة منفصلة عن باقى الحجرات، كذلك له دراجة للذهاب بها إلى المدرسة.. إلخ ومن ثم تحدد للشاب موضوع الدراسة،

تعسفيا، مستوى معين من الاكبر الطموح عليه أن يعمل جاهدا للوصول إليه لتحقيق آمال الأسرة.

ويبدو أن هذا الشاب لم يأبه كثيرا للسعى فى سبيل تحقيق مستوى الطموح الذى حددته له مكانة أخيه الأكبر خصوصا فى خلال الفترة التى كان أبوه فيها يستطيع ان يرعاه بشخصه واكتفى بالدلال الذى سمح أبوه له به والذى بلغ حد التساهل فى بعض الأحيان.

إن أسرة الشاب قد كفلت له كل حاجاته المادية والمعنوية حتى تركها إلى القاهرة ليعيش مع جدته وأخته وأخيه الأكبر وكان أمل الأسرة أن يقتفى اثر أخيه الكبر فى التعليم والنجاح فى يسر وسهولة، وفات السرة أن الشاب كان مدللا كان مستمرا الدلال الذى سمح أبوه له به إلى حد بعيد، إلى حد أنه استطاع أن "يعاند" جميع أعضاء الأسرة ومن بينهم والدته التى كان يحبها وكاد ذات مرة أن ينتحر من أجلها. ونجح الشاب فى استخدام سلاح العناد فى مختلف مراحل حياته.

واصبح الشاب بفضل هذه المعاملة الثنائية يشعر ببعض الكبرياء الكاذب وأنه شخص مهم أو يجب أن يكون شخصا مهما ولو كان ذلك على حساب شعور الآخرين ومصالح الاخرين، سواء كانوا أقرب الناس إليه أو لم يكونوا، فمثلا يلعب "بتصاص" صغير وقرناؤه يلعبون "بتصاصات" أكبر هذا محال فيسرق من "حصالة" اخيه الأصغر ليشترى "تصاتصا" اكبر ولا يحاسب على ذلك.

واستمر الشاب فى هذا السلوك غير السوى، ورفض ن يجارى رغبات الأسرة فيسعى فى سبيل تحقيق المستوى التعسفى للطموح الذى حددته له ظروف أخيه الأكبر فبدلا من أن يكون هذا الأخ مثالا يحتذى صار مثلا يكره. أى إنه بسبب التمييز فى لمعاملة بين الشاب وأخيه الأكبر، ووضع مستوى تعسفى للطموح فى شخص الأخ الأكبر أمام الشاب نبت الشعور بالعداوة عنده ضد الأخ الأكبر.

كره الشاب أخاه ما فى ذلك من شك، خصوصا عندما أصبح الأخ الأكبر رب الأسرة الحقيقى (أى عندما كان الشاب فى الرابعة عشرة من

عمره ويعيش مع أخيه فى القاهرة) وكرهه. لأنه فى مركز أحسن، فهو طالب فى كلية الهندسة، والشاب مازال فى السنة الأولى الثانوية. كرهه لأنه منافسه، كرهه لأنه أبعد من أن يكون مصدرا للتساهل معه وأخيرا كرهه لأن أصبح مصدر هوانه، فالأخ الأكبر فى حدود قيمه الاجتماعية التى كان يرى أن أهدافها حميدة، لم يعامله المعاملة التى يجب أن تكون. كان يضربه ويسبه وكان يكشف نقاط ضعفه فى عنف وفى قسوة فى بعض الأحيان.

لم يستطع الشاب أن يصادق أخاه الأكبر رب الأسرة ومثله الأعلى المفروض عليه، وفشل الأخ الأكبر فى تقبل الشاب وحبه واحترامه والاعتراف به، فذهب الشاب إلى الشارع (إلى الشلة). فلعله يجد فيها اشباعا لبعض حاجاته التقبل والحب والاحترام والاعتراف به.

ومات الأب، وترك الشاب المدرسة، وسعى الأخ الأكبر إلى أن يلحق الشاب بعمل ثم بعمل، ولكن الشاب يترك كل عمل لأسباب غير مقنعة. إنه ينتقم لنفسه من أخيه الأكبر. انتقم منه قبل موت أبيهما، عندما كان فى المدرسة بالهرب من المدرسة، وانتقم منه بعد وفاة أبيهما عندما كان يترك كل عمل يلحقه الأخ الأكبر به بدون سبب وجيه.

ويعلل الشاب ذلك بقوله إن أخاه الأكبر كان يجعله يحس أمام الناس خصوصا أعضاء الأسرة "زى الفار" أو "أننى صغير وماسواش حاجة" أو "أنى صغير خالص ماليش صفة"، وأن أخاه الأكبر كان "بيبص لى من فوق تملى! "

ولم يكن الأخ الأكبر وحده يفعل ذلك. بل كان زوج الأخت الكبرى للشاب يخشى من تأثيره على أولاده، ويمنع أولاده من صداقته.

وفى المدرسة كان المدرسون والناظر وحتى الأخصائى الاجتماعى يعاملون الشاب معاملة غير سليمة. من صورها أنه شخص تافه يضرب "الشلوت ".

وعن العمل أسأل الشاب لماذا تركه ؟ فيجيب عن ذلك أن أحد المسئولين حاول أن يهزأنى أو "علشان أحفظ كرامتى! "

كان معظم البالغين حول الشاب موضوع الدراسة فى المجتمع الذى كان يعيش فيه، مصادر هوانه واحتقاره وتفاهته، ومن ثم مرارته. فهو لم يجد فى الأسرة ما كان يجده عندما كان صغيرا : الشعور بالاهمية. ولم يجد فى المدرسة إلا الاحتقار، ولم يجد فى العمل مايساعده على الا يكون تافها. فذهب إلى الشارع حيث المغامرات، حيث المكانة الاجتماعية تزداد كلما ازدادت هذه المغامرات.

ود الشاب فى الشارع أشخاصا يواجهون إلى حد كبير ظروفا مثل ظروفه : ظروف تشعرهم دائما بأن الحياة فى بعض صورها شئ لا قيمة له، ظروف تذكرهم بأنهم ليسوا أناسا بل مجرد أشياء وأن أعضاء أسرهم ومدرسيهم وأصحاب العمل يعيشون على النفاق وباللنفاق، وان الكثير من آمالهم يبدو سرابا.

إن الشاب وزملاءه الذين اشتركوا معه كانوا يسرقون بالدرجة الأولى بقصد الصرف على المأكل والملبس والظهور بالمظهر الذى حرمتهم الظروف منه. أما ارتكاب جريمة القتل فكان وسيلة وليس هدفا فى ذاته، وهذا يدل على عدم عراقتهم فى ارتكاب جرائم السرقة. فالمجرم الذى يحترف السرقة يهمه أن يسرق فقط، ويحاول ما استطاع أن يجتنب ارتكاب جريمة أخرى بله جريمة قتل أو مشروع فى قتل.

كان الشاب يسرق، وكان يصرف كل ما يسرقه فى إسراف ملحوظ ولعله كان يحاول التعويض عما يحس به من تفاهة أو مرارة.

وربما كان اتهام الشاب بالشذوذ الجنسي صحيحا. مما زاد فى ضوء قيم مجتمعنا فى شعوره بعدم الثقة فى نفسه، وخلق فيه الشعور بالتفاهة والدونية، وربما كان تقبل رفاقه له، على علاته، دافعا على التهور فى المغامرات ومن ثم استهتاره بالقيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة التى حاولت أسرته "المحافظة" أن تنشئه عليها، والتى لم تجد من يسهر فى محيط الأسرة أو المدرسة أو المنظمة الدينية أو النادى الاجتماعى أو غيرها من أجهزة عمليات التنشئة الاجتماعية فى المجتمع، على تثبيتها فى نفسه وغاصة فى مرحلة المراهقة التى اجتازها تحت سلطان أخيه الأكبر الذى كان فى الحقيقة مصدر معظم عوامل الإحباط التى واجهها الشاب فى هذه

المرحلة، ومن هذه العوامل التميز في المعاملة، وفرض مستوى تعسفي للطموح، والفشل الواضح في تقبل هذا الشاب واحترامه والاعتراف به، ومن ثم كانت كراهيته لأخيه الأكبر، ومايكنه له من الألوان العديدة من الشعور بالعداوة، التي انتقلت بدورها عن طريق عملية الإزاحة أو عملية التحويل إلى العالم الخارجي. اى إلى المتمع دون أن يهيىء المجتمع لهذه الكراهية والألوان العديدة من الشعور بالعداوة عن طريق منظماته الاجتماعية و أجهزة عمليات التنشئة الاجتماعية فيه، تطبيق الأساليب السليمة للتعبير عنها، أو يهيئ المجتمع المنافذ غير الضارة الكافية فيه التي ربما كانت يسرت للشاب أن ينفس عن طريقها، عن هذه اكراهية أو غيرها من الألوان العديدة من الشعور بالعداوة.

ومن ثم نجد تفسير قيادة الشاب لرفاقه وتسلطه عليهم. فقد كان أكثرهم جرأة واستهتارا ولامبالاة لأنه اختير له أن يكون اكثرهم تفاهة وأكثرهم حاجة إلى الشعور بالعداوة، وأن تكون للحياة في بعض صورها، في نظره أقل قيمة (انظر سيد عويس دراسة غير منشورة ألقيت في احتفال لجنة العدالة والسلام مساء يوم الخميس ٢٦ من شهر يناير ١٩٧٨ بقاعة النيل)

- جريمة قتل في المدينة

في صباح يوم ٢٧ من شهر أغسطس عام ١٩٦٠ حمل المدعو (ا) بندقيته المملوءة بالرصاص القاتل، وانتظر السيدة (ر) على محطة "أتوبيس" تقع في أحد شوراع القاهرة المزدحمة، وهي المحطة التي اعتادت السيدة (ر) الركوب منها، وهي في طريقها إلى العمل.

لم يعرف أحد من الواقفين على محطة الأتوبيس أى شئ عن المدعو (أ) أو السيدة (ر) أى عن العلاقات الاجتماعية التي تربطهما أو عما يبيته كل للآخر، لم يعرف أحد عن شخصية كل منهما شيئا، ولم يعرف أحد عما يعتمل في نفس كل منهما شيئا.

وقف المدعو (أ) على محطـة الأتوبيس ينتظـر وينتظـر. وفـى نفسـه مشاعر جمة، متناقضة متصارعة، لكن لم يلحظ أحد من الناس شيئا، فكل فى طريقه إلى عمله أو فى طريقه لقضـاء حاجاتـه. مثلهم فـى ذلـك مثـل معظـم سكان الحضر. علاقاتهم فى أغلب الأحيان غير شخصية وغير قويـة، وغـير متجانسة.

ولـم يطـل انتظـار (أ) علـى المحطـة. فقد جـاءت السـيدة (ر) لتــأخذ أتوبيسها كالمعتاد فى طريقها إلـى العمـل، فهـى تعمـل فـى إحـدى المصـالح، موظفة متواضعة تعمل فى إدارة الحسابات.

وإذا كان أحد من الناس، فى الشارع الواسع المزدحم الذى يقـع فـى وسط المدينة الكبيرة قد لاحظ هذين الشخصين قبل ان تقع الواقعة، لـرأى أن (أ) يتحدث مع (ر) وكأنه يعرض أمورا عليها. أمور هامة عنده يود لـو أنهـا تتحقق فهى تمس كيان نفسه مسـا فيـه عميـق، ولوجـد كذلـك علـى وجـه (ر) سمات الأمتعاض، وربما سمات التشفى والسخرية، ولو قـدر لأحـد ان يسـمع مادار بينهما من حديث، لعرف انهمـا كانـا علـى صلـة معينـة فـى وقـت مـن الأوقات، وأنه قد تحطمت هذه الصلة فى الوقت الحاضر، وأنـه يرغـب لهـذه الصلة ان تعود كما كانت حتى تعـود إليـه نفسـه المطمئنـة، وحتـى يـبرأ مـن بعـض الجـروح التـى المت بـه، وحطمـت كيانـه أو كـادت، ولعـرف أن (ر) ترفض رفضا باتا هذه الرغبة فهى لا تريد إعادة الأمور بينها وبيـن (أ) إلـى مجاريها، بـل تطلـب منـه صراحـة أن يبتعد عـن طريقهـا وأن يتركهـا تـأخذ سبيلها فى الحياة دونه.

ولكن لم ير الناس الواقفون على محطة الأتوبيس شيئا ولـم يلاحظـوا شيئا، وكذلك لم يسمعوا شيئا مما دار من حديـث بيـن كـل مـن (أ) و(ر) ولـم يدر الناس الآخرون لذيـن يسـيرون فـى الشـارع المزدحم أو يلاحظـوا شيئا كذلك، ولم يسمعوا شيئا مما دار من حديث بين كل من (أ) و(ر).

لم ير أحد من هؤلاء جميعا البندقية المرخصـة المملوءة بالرصـاص القاتل التى كان يحملها (أ) ولم يروا يده عندما امتدت إلـى هـذه البندقيـة، ولا أصابعه عندما ضغطت على الزناد ست مرات، ولم يروا كذلك الرصاصـات الست التى أفرغت فى قلب (ر). ولكـن فوجئـوا بكـل ذلـك عندمـا رأوا شـابة

يبدو عليها آثار من ملامح الوسامة الصارخة التي كانت، ولا يعدو عمرها الثانية والعشرين سنة، واقعة على الأرض تتخبط في دمائها، ثم عندما رأوها جثة هامدة لا حراك فيها ويقف على راسها رجل لا يزيد عمره على أثنتين وثلاثين سنة، حاملا في يديه بندقية مازال دخان البارود يخرج من فوهتها، وكان يبكي بكاء مرا يمزق نياط القلوب. وتطوع حشد منهم للتحفظ عليه، وسارع آخرون يطلبون شرطة النجدة، وجاء رجال شرطة النجدة في التو والساعة وقبضوا على (أ) بتهمة قتل (ر). وقف (أ) في قفص الاتهام أمام محكمة الجنايات بالقاهرة وككل قاتل على صلة وثيقة بالمجني عليه أو المجني عليها، فقد اعترف اعترافا تفصيليا. فهو قد ولد في ميت غمر منذ أثنتين وثلاثين سنة، ونشأ فيها حتى أصبح يافعا. ثم انتقل مع أسرته إلى القاهرة المدينة الكبيرة وواجه وهو صبي في الثانية عشرة من عمره أساليب حياة اجتماعية جديدة تختلف إلى حد كبير عن تلك التي كان يواجهها في ميت غمر ولكنه لم يصطدم كثيرا، فقد تمكن من التكيف إزاء هذه الظروف الجديدة، واستطاع بعد أن ترك المدرسة وتأكد من معرفته مبادئ القرءاة والكتابة أن يجد عملا في صناعة الأحذية وحذق هذه الصناعة واتقنها، وكان طموحا. فلم يرض لنفسه أن يكون صانع أحذية فقط. بل سرعان ما تبلور هدفه في أن يكون صاحب محل يصنع فيه الأحذية ويبيعها، وعمل في سبيل تحقيق هذا الهدف، ونجح، وأصبح يملك محلا في أحد شوارع المدينة المزدحمة، في أحد الحياء الذي تسكنه أغلبية كبيرة من أعضاء الطبقة المتوسطة من التجار والموظفين، كما يسكنه الكثير من أعضاء الطبقة العاملة.

تم لـ (أ) كل ذلك.. تحققت آماله ووصل إلى ما يصبو إليه من مستوى معين من الاستقرار الاقتصادي. وأصبح معلما يملك ويأمر وينظم أموره بنفسه ويدبر لغيره، بعد أن كان "اسطى" يعمل بالقطع يؤمر وينظم ويدبر له. تم له كل ذلك عندما أكمل الخامسة والعشرين من عمره.

وكان اهتمام (أ) بتحقيق استقراره المعاشي شغله الشاغل. فلم يفكر في الزواج قبل ذلك وإن كان هذا لم يمنعه من أن تكون له حياة جنسية، أو على الأقل علاقات معينة مع أعضاء الجنس الآخر. فقد كان شابا ناجحا،

وكان حديثه طليا، يتحدث فى لباقة مع عملائه الذكور والإناث. وإن كانت الإناث أكثر أصغاء إلى هذا الحديث، كما كن أكثر اغراء به.

فضلا عن ذلك فقد كان (أ) موضع غبطة مرؤوسية وجيرانه، وحسد زملائه فى بعض الأحيان.

وبعد أن استقر أمر (أ) فى محله الذى يملكه، واستتب له الأمر، وأصبح مقصد العملاء والعميلات يشترون منه أحذيتهم أو يصنعونها أو يصلحونها عنده، رأى (أ) أن يستقر استقرارا من نوع آخر، استقرار ينظم حياته الشخصية فتكون له اسرة يسكن إليها، ويحقق عن طريق بنائها بعض رغباته وآماله كإنسان، وكعضو يعيش فى المجتمع، وكتاجر يهمه أن تككون سمعته فوق مستوى الشبهات، وتحقق له ذلك وهو فى السابعة والعشرين من عمره عندما وجد بين الإناث من وافقت على الزواج منه، كما وافقت ايضا على مد يد المساعدة المادية له حتى يستطيع أن يحقق طموحه فى دعم تجارته وازدياد معاملاته المالية.

ولكن إذا كان (أ) قد نجح فى اتقان مهنته، ودعم سمعته والوصول فى السلم الاجتماعى إلى مكانته، وتحقيق مستوى من الاستقرار الاقتصادى، فإنه لم ينجح فى الاستقرار فى أسرته التى سرعان ما اهتزت دعائمها وتصدع بنيانها، وحل الخلاف بينه وبين زوجته محل الوئام، وانتهى الأمر بالطلاق بعد استمر الزواج فترة غير طويلة، استمرت بعدها الشحناء بينهما، ورفع كل منهما قضايا ضد الاخر.

وعاش (أ) بعد الطلاق وهو يفكر فى الزواج مرة أخرى. وهو لن يعدم ان يجد اخرى من بين من ترددن على محله من عميلات. خصوصا اللاتى يعجبهن شبابه، ونجاحه، وحديثه الطلى، ولباقته الجذابة، ومن اللاتى يحسن الإصغاء إلى هذا الحديث وتبهرهن هذه اللباقة، وكانت (ر) من أكثر العميلات إعجابا بـ (أ) لكل هذه السمات والخلال، وربما لبعض الأمور الأخرى، وكان (أ) يبادلها إعجابا باعجاب ويراها كل يوم عندما تتردد على المحل أو فى غدوها ورواحها.

كانت (ر) طالبة فى مدوسة التجارة المتوسطة وتقع هذه المدرسة فى أحد الشوارع القريبة من المحل الذى يملكه تذهب الى المدرسة فى الصباح، تعود منها فى طريقها إلى بيتها بعد انتهاء الدراسة، وفى كل مرة تمر أمام محل الأحذية الذى كثير ما يجتذب أنظارها. فتقف أمامه لحظات أو دقائق أو كثر من ذلك أحيانا. تشاهد ما فى واجهته من نماذج الأحذية وما طرأ على هذه النماذج وما جد منها، تعجب ببعضها وقد لا يعجبها البعض، تتلهف على الحصول على نموذج معين، وقد تجبن أن تناقش صاحب المحل فى ثمنه، وتتشجع فى الكثير من الأحيان، وتشترى أحيانا ولا تشترى أحيانا أخرى، وعندما تشترى تساوم وتتعامل كأنثى، تحاول إغراء من يحادثها، وكثيرا ما يكون هو (أ) الذى كان يسمع لها، ويحدثها حديثه الطلى، ويحاول أن يبيعها ما تطلبه، وكان ييسر عليها عملية الشراء ولو على حساب ما يجب أن يتقاضى من ثمن. فقد كانت (ر) شابة لم تتعد العشرين من عمرها، فيها وسامة صارخة، وتملأ جسدها الحيوية، وفيها جاذبية الأنثى اللعوب، وقد أخذت هذه السمات والخلال بلب (أ) فجاذبها الحديث الشخصى، وتجرأ فى حديثه هذا، وشجعته (ر) على ذلك. فتواعدا على اللقاء خارج العمل، وخارج المدرسة بعيدا عن الناس، وكثر اللقاء، وبات كل منهما يحلم حلمه الجميل على الرغم من فارق السن بينهما، إذ بلغ هذا الفارق نحو عشر سنوات، وإن كان الفرق بين مكانتهما الاجتماعية يكاد لايكون. الأمر الذى شجع (أ) على التقدم لخطبتها من أسرتها التى كانت متصدعة بسبب وفاة الأب، وسرعان ما وافقت الأم على هذه الخطبة، فإن (أ) رجل يعمل ويكسب ويستطيع أن يمدها ببعض المساعدة المادية وببعض العوون المعنوى.

نشأت (ر) فى كنف أمها معظم سنى حياتها. فمنذ وفاة أبيها، وهى فتاة فى العاشرة من عمرها، قد كفلتها هذه الأم. وكان دخل الأسرة يكاد ان يكفى حاجاتها المتعددة، وكانت الأم عندها بعض الطموح، فأبت إلا أن تعلم ابنتها حتى تكمل تعليمها المتوسط على الأقل، ويبدو أن الأم لم تكن العائل الذى يستطيع أن يحزم أمره عندما تتطلب الأمور ذلك، وربما كان يتم (ر) المبكر عاملا من عوامل عدم استطاعة الأم أن تكون حازمة حريصة على بعض القيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة التى تسود عادة الطبقة التى تنتمى إليها هذه الأسرة.

ونشأت (ر) فى هذا المناخ الأسرى مدللة أو شبه مدللة، وقد ساعد على وجود هذا الدلال أنها شبت قوية الجسم صحيحته، ترى فيه عناصر الأنوثة الجذابة تشع وتلألأ كلما زاد عمرها، عرفت (ر) كل هذه الأمور عن نفسها، فتركت لنفسها العنان، ولم تجد من أمها الرقيب الذى يهتم بسلوكها، أو الشخص الذى يفسر لها اسرار الحياة ويرى ضرورة الحرص على القيم ذات الأهداف الحميدة التى يجب أن تسود والحذر من الزلل، فكانت لها حياة جنسية مع أعضاء الجنس الآخر، علاقات تشبع بها غرورها، وقد تتباهى ببعض تفاصيلها بين لداتها، على الرغم من انها لم تتعد العشرين من عمرها وأنها مازالت تطلب العلم فى مدرسة التجارة المتوسطة.

اكملت (ر) دراستها وعملت في احدى المصالح موظفة متواضعة، وأحست بكيانها الاجتماعى الجديد، فملأتها الثقة بنفسها أو كادت، وازدادت علاقاتها بـ (أ) وأصبح يزورها فى منزلها تحت أعين أمها والجيران، وكانت زيارته تجد ترحيبا من الأم دائما، فإن كل زيارة تأتى فى طياتها بما يشبع رغبتها من مساعدة مادية فى شكل هدايا عينية أو نقدية.

وعندما بلغت (ر) من العمر اثنتين وعشرين سنة، أمكنها أن توفر بعض المال الضرورى لإعداد مطالب الزفاف، وعندما ازداد إلحاح (أ) على ضرورة عقد القران وافقت فى الحال وتم عقد القران وتم حفل الزفاف، وكان عمر (أ) اثنتين وثلاثين سنة وعمر (ر) اثنتين وعشرين سنة، أى أن فارق العمر بينهما يبلغ نحو العشر سنوات.

لم يكن (أ) فى خلال فترة الخطوبة يعرف السر الذى ربط قلبه وبين قلب (ر). ولم يحاول أن يعرف شيئا، ولكنه كان يعرف أمرا واحدا. كان يحبها حبا ملك عليه نفسه، وقد بدا له في غمار هذا الحب أن (ر) تبادله هذا الحب الكبير، وأنه كذلك موضع عطف أمها وبركاتها، ومهما يكن من الأمر فهو من وجهة نظر أخرى قد وجد ضالته فى هذه الشابة "المتعلمة" الجميلة الجذابة، التى تعمل "موظفة".

ولم يكن (أ) يعرف كذلك سر طول الخطبة التى بلغ عمرها سنتين إلا أن أسرة (ر) تستعد لاكمالها عندما تتاح الفرصة لذلك، أى عندما يتم الحصول على وظيفة لها، وعندما يتم توفير بعض المال الضرورى، لم

يعرف (أ) شيئا غير كل ذلك. لم يعرف ما يساور (ر) من هواجس ولا من مشاعر يشوبها بعض الخوف وربما بعض هذه الهواجس والمشاعر.

ولكن (أ) قد بدا له أنه عرف السر الثانى فى ليلة الزفاف ومع ذلك فإنه لا يعرف السر الأول حتى الآن. وكان إذا الح عليه التساؤل عن هذا السر كان يحاول الإجابة عنه فى شئ من الغموض. كأن نفسه قائلا إنه "الحب" ولا شئ غير الحب.

ولئن كان (أ) لم ينجح فى التعرف على عوامل السر الأول حتى الآن، فهو أحس نتائجها وآثارها فى أعماق نفسه، وكان هذه النتائج وآثارها فى أعماق نفسه هى العامل المهم فى محاولة التغاضى عن نتائج السر الثانى وآثارها فى أعماق نفسه.

كان حفل زفاف (أ) متواضعا جمع الأصحاب والخلان فى مودة وحبور. كان حفلا تعطر جوه الأمانى والتفاؤل وتحقيق الرغبات الطيبة، وعندما آن انصراف الأصحاب والخلان ومن فى حكمهم، وتأهب (أ) للدخول بعروسه (ر) كان كل شئ، يجرى مجراه العادى، لم يكن يدور بخلد (أ) ما حدث بعد قليل، وكان ما يدور بخلده يدعو إلى الطمأنينة، بعكس ما كان يدور بخلد (ر) وانتهى الأمر بأن ما كان مستورا قد انكشف، وكان المستور مفاجاة غير متوقعة صدمت كرامة (أ) فى الصميم.

وكان المشهد رهيبا. أنثى مازالت فى ثوب زفافها تتوسل وتبكى وتلتمس الصفح والغفران فهى تنتمى إلى مجتمع يحدد لها ولبنات جنسها قيما معينة لا يجوز لهن أن يحدن عنها ولكنها فى ضوء تاريخ حياتها وتجاربها الاجتماعية لم تستطيع إلا أن تحيد عن هذه القيم، وتضطر فى ضوء كل هذا ان تخفى كل شئ ولا تبوح به، وهاهى الآن تواجه موقفا يكشف وهى كارهة الغطاء عن كل شئ، وطالما حاولت تأجيل هذا الموقف، وقد نجحت لفترة لا تعدو السنتين، ولكن لابد مما منه بد.

أما (أ) فقد كان الرجل الذى يواجه هذه الأنثى التى مازالت فى ثوب زفافها تتوسل وتبكى وتلتمس الصفح والغفران، وهو ينتمى إلى مجتمع يعطيه الكثير ويغفر له الكثير. مجتمع يعطي لأبناء نوعه حقوقا لا عديد لها

خصوصا تلك الحقوق التى تتعلق بالمرأة وإذا أخطأ السبيل أو تزيد بما لا ينبغى أن يتزيده على هذه الحقوق. فإنه لا يحاسب الحساب العسير، وكثيرا ما يضطر لأن يخفى شيئا من هذا القبيل، وقد نجده على العكس قد يظهر أحيانا الكثير المغالى فيه من هذا القبيل، مباهاة وتفاخرا، ومع ذلك فإن قيم المجتمع الذى يعيش فيه تقف به وبأمثاله من الرجال من أخطاء النساء عامة وزللهن خاصة موقف المحاسب القاسى، وفى بعض الأحيان وخصوصا إذا ما تحددت العلاقة بين الرجل والأنثى وأصبحت علاقة زوج وزوجة، يقف موقف المجروح فى كرامته الذى يعطى لنفسه كل الحقوق، فيؤدى أدوار الاتهام والتحقيق والحكم والقصاص جميعا.

ولكن (أ) إزاء الموقف الرهيب لم يسلك كل ما يمكن أن يتوقع من ألوان السلوك كان يحب (ر) حبا ملك عليه نفسه، وقد بدا له غمار هذا الحب أنها تبادله هذا الحب الكبير، وأن ما حدث قبل أن يتفتح هذا الحب فى قلبيهما وأن ما حدث كان نزوة عابرة لن تعكر صفو الحياة القادمة.

وأنه وقبل كل شئ يجب أن يكون رجلا شهما يغفر عند المقدرة، ويعفو عما سلف، فالله جل وعلا ستار، وهو غفور رحيم، وانتهى الأمر به أن اعتبر ما حدث كأنه لم يحدث، كتم عن الناس كل شئ، واعتبر ما حدث جريمة أخلاقية غير منظورة، أو ربما جريمة جنائية غير منظورة، وما أكثر الجرائم أخلاقية كانت أو جنائية، غير منظورة فى المجتمع.

عاش (أ) و(ر) كزوجين سعيدين، أو كزوجين يبدوان أنهما سعيدان، التأمت جروح كرامة (أ) مع الأيام، فهو من وجهة نظره يعيش فى ظلال الحب الوارفة فلا يرى إلا الجمال والخير والتفاؤل. أما (ر) فبعد أن استردت ثقتها بنفسها كاملة أخذت نفسها بالآمال والأمنيات، إنها شابة أهم ما توصف به أنها موضع اشتهاء الرجال، كل الرجال. الرجال الذين لهم مكانة زوجها الاجتماعية، فضلا عن الرجال ممن هم أعلى مكانة اجتماعية، وكانت (ر) تعتبر الزواج من (أ) صفقة ليست بالضرورة، من وجهة نظرها ، صفقة خاسرة، بل على العكس لقد كانت صفقة ضرورية، ساعدتها على بدء مرحلة جديدة من مراحل حياتها، ويسرت لها أن تؤمل كثيرا فى المستقبل الباسم

الذى سيملأ حياتها وسيمدها بما تشتهيه من متع. فأخذت تعلل نفسها بالآمال والأمنيات، كما أخذت تتحين الفرص وتتربص بها.

وجاءتها الفرصة السانحة. جاءت هذه الفرصة عندما نجحت زوجة (أ) السابقة فى الحصول على أحكام عديدة ضد زوجها السابق. فقد حكم لها ضده بمؤخر الصداق وبمبلغ كبير من المال نفقة شرعية تستحقها، فضلا عن بعض الديون التى كان زوجها السابق يدين بها لها.

والعجيب أن (ر) لم تكن تعلم عن هذه الأحكام شيئا. فقد أخفاها عنها زوجها (أ) معللا نفسه بأنه سيقوم بالسداد إن عاجلا وإن آجلا، ولكنه لم يستطع السداد فى الوقت المناسب فالمبلغ المطلوب، إزاء ظروفه الحالية، لا طاقة له بها، وفضل أن يدخل السجن ليقضى فيه شهرا وفاء للنفقة التى تستحقها مطلقته، واضطر (أ) ان يخترع قصة غير صحيحة للحصول على موافقة زوجته (ر) على غيابه لبضعة أسابيع. فأخبرها أن دواعى العمل تضطره إلى السفر بعيدا عن القاهرة، المدينة الكبيرة، لأنه على وش عقد صفقة جلود قد تدر عليه الربح الوفير.

وخيل لـ (أ) انه باختراعه هذا القصة الزائفة إنما يبغى إراحة زوجته من معرفة الحقيقة وتفاصيلها المؤلمة، كما يبغى الحرص على كرامتها وكرامته، فضلا عن أن ييسر امر غيابه شبه الطويل على نفسها، ولكن (ر) لم تناقشه طويلا أو قصيرا فى هذا الموضوع، ولم تبد أية معارضة موضوعية أو غير موضوعية، بل وافقت للتو والساعة، وبدأت تداعبها الآمال وتعلل نفسها بالأمنيات.

دخل (أ) السجن وفاء للنفقة التى تستحقها مطلقته، ولم يبال بالصعوبات التى ستواجهه فى المجتمع الجديد، مجتمع السجن، وأرجو ان يلاحظ القارئ أن السجن فى ضوء تعريف المجتمع لا يمكن أن يكون مجتمعا بل هو مؤسسة عقابية، ومهما يكن من الأمر فإن (أ) لم يبال بشئ فهو يرى أنه لم يرتكب جرما ما. لم يسرق مثلا أو يزور لم يفعل شيئا ما يشينه كرجل، ولكن المسألة هى عسر وقتى، ومن كان ذا عسرة فنظرة إلى ميسرة، وهو يعيش فى حب كبير، ويضحى فى سبيل هذا الحب الكبير، وكل ما يرجوه أن يحافظ على هذا الحب الكبير.

ولكن (ر) حاولت أن تصدق قصة زوجها، ولكنها فى الوقت ذاته أبت إلا أن ترفضها وقد ساعدها على هذا القرار ما كانت تعلل نفسها بالآمال والأمنيات، فأخذت تتحرى صدق هذه القصة ووصلت إلى الحقيقة، وهى أنها قصة مخترعة لاصدق فيها، وعرفت أن زوجها (أ) فى السجن، يقضى مدة شهر وفاء للنفقة التى تستحقها مطلقته.

وما أن عرفت (ر) هذه الحقيقة حتى أطمأن قلبها، واهتزت نفسها فرحا وحبورا فإن الأغلال التى تقيدها آن لها أن تتحطم، وأن الدنيا الآن تتسع أمامها ومن حولها ومن فوقها اتساعا يليق بشبابها الناضر يروح فى أجوائها ويجئ، يرشف من كل شئ، يروى ظمأه من كل نبع، يشبع نهمه دون مبالاة، فهى امرأة د نالت كل شئ، الجمال وبعض الاستقرار الاقتصادى، ولكن جمالها سلاح بتار تستطيع عن طريقه ان تتسلق السلم الاجتماعى حتى تنال استقرارا اقتصاديا ذا مستوى رافع، وقد يستمر ارتفاعه يعلو، فتنال ما تصبو إليه من آمال ومن أمانى ومن حياة مليئة بالمتع. حياة لا تغلو عليها فهى حياة ليس من العسير عليها أن تدفع ثمنها من جمالها وشبابها وأنوثتها.

وانتهى الأمر بـ (ر) إلى قرار لابد أن تزور (أ) فى السجن، وتفاجئه بهذه الزيارة حتى تحطم كبرياءه بل كيانه معرفتها بالحقيقة، ومعرفتها بمصيره، فهى لم تفكر قط بأن تكون زيارة مشتاقة إلى مشتاق ! أوزيارة ونام وتشجيع، بل زيارة سوء وقطيعة وتحطيم. يجب أن ينحطم زوجها (أ) ماديا ومعنويا. إن فى تحطيمه تحطيما لكل القيود، ولكل الأغلال التى تعيش فيها حياتها الحاضرة.

لم تتذكر (ر) موقفها الرهيب فى ليلة زفافها، وكيف كانت وهى فى ثوب الزفاف تتوسل وتبكى وتلتمس الصفح والغفران لم تتذكر أيضا موقف (أ) إزاء كل ذلك موقف الرجل الذى كان يحبها حبا ملك عليه نفسه، فكان لا يملك إلا أن يحب وأن يصفح وأن يلتمس العذر، وربما كانت (ر) قد ذكرت كل ذلك، وأحست بمرارة الذكرى، وقد آن ان تجعل زوجها وهو فى السجن، أن يستبدل بدوره دورها وهى فى ليلة الزفاف، ولم تكتف بذلك. بل أبت على نفسها أن تستبدل بدورها دوره. فالحياة والدنيا وكل المتع قد اصبحت ترنو

إليها والأمانى أمانيها، والأمنيات أمنياتها قد اصبح تحقيقها قاب قوسين أو أدنى منها.

لم يصدق (أ) عينيه عندما رأى زوجته (ر) وهى تزوره فى السجن، ولم يصدق ايضا أذنيه عندما سمعها تطلب الطلاق منه، وبدا له أن الأوضاع قد انقلبت رأسا على عقب، وأن القيم ذات الأهداف الحميدة قد توارت أو ذهبت وكأنها لم توجد قط، وعندما انصرفت (ر) انصرفت قبل انتهاء موعد الزيارة المحدد، وتركت وراءها (أ) وقد حطت على رأسه بلايا الدنيا وأصبحت الحياة لا معنى لها، حياتها وحياته جميعا، وبقى فى ذهول بقى طويلا جدا، وبقيت آثاره فى نفسه طويلا جدا كذلك.

لم يسمع (أ) لطلب (ر) بل عارضه بقوة، ولكنها أصرت على الطلب فملأت عينيه بدموع الاسى، وأختنق الكلام فى حنجرته، وماكان يستطيع أن يفعل إلا أن تتوسل ملامح وجهه إلى (ر) ولكنها كانت قد حزمت أمرها، وأصرت عليه. بدت له قاسية غير وفية وكأنها قالت الكلمة الأخيرة، وقبل أن يستجمع قواه ويهم بالكلام أو يتم ما بدأ أن يقوله تركته وذهبت لا تلوى على شئ.

ولكن (أ) كان يحب (ر) حبا كبيرا فحاول أن يلتمس لها الأعذار، وعلل نفسه بعد الخروج من السجن، ببعض الامال منها أن (ر) سوف تثوب إلى رشدها، أو يجب أن تثوب إلى رشدها، فهى كل شئ عنده فى هذه الدنيا، وهو لم يتوان عن فعل كل ما يحفظ عليها كرامتها، وكل ما يسعدها فى حدود طاقته كرجل وكعضو فى المجتمع.

ولكن يبدو أن (أ) كان يعيش فى سراب، فعندما خرج من السجن، وجد زوجته شخصا آخر لم يتصور وجوده قط. وجدها امرأة غير تلك التى عرفها من قبل. امرأة تصادق الرجال الأغراب، وتعيش على هواها ومن أجل هواها. وأصبحت سيرتها مضغة فى الأفواه. فلم يجد بدا من طلاقها، ولم يطل أمر الطلاق، فقد اعادها إلى عصمته مرة أخرى، بعد أن تدخل المعارف فى الأمر. وقد رضى حكم المعارف لنه حكم يتف مع حكم قلبه ومشاعره وعادت (ر) إلى سيرتها مرة أخرى، وأصبح (أ) يعب العذاب عبا ويشرب الهوان والمذلة شربا، ملأ قلبه اليأس، ولم تهن عليه كرامته، وعز

عليه أن يتنكر لقيمه ذات الأهداف الحميدة كرجل يعيش فى مجتمع معين، فانتهى أمره إلى طلاقها للمرة الثانية.

وكان طلاق (ر) هو ما تصبو إليه نفسها، فهو إطلاق لسراحها من القيود والأغلال وفرصة لها للانطلاق الذى ييسر لها أسلوبا معينا من الحياة، تبغيه وتطلبه وترجوه من كل قلبها، ولو كان على حساب القيم الاجتماعية ذات الهداف الحميدة أو على حساب قلب (أ) الكبير، وحبه لها، وتفانيه فى هذا الحب.

ولم يأت الطلاق الثانى بالراحة التى يرجوها (أ) لنفسه، فهو مازال يحب (ر) ومازال ينبض قلبه بحبها، حاول أن ينسى، فلم يستطع النسيان، واحتسى الخمر - وهام على وجهه، ولم يأت ذلك بفائدة، وانتهى الأمر به إلى أن يهمل أعماله، وعاش فى أفكار لونها ظلام، وحاول محاولة أخيرة، طلب من (ر) العودة، ولكنها رفضت فى أصرار، وبان على وجهها ومن حديثها ألوان من التشفى والسخرية والتهكم. وأخبرته فى سهولة ويسر، أنها ستتزوج من آخر.

وكم انتظرها (أ) فى غدوها وفى رواحها، وكم الح عليها فى العودة، وكم توسل إليها مرة، وكم هددها مرات، ولكن (ر) كانت ترفض وتمانع وتتشفى وتسخر وتتهكم.

وعندما تأكد لـ (أ) أن (ر) ستتزوج فعلا من غيره، هانت عليه الحياة واصبحت الدنيا لا تساوى فى نظره شيئا مذكورا، ولكنه لم يفكر فى الانتحار، أو فى أسلوب آخر كمهرب لما هو فيه، بل فكر فى حياته كلها، كيف نشأ، وكيف نما، وكيف تدرج اجتماعيا، وكيف وصل إلى ما وصل إليه. وحاول أن يتلمس التعرف على عوامل ما وصل إليه من حال لا ترضى رجلا مثله، اثبت رجولته يوما ما، وأثبت شهامته يوما ما، رجل كل ما يعيبه أن يحب، وانه يريد من صميم فؤاده أن يعيش لهذا الحب، بكل كيانه، وان يضحى فى سبيله بكل غال، ولكن الظروف تأبى ذلك، الضروف التى جعلت من يحب تقف، فى ضوء عناصر المناخ الثقافى التى نشأت عليها منذ أن مات أبوها، فى سبيل تحقيق ذلك. على الرغم، كما كان يرى، من تضحياته وبذله ورجولته وشهامته وتوسله.

وانتهى (أ) إلى وجوب إزالة هذا العائق. العائق الوحيد الذى يقف فى سبيل تحقيق ما كان يؤمل فيه، ليذهب هو إلى الجحيم بعد ذلك، فقد كانت الحياة، وأصبحت الدنيا فى تصوره لا تساوى شيئا.

وفى صباح يوم ٢٧ من شهر أغسطس عام ١٩٦٠ حمل (أ) بندقيته المرخصة المملوءة بالرصاص القاتل، وانتظر (ر) على محطة الأوتوبيس تقع فى أحد شوارع القاهرة المزدحمة وهى المحطة التى اعتادت (ر) الركوب منها وهى فى طريقها إلى العمل.

وعلى الرغم من وجود الناس من حوله فلم ير أحدا. إنه يعيش افكاره المظلمة فى كل شئ من التردد، ويداعبه شئ من الأمل. فهو أولا وقبل كل شئ، لم يأت للانتقام. كان يرى ذلك، ولكنه كان يرى أيضا أن الظروف التى يواجهها فى حياته الخيرة ظروفها لم يصنعها ولكنه يرجو أن يغيرها. فإن استطاع ذلك وحده فبها. وإلا فليكن ما يكون.

ولم يستطع (أ) أن يغير الظروف التى لم يصنعها، فملأه اليأس من كل إنسان، ومن كل شئ، فامتدت يده إلى البندقية المملوءة بالرصاص القاتل، وضغطت أصابعه على الزناد ٦ مرات، وفوجىء الناس الذين كانو حوله بكل ذلك، ورأوا شابة، تبدو عليها آثار من ملامح الوسامة التى كانت، ولا يعدو عمرها الثانية والعشرين سنة، واقعة على الأرض تتخبط فى دمائها، وأصبحت فى لحظة، جثة هامدة لاحراك فيها، ويقف على رأسها رجل، لا يزيد عمره على اثنتين وثلاثين سنة، حاملا فى يديه بندقية مازال دخان البارود القاتل يخرج من فوهتها، وكان يبكى بكاء مرا يمزق نياط القلوب.

واستمعت هيئة محكمة الجنايات بالقاهرة [*] لاعتراف (أ) التفصيلى، وهو تارة يبكى وآخرى وكأنه يهذى، وقبل أن ينتهى من اعترافه طالب فى ختامه الحكم عليه بالإعدام. فلم يبق له شئ فى الحياة يحرص عليه. لم تبق له نفسه كإنسان وهى عزيزة دائما، ولم يبق له امل فى حياته المستقبلة، فلا أمل بغير حب وقد فقد هذا الحب.

ولم تلب المحكمة طلب (أ) وحكمت عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.

---

[*] (انظر : سيد عويس، المجلة الجنائية القومية، مج٥، عدد٣، تاريخ نوفمبر ١٩٦٢. صفحات ٤٦٣-٤٧١)

- السفاح محمود أمين سليمان :

فى شهر سبتمبر عام "١٩٦٠"، أدطيت نسخة من تقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عن حالة "الشقى محمود أمين سليمان"، وقد وصف التقرير هذه الحالة بأنها "مأساة". هذا الشقى، وقد أطلقت الصحافة المصرية عليه فى ذلك الحين بدلا من المصطلح الشرطى "الشقى" اسم "السفاح".

وإذا كان التقرير المشار إليه أكد على أن وجود هذا الشخص يعتبر مأساة فإننى اتعمد أن استخدم مدلول "الشخص" عليه لأن كل شخص فى الحياة لديه الاستعدادلارتكاب الجرائم بأنواعها ولكنه لا يرتكبها إلا إذا دعته ظروفه الاقتصادية والثقافية والاجتماعية إلى ارتكابها وإننى أرى أن مأساة هذا "السفاح" هى مأساة المجتمع أو المجتمعات التى ولد وعاش فيها، ولكن التقرير يقول إن مأساة الشقى محمود أمين سليمان، على قصرها، قد أحدثت اثرا واضحا فى محيط الرأى العام (ويرجع ذلك فى رأيى طبعا إلى اهتمام الصحافة بالموضوع وكتابة الصفحات والمنشتات يوما بعد يوم عنه) وفى محيط أجهزة الشرطة المصرية على السواء. فقد اتسمت فترة ظهوره على مسرح الجريمة بسمات خاصة الجريمة أضفت عليه طابعا فريدا لم يعهد من قبل فى تاريخ الإجرام فى بلادنا الطيبة. إذ عرف هذا الشقى بالجرأة والدهاء والمباغتة كما عرف بالتجديد فى أساليب السرقة والسطو عل المنازل. غير أن موهبته الكبرى كانت فى ذكائه المفرط وقدرته الفائقة على تدبير وسائل الهرب وتضليل رجال الشرطة.

وقد ولد الشقى محمود أمين سليمان (كما يقول التقرير) فى عام "١٩٣٠" فى طرابلس من أعمال لبنان من أب "مصرى" هو أمين محمود سليمان الذى كان يقيم وقت كتابة التقرير بمدينة الإسكندرية، وقد جاوز ابوه فى ذلك الحين سن الخامسة والستين، وهو أى أب ينتمى إلى أسرة فقيرة ببلدة "الكعيمات" (بلاد المال قبلى) مركز "أبو طشت" محافظة قنا، ولما ضاق بالأب العيش نزح فى عام ١٩٢٠ تقريبا إلى تركيا والعراق وسوريا سعيا وراء الرزق حيث أقام فى لبنان وعمل حمالا فى المطارات ثم تطوع فى فرقة "الجندرمة" لمدة ثمانى سنوات تقريبا تزوج فى خلالها مرتين ثم طلق

زوجتيه بسبب عدم إنجابهما أطفالا، ولما انتهت مدة خدمته العسكرية التحق بوظيفة مخزنجي بإحدى محطات السكة الحديدية بخط طرابلس لبنان ثم عين رئيسا للحمالين بها، وكان يكسب يوميا حوالى ثلاثة جنيهات مصرية (يلاحظ أن الجنيه المصرى فى ذلك الحين كان يساوى جنيها ذهبيا + قرشين مصريين ونصف) إلى أن تزوج فى عام "١٩٢٨" من سيدة لبنانية أنجب منها محمود (موضوع هذه الدراسة) ثم رزق بأخوات له هن فاطمة وعلية ونادية وغادة وباخ اصغر احمد فى عام "١٩٤٦" وفى عام "١٩٥٠" رزق الأب بهدى، وإلى جانب هؤلاء تبنى ابنا لزوجته هذه واسماه محمد أمين وهو أكبر سنا من محمود، وكانت زوجته تساعده هلى مواجهة أعباء الحياة عن طريق حقن المرضى إذ كانت تعمل مساعدة لطبيب يدعى (رشاد يحيى) في طرابلس، وما أن بلغ محمود سن السادسة حتى الحقه أبوه "بمدرسة الفرير" بطرابلس واشتهر عنه فى أثناء دراسته تزعمه لزملائه بالمدرسة، ونظرا لسوء سلوكه واختلاطه بمن هم أكبر منه سنا فقد أعتاد الهرب من المدرسة حتى فشل فى دراسته وتركها.

وبدأ يهيم محمود فى الشوراع يسرق البرتقال من بعض الحدائق بمدينة طرابلس وهو فى سن السابعة من عمره، وكانت والدته تعاقبه بقصد تأديبه بالضرب والكى والنار، وفى ذات مرة سرق نقودا من والده مما دعا هذا الوالد أن يعاقبه وذلك بوضع القيود الحديدية فى قدميه الصغيرتين!

وفى سن العاشرة كان محمود يقوم ومعه آخرون بالسطو على معسكرات الجيش البريطانى فى لبنان وقد سلمه ابوه لرجال الشرطة ولكنهم لصغر سنه اطلقوا سراحه وسلموه لأهله، واستمر محمود فى مخالطة الأشقياء وشاركهم فى ارتكاب جرائم السرقة حتى حصل على شهرة كبيرة فى مجال الإجرام، وقد عرفت عنه الجرأة والتهور حتى إن لداته اطلقوا عليه لقب "محمود البطل"، اعتاد كل من له خصوم الاستعانة به على إيذائهم، وتردد على ألسنة أعضاء أسرته أنه اشتراك مع آخرين فى سرقة أحد المساكن مع استعمال السلاح وحكم عليه فى هذه الجناية بالسجن أربع سنوات أبعد بعدها إلى مصر حيث استوطن واسرته الحضرة بمحافظة الاسكندرية.

وقد ذكر أبوه أنه عندما قامت فلسطين فى عام "١٩٤٨"، كان محمود بلغت سنه حوالى الثامنة عشرة، وتطوع فى فرقة للفدائيين تحت قيادة احد القادة فى ذلك الحين (القاونجى) وكان لمحمود خال متزوج من سيدة يهودية تركها فى فلسطين عندما اندلعت الحرب وهرب ومعه أولاده إلى لبنان، وقد تمكن محمود، كما يذكر بعض أعضاء أسرته من تخليص زوجة خاله من أيدى اليهود فى اسرائيل وعاد بها إلى لبنان.

وقد ذكرت "السيدة نوال" التى كانت إحدى زوجات محمود انها فاتحته فى أمر حياته التى كانت ترى أنها تكتنفها الغموض بعد أن علمت من أحد اصدقائه اللبنانيين من الذين كانوا يترددون عليه بالإسكندرية فروى لها محمود مايلى :

"أن الجناية الملحقة به هى جناية أهله. فقد نشا بينهم فقيرا ولم يكن راضيا عن مستوى معيشتهم. وكان والده بخيلا ولا يتولى الانفاق على والدته كما ينبغى إذ كان يعطيها مصروفا يوميا ضئيلا ويصرف باقى دخله على النسوة والسهرات. فما أن بلغ أى محمود سن السابعة من عمره حتى دأب عل سرقة الفاكهة والخيار من الحدائق وتدرج إلى السطور على المعسكرات وسرقة السلاح، وبيعه وتسليم ثمنه إلى والدته واندمج فى عصابات اللصوص وعرف رجال الشرطة بلبنان عن الكثير فكان موضع مطاردتهم واضطهادهم، وذكر لها انه ضبط فى قضية سرقة مصوغات وحكم عليه بالحبس شهرا مما هيأ له فرصة الاختلاط بنزلاء السجن وهو حديث السن وتوطدت صلته بهم وواصل نشاطه معهم بعد ذلك حتى تمكن وهو فى السادسة عشرة من عمره من سرقات مصوغات أخفاها عند والدته وشقيقته وحكم عليهن بالحبس مدة شهر بينما حكم عليه بالحبس ثمانية شهور، وقد ذكرت الزوجة "نوال" ايضا أن محمود أخبرها بأنه تمكن من تكوين ثروة أعانته على شراء منزل ومقهى ومجموعة من سيارات الأجرة كما تقدم لاستئجار أرض جمرك بلبنان ولكن عرضه قد رفض، فما كان من محمود إلا أن اطلق مسدسه على من كان مصدر هذا الرفض، وأصابه، ثم أودع فى السجن وتظاهر بالمرض فنقل إلى المستشفى حيث تمكن من الهرب، ثم قبض عليه بعد سنوات عديدة وحكم عليه بالسجن أربع سنوات،

وفى أثناء محاكمته وجه محمود تهديدا حاسما للقاضى الذى قضى بإدانته وقام اعضاء العصابة التى كان يقودها فعلا باغتيال هذا القاضى :

وذكرت "نوال" أن والدة محمود، كما قال لها، كانت تشجعه علىالسرقة حتى تواجه نفقات الأسرة، كما ذكرت أن محمود قال إن خاله كان من المجرمين الخطرين بلبنان، كما كانت سيرة والدته وشقيقاته سيئة.

وعلمت "نوال" من أحد أصدقاء محمود وكان يعمل فى مهنة المحاماة أنه أى المحامى ذكر لها أن محمود عندما كان فى سن السابعة من عمره استيقظ فى اثناء نومه مع أمه على صوت حركة غير عادية وشاهد شخصا غريبا يواقعها، وان ذلك ترك أثرا فى نفسه لم تمحه الأيام من ناحية النساء قاطبة أو على حد قوله الشك فى "حواء" وكان يقول ذلك فى مناسبات عديد متباينة، وعندما كبر شخص محمود هذه الواقعة فارجعها إلى ضعف شخصية أبيه وسيطرة أمه عليه.

وفى ضوء ماذكرته الزوجة "نوال" نلاحظ أن محمود قد بدأ نشاطه الإجرامى فى لبنان وهو فى السادسة من عمره، وأنه تدرب على أيدى عصابات، وأنه كان شخصية قيادية فكون لنفسه عصابة تأتمر بأوامره وبخاصة فيما يتعلق بارتكاب الجرائم وكان معظمها جرائم القتل والسرقات ـ وأنه فعلا وحقا كان جرئيا فى ارتكاب الجرائم أو التخطيط لارتكابها.

وفضلا عن كل ذلك وغيره نلاحظ أن خيانة أمه لأبيه وهو فى سن غضة قد تركت فى نفسه عقدة لم تحل بمرورمراحل حياته من ناحية النساء، وفى قول إن محمود قد ولد فى أسرة متصدعة ولم تجد معه أجهزة التنشئة الاجتماعية السوية لأنه لم يجدها لا فى البيت أو فى الجيرة أو فى المدرسة أو فى غيرها من الأجهزة التى تكون المواطن الصالح.

وانتهى الأمر إلى إبعاد أسرة محمود إلى مصر فى عام ١٩٥٣ على حساب القنصلية المصرية بلبنان على أثر ما تكتشف لسلطات الأمن من خطورة محمود (كان محمود فى ذلك الحين مودعا فى السجن)، وقد ذهبت الأسرة إلى الإسكندرية ثم رحلت إلى بلدة الكعيمات (من بلاد المال قبلى) مركز أبو طشت مديرية قنا، ولم يستقر أعضاء الأسرة بالبلدة، طويلا نظرا

لتفاوت العادات والتقاليد التي يظللها المناخ الثقافي بهذه البلدة، عما اعتادوه في لبنان فرحلوا منها إلى الإسكندرية حيث تناسبهم الظروف الحياتية بها.

وفي الإسكندرية كانت أسرة محمود بحي الحضرة بجوار أسرة كانت من بين أعضائها آنسة تدعى "عواطف" وتم التعارف بين الأسرتين، وكانت أم محمود تردد أن لها ابنا يدعى محمود، وكانت تكذب إذ تقول إنه تخلف بلبنان لبيع ممتلكات الأسرة.

وفي ذات يوم فوجئت أسرة "عواطف" بزيارة محمود، ووالدته بقصد خطبتها. ورفض ابوها في بادئ الأمر ثم عاد فقبل وتم الزواج في ١٣ من شهر مايو عام ١٩٥٦، وفي اثناء ذلك افتتح محمود "جراجا" بمنطقة سيدى بشر، وبعد فترة سافر ومعه زوجته إلى القاهرة بحجة حركة العمل بالإسكندرية شتاء، ثم افتتح ورشة للنجارة بدائرة قسم باب الشعرية بالاشتراك مع شخص آخر.

وقد لاحظت الزوجة "عواطف" تغير حال زوجها بعد وصوله إلى القاهرة وكثيرا ما دب الخلاف بينهما. إذ كان يصر على السكن مع أحد اصدقائه وأسرته في مسكن واحد، وكانت الزوجة "عواطف" تعارض في ذلك لما لمسته من سوء سلوك هذا الصديق حيث كان يتصل بإحدى الراقصات. وضاعف من هواجسها ما كانت تلاحظه من خروج زوجها (محمود) ليلا وفي قدميه حذاء من المطاط وفي يده مصباح كشاف ويعود في ساعة متأخرة من الليل ومعه مبالغ كبيرة، ولم يتطرق إلى ذهنها في ذلك الحين أن زوجها (محمود) لص او أن تلك المبالغ كانت في حصيلة مايسرقه.

وفي خلال عام ١٩٥٦ أيام العدوان الثلاثي على مصر ترك محمود زوجته "عواطف" بالقاهرة وسافر إلى الإسكندرية حيث توجه إلى منزل شقيقته "غادة" التي كانت متزوجة في ذلك الحين، فوجد بالمنزل إحدى شقيقات زوجته "عواطف" وكانت تبلغ من العمر خمس عشرة سنة وحاول اغتصابها وادى هذا الحادث المشين إلى طلاق زوجته "عواطف" في شهر مارس عام ١٩٥٧ بعد أن رزقت منه بولد.

وفى أواخر عام ١٩٥٧ تعرف "محمود أمين سليمان" بسيدة تدعى "حميدة" وكان أسمها المشهورة بـه (ببيلا) وكان هذا التعارف عن طريق شخص يعمل فى مهنة المحاماة (وهو غير الشخص الذى ذكرته "نوال" من قبل) وعرض محمود على "حميدة" الزواج فقبلت، واستمرت حياتهما الزوجية أربعة أيام فقط، ثم هجرها دون طلاق.

وكان زوجته "نوال" التى سبق أن تحدثت عنها والتى صارحها بتاريخ حياته دون تفصيل حيث ألقى اللائمة على حياته التى صار إليها على أهله وظروف الحياة التى عاشها وهو صغير السن، وتم زواج محمود من زوجته "نوال" التى أصبحت خطيبته فى غضون شهر نوفمبر عام ١٩٥٧ وتم زفافها فى أوائل شهر أكتوبر عام ١٩٥٨، وبذلك أصبحت "نوال" الزوجة الثالثة لمحمود أمين سليمان، وأقام الزوجان "محمود ونوال" سويا بحى محرم بك بالإسكندرية ومرت ثلاثة شهور فإذا بـ "نوال" تلاحظ اجتماع زوجها بأحد المحامين وقضائهما سهرات طويلة فى إعداد ما يشبه المذكرات، وبعد ذلك أبلغ محمود زوجته بعزمه على السفر إلى القاهرة، ولم تتردد "نوال" فى سؤاله عن موضوع (المذكرات) أو مايشبه المذكرات فاضطر لاعتراف لها بأنه متهم بسرقة أحد المساكن فى مدينة القاهرة وصحبها معه حيث حضرت الجلسة الخاصة بمحاكمته، وقد ذكر محمود لـ "نوال" أن هذه القضية قد لفقت له، ومع ذلك كان يكثر من التردد على مدينة القاهرة إلى أن اصدر ضده حكم بالحبس فى تلك القضية، وكثيرا ما كان يرسل فى طلب حضور "نوال" من الإسكندرية لمقابلته فى أثناء التحقيق معه فى قضية تبديد أخرى، وبعد التحقيق نقل إلى سجن مصر ثم إلى سجن المرج ثم إلى مستشفى الدمرداش حيث أجريت له عملية الزائدة الدودية.

وفى فجر أحد الأيام فوجئت "نوال" بحضوره إلى الإسكندرية حيث ذكر لها أنه هب من المستشفى، وأقاما سويا بمنزل أحد الأصدقاء رغم معارضة أهلها الذين اضطروا أخيرا لإرشاد الشرطة عنه إلا أنه استطاع الهرب عن طريق (التخلص من سترته) واقتاد رجال الشرطة زوجته "نوال" إلى قسم باب شرقى لاشتباههم فى آلة تصوير ضبطت لديها. وقد بحث محمود فى ذلك الوقت عن احد المحامين لحضور التحقيق مع زوجته "نوال"

وقد أفرج عنها فى نفس الليلة. وقبض على محمود فى اليوم التالى ورحل إلى مدينة القاهرة وصحبته "نوال" وشقيقته "غادة" إلا أنه أى محمود استطاع الفرار فى أثناء ترحيله.

وقد ترددت "نوال" على مدينة القاهرة ومعها المحامى (نفس المحامى الذى حضر معها التحقيق والذى نجح فى الافراج عنها فى نفس الليلة) لحضور جلسات المعارضة الخاصة بهروب محمود فى أثناء ترحيله وقضى فيها ببراءة محمود. فضاعف ذلك من ثقته فى هذا المحامى.

وبعد الافراج عن محمود عاد إلى مدينة الإسكندرية إلا انه لم يلبث أن سافر وزوجته إلى مدينة القاهرة ونزلا فى أحد الفنادق بهذه المدينة بعد أن تركا ابنتهما "إيمان" بمدينة الإسكندرية مع والدته، وكان محمود يترك "نوال" بالفندق ليلا ثم يعود إليها عند الفجر ومعه مبالغ من النقود الكبيرة مدعيا أنه كان يدخن مخدر "الحشيش" مع بعض اصدقائه وانه استعاد بعض النقود التى كان يقرضها لآخرين.

ثم نزل محمود ونوال وابنتهما إيمان مع ابن عمه، ثم مالبث ان استأجر مسكنا بحدائق شبرا ظل به حوالى ستة شهور كان فى خلالها يغادره ومعه مصباح كشاف حوالى الساعة الثامنة مساء بحجة الذهاب إلى السينما ثم يعود حوالى الساعة الخامسة صباحا، وبعد ذلك استأجر مسكنا جديد بشارع المتحف الزراعى بالدقى.

وفى خلال فترة إقامة محمود وأسرته فى مدينة القاهرة كان المحامى الذى يثق فيه محمود والذى اصبح له صديقا حميما يحضر من مدينة الإسكندرية إلى محل إقامة اسرة محمود يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع، وكانت ترافقه زوجته فى بعض تلك الزيارات، وقد ترك هذا المحامى الصديق زوجته ذات مرة فى ضيافة محمود وأسرته شهرا كاملا، وفى ذلك الوقت افتتح محمود محلا للبقالة وعهد إلى والده وابن عمه بإدارته إلا أنه مالبث أن باعه بعد حوالى أربعة شهور لشكه فى تلاعبهما بإيراده.

وفى أحد الأيام وصلت إلى محمود برقية من صديقه المحامى يطلب منه فيها الاتصال به فى مدينة الإسكندرية ولكن محمود آثر السفر إليه، وبعد

عودته اعتدى على زوجته "نوال" بالضرب ونسب إليها أنها على علاقة بالمحامى وأنها كانت تقضى معه الليالى بمدينة القاهرة فى أثناء وجوده بالسجن وحضورها معه جلسات المعارضة، وأخذ محمود يعذب "نوال" حوالى شهر وهددها بالقتل شنقا، وفى إحدى سهراته مع المحامى الصديق ابدى له شكه فى وجود علاقة بينه وبين زوجته "نوال" وادعى أنها اعترفت له بذلك. فاعترض المحامى الصديق على ذلك فى حضور صديق لهما الذى نسب إليه محمود أيضا أنه على صلة بزوجته "نوال".

ولما علم أقارب "نوال" بخبر تعذيها انتهزوا وأخوتها فرصة زيارته لعديله وتكاثروا عليه واوثقوه ثم سلموه لرجال المباحث بقسم الوايلى، وعند تفتيش منزله بالدقى عثر فيه على سرقات كثيرة تبين أنه سرقها من عدة منازل بمدينة القاهرة وضواحيها واعترف محمود بالسرقات ولكنه ادعى بأن شقيقى "نول" وصديقه المحامى قد اشتركوا معه فى تلك الجرائم، وأن المحامى يخفى بعض المسروقات لدى إحدى زملائه بحى المنيل، وقد ضبطت هذه المسروقات فعلا إلا أنه لم تثبت عليهما تهمة الاشتراك أو تهمة الإخفاء.

وفى أثناء التحقيق مع محمود فى سرقاته العديدة، ادعى ابتلاع "دبابيس" ونقل إلى مستشفى ام المصريين بالجيزة تحت الحراسة المشددة ؟، وكان مكبلا بالقيد الحديدى ثم أعيد إلى سجن القاهرة حيث حاول الانتحار فنقل إلى مستشفى قصر العينى فى أوائل شهر فبراير عام ١٩٦٠، وقد تمكن من الهرب منه فى أواخر نفس الشهر، ثم بدأت سلسلة حوادثه ومطارداته التى انتهت بمصرعه.

وكانت من ضمن هذه الحوادث أن محمود هاجم منزل زوجته "نوال" التى تقيم فيه واستطاع أن يغافل رجال الشرطة المنبثين حول المنزل وتسلل إليه وأطلق الرصاص من كوة بباب الشقة والأسرة مجتمعة حول طعام "السحور" قاصدا إصابة زوجته "نوال" إلا ان الرصاص لم يصبها وأصاب ابنة شقيقها الطفلة.

والملاحظ أن محمود فى ضوء الصور الفوتوغرافية التى أخذت له بعد مصرعه، تبين أنه انتحر، ونقف هنا لنتساءل هل حالة محمود حالة

انتحار ونتجاهل جرائم القتل التى ارتكبها فى مراحل سنى حياته ؟ إنها فى رأيى حالة شخص قد مارس ارتكاب جرائم القتل منها والسرقات ولكنه لم يكن ليتورع فيقتل كل من كان يقف فى سبيل هدفه أو أهم أهدافه.

وتقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية يذكر عبارة " مصرعه أى مصرع محمود أمين سليمان، ولم يذكر بل ولم يجرؤ أن يذكر من الذى صرعه إنه كما ذكرت قد صرع نفسه بنفسه. صحيح لقد نجح رجال الشرطة فى أن يحكموا الحلقة عليه فاضطر إلى الاختباء بمغارة فى تلال المقطم بناحية قسم حلوان، ويبدو أنه علم أن مقاومته أصبحت غير مجدية وأن مصيره محتوم فما كان منه إلا أن اطلق على نفسه بضع رصاصات أثبت التقرير الطبى الشرعى أنها كانت كفيلة بالقضاء عليه، ومن ثم استطاع بعض رجال الشرطة أن يقتحموا عليه المغارة ويجدوه مقتولا (انظر : تقرير اللجنة الدائمة بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، (دراسة غير منشورة، شهر سبتمبر عام ١٩٦٠(.

والملاحظ أن إحدى الرصاصات بان فى الصور الفوتوغرافية أثرها فى ثقب فوق الأذن اليمنى فى رأس محمود الثانية الذى كان، والرصاصة الثانية بأن أثرها فى ثقب فى رأسه، وبعد ارتكاب جريمة القتل، أطلق رجال الشرطة رصاصات غير قاتلة بطريقة عشوائية بانت آثارها فى جثته!

٧- قوات الأمن المركزى : -

قمت بالإشراف على دراسة علمية عن موضوع أحداث الشغب والعنف التى وقعت فى يومى ٢٥، ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦، وقد قام بهذه الأحداث المجندون الذين يطلق عليهم أفراد قوات الأمن المركزى، وكان المجال الجغرافى لهذه الأحداث جمهورية مصر وبخاصة فى المدن التى يعمل بها هؤلاء الجنود، وكان من بين هذه المدن بالضرورة مدينة القاهرة، والملاحظ أن هؤلاء المجندين يمثلون جانبا هاما من القوات التى تعتمد عليها الدولة ووزارة الداخلية فى الحفاظ على أمن البلاد ضد أعمال العنف والشغب.

ومن العجيب أن هؤلاء المجندين على عكس المتوقع منهم قاموا هم أنفسهم بأعمال العنف حيث انهالوا فى خلال يومى ٢٥، ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦ على المنشآت المصرية ومؤسساتها تدميرا وتخريبا. أى أنه بدلا من أن يكونوا حماتها وحراسها أصبحوا رافعين لواء العنف والشغب ضد ما اؤتمنوا عليه والتزموا به من واجبات، ومن العجيب ايضا، ولا عجب فى ذلك، أن هؤلاء المجندين قد وجدوا من اعضاء المجتمع المصرى فى ذلك الحين من يسر لهم بل من عاونهم على القيام بأعمال العنف والتخريب المشار إليها.

والملاحظ أن مفهوم "المجند" فى الدراسة الحالية يعنى الشخص الذى وصل لسن التجنيد بالفعل وتم الحاقه بالشرطة عملا بالمادة الثانية أولا فقرة ب من قانون الخدمة العسكرية والوطنية رقم ١٢٧ لسنة ١٩٨٠، والذى يؤدى الخدمة الإلزامية لمدة ثلاث سنوات طبقا للمادة الأولى من نفس القانون.

والحوادث التى اهتمت بها الدراسة المذكورة تعنى أى سلوك عدوانى إيجابى، بدنى، أو مادى، أو معنوى، ضد بعض ممثلى السلطة أو بعض أعضاء المجتمع أو الممتلكات العامة والخاصة - يوجهه بعض قوات الأمن والأمن المركزى بوزارة الداخلية يومى ٢٥ و٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦.

وقد لاحظت الدراسة بعض الملاحظات منها :

- أن المجند المتهم فى ارتكاب العنف وحوادث الشغب كان واقعا تحت تأثير الضغوط الاقتصادية أكثر من غيره، كانتمائه لأسرة هو عائلها الوحيد او كفقدان لمهنته التى كانت تدر عليه دخلا كافيا له ولأسرته.

- أن المجند ينتمى إلى مجموعة من المجندين يكاد أن ينعدم الاشراف عليهم وتوجيههم.

- أن المجند واقع تحت تأثير بعض الأمور الاستفزازية بالنسبة له كآدمى يحس بإنسانيته وله آماله وطموحاته المشروعة.

- أن المجند ممن صادفته ظـروف معينـة صعبـة داخـل المعسكرات التى يعيش ويحيا فى ظلها.

- أن ما توقعه المجند من عملية التجنيد وما تحقق له بالفعل من هـذه العملية يختلفان ولم يكن يخطر على باله.

وأننـى أرجو أن يتذكر القـارئ الكريـم الدارسـة عن مفهوم العنـف عندما تحدثت عنه وعن مفهوم السلام من قبل، ولكنى أود أن أؤكد أن العنف المقصور هو العنف الإنسانى، وأن أعضاء الشعب المصرى بالطبع أعضـاء مسالمون، ولكنهم يبغون السلام العـادل، ولا يلجـأون أبـدا إلـى العنـف إلا إذا أجبروا عليه ووجدوه الوسيلة الوحيدة التى يدافعون بها عن كرامتهم.

وظاهرة العنف إن وجدت فى محيط المصريين، فهى توجد عادة مـن أجل الدفاع عن النفـس والحريـة والكرامـة، وأن أهـم المنـافذ الاجتماعيـة، أو الأساليب التى يواجه الشـعب المصـرى بهـا صنـوف القهـر وألوانـه هـى فـى معظم الأحوال، منافذ وأسـاليب غير عنيفـة. فـالمصريين لا يبـدأون الهجـوم بالعنف، ولكنهم إذا اتخذوا سبيل العنف سلاحا فإنهم يفعلون ذلك مدافعين عـن أنفسـهم ضـد العنـف الـذى يصيبهـم، إذ هـم يـرون بحـق، فـى ضـوء حقـائق التاريخ، أن العنف يولد العنف.

وقد يرى البعض أن مكافحة العنـف ومواجهتـه مثـل أيـة عمليـة مـن عمليات الشرطة الهامة، تخضع فى المقام الأول لاعتبارات الظروف الخاصة والملابسـات المتصلـة بكـل حـادث، وزمانـه، ومكانـه، وعـدد الأشـخاص المشتركين فيه، وأسلحتهم.. إلخ. ومن هنا، كمـا يـرى هـذا البعض، يصعب وضع قواعد ثابت ومحددة تكون قابلة وصالحة للتطبيق فى كل حادث، وأنـه من ألزم الضرورات للشرطة أن تعد نفسها إعدادا تامـا لمواجهـة هذا العنف الجمـاهيرى، ولأنـه جمـاهيرى، فهـو فـى العـادة يكـون مخططـا وفـى بعـض الأحيان تلقائيا

وقد نشأت فكرة استخدام الأفراد المجندين بوزارة الداخلية فـى مجـال الأمن بعد قيام ثورة عام ١٩١٩، وذلك لوقوع اضطرابات كثيرة وشديدة فـى

ذلك الوقت، ونظرا لعدم وجود احتياطى لقوات الشرطة فقد رؤى الاستعانة بأفراد مجندين من القوات المسلحة لاستخدامهم فى مقاومة الاضطربات.

ثم فكر المسئولون فى أفراد مجندين من بين المستدعين لتأدية الخدمة العسكرية للعمل بوزارة الداخلية بقصد مقاومة الاضطرابات وحفظ الأمن والنظام، وذلك بدلا من الاستعانة بأفراد القوات المسلحة وأطلق عليهم اسم "بلوكات الخفر" وقد بدئ فى إنشاء أول "بلوكات للخفر" بمحافظات القاهرة والإسكندرية والقناة وذلك فى عام ١٩٢٠.

وفى عام ١٩٣٠ أنشئ "بلوك خفر" فى بلدة قويسنا وسمى بلوكات خفر الأقاليم (وجه بحرى) لحفظ الأمن والنظام ومقاومة الاضطرابات فى مديريات الوجه البحرى، وآخر فى مدينة اسيوط وسمى ببلوكات الخفر الأقاليم (وجه قبلى) لحفظ الأمن والنظام ومقاومة الاضطرابات بالوجه القبلى.

وبعد قيام ثورة عام ١٩٥٢، أعيد تنظيم هذه القوات ولتوزيعها على جميع المحافظات، وسميت قوات الأمن. وقسمت هذه القوات إلى ثلاث مجموعات، وتم تعديل اسم بلوكات نظام الأقاليم وخصص "قشلاق" هذه البلوكات لتدريب المجندين الجدد.

وقد برز دور المجموعة الثانية (التى اصبحت تسمى قوات الأمن المركزى) : بروزا كبيرا وبخاصة منذ عام ١٩٩٦. وكان أهم واجباتها، كوحدات من قوات الأمن للعمل كاحتياطى مركزى، هو إيجاد قوة تحت تصرف الحكمدار لاستخدامها فى مقاومة حالات الاضطرابات أو اختلال الأمن العام التى لا يمكن لقوات الشرطة العادية وقوات الاحتياطى المحلى السيطرة عليها، واستخدمت هذه القوات (قوات الأمن المركزى) فى الأعمال الآتية :

– قمع الاضطرابات، وفض المظاهرات والتجمهر، وأعمال الشغب وما إليها فى حالات الطوارئ.

– حراسة المرافق والمنشآت الحيوية التى تؤثر على الحياة العامة، وذلك فى حالات الطوارئ.

– المعاونة فى حفظ النظام فى الاجتماعات العامة، عندما يتطلب ذلك قوات أكبر من المتيسر تدبيرها من رجال الشرطة العاديين وقوات الاحتياطى المحلى.

– الحالات التى يرى الحكمدار فى المحافظة أو المديرية، ضرورة الاستعانة فيها بقوات الاحتياطى المركزى.

– يجوز استخدام قوات الاحتياط المركزى، بأمر الحكمدار عند الضرورة على أن يخطر مدير مصلحة الأمن بتقرير عاجل بالظروف التى اقتضت ذلك.

وقد صدرت قوانين عديدة تتعلق بمعاملة هذه القوات، وكذلك لوائح خاصة لاستقبال القوات المسلحة للمجندين والكشف الطبى عليهم وتحديد مستوياتهم الثقافية.

وقد كان الاهتمام بوسائل الانتقال والاتصال كبيرا.وذلك لأن المسئولين يرون أن هذه الوسائل هى العصب الحيوى لإدارات وأقسام قوات الأمن، ويتطلب العمل سرعة انتقال القوات الذى يتوقف على مدى توفير وصلاحية وسائل الانتقال والسائقين، وبقصد التأكد، دائما، من إمكانية تحرك القوات بعدد كاف وفى أى وقت يتبع مايلى :

– يخصص لورى لكل فصيلة فض مظاهرات.

– تخصص سيارة ركوب قائد تشكيل.

–تخصص سيارات ركوب لمدير الادارة او رئيس القسم ونائبه ولكل ضابط من ضباط الرئاسة.

– يتم تسليح هذه السيارات واللوارى بالشبك المسلح وتجهيزه باللاسلكى.

– يجهز لورى بدون صندوق لنقل ما يلزم المبنى من رمل وأدوات وأثاثات.

– يجوز تزويد الإدارة أو القسم بجرار زراعى وسيارة كسح وسيارة مقطورة مياة حسب الظروف.

ومع ذلك نلاحظ أنه يصرف للمجند ٧٥ مليما يوميا فى حالات الطوارئ ويخصم مما يصرف الإجازات والغياب بدون إذن والحبس والحجز بالمستشفى. أما بدل التعيين النقدى فقدره ١٨٠ مليما يوميا (عدل إلى ٤٠٠ مليما) بعد أحداث يومى ٢٥ و٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦.

وأرجو أن يسمح لى القارئ الكريم بأن اكتفى بما ذكرت عن هذه القوات لكى أبرز بعض النتائج أهمها مايلى :

– أن قوات الأمن المركزى منذ إنشائها كانت اليد القوية لأصحاب السلطة والسلطان في الدولة، وقد اختير أعضاؤها وربوا لكى ينفذوا الأوامر فى ظل شعار المقولة المشهورة "النقمة تعم والنعمة تخص" ومنذ إنشاء هذه القوات وتحديد مهامها وواجباتها وإعدادها تتزايد على مر الأيام حتى بلغ عددها فى الوقت الراهن (أوائل عام ١٩٨٦) حوالى ٣٠٠,٠٠٠ عضو.

– أن وجود هذه القوات يعنى وجود جماعات أو تنظيمات مهنية جديدة فى مجتمعنا المعاصر، وقد أتسم أعضاء هذه الجماعات بسمات إنسانية معينة.. منها بل ربما تكون أهمها أنهم فى مستوى عقلى معين وأنهم فى سن المراهقة المتأخرة. أى السن التى يكون المرء منا فيها أكثر حساسية وأقل نضجا. أو السن التى لم تتكون فيها المحددات التكوينية والثقافية الاجتماعية والنفسية العقلية لكل عضو من أعضاء هذه الجماعات، أى السن التى لم يكمل فيها تكوين شخصيته الاجتماعية.

– ويلاحظ أن وضوح تباين هذه الجماعات عن غيرها من جماعات المجتمع الأخرى يرجع إلى مظهر أعضائها المادى (الملابس مثلا) فضلا عن آثار سلوك هؤلاء الأعضاء فى مواجهة أعضاء الجماعات الآخرى فى المجتمع، وهى آثار كانت فى الأغلب الأعم سلبية ويراها ويسمع عنها أعضاء المجتمع المصرى أفرادا وجماعات، وكان من هذه الاثار السلبية ميل أعضاء هذه القوات إلى الاعتداء على الاخرين حيث تزداد مكانة العضو فيها ارتفاعا كلما ازدادت مهارته فى لستخدام الأسلحة المختلفة التى يعتدى بها على الآخرين ويحطم بها الأشياء.

- ومن ثم فإن جماعات قوات الأمن أصبحت منعزلة وغير مقبولة اجتماعيا، وأصبح التعامل مع أعضائها يولد الشعور بالعداوة بينهم وبين غيرهم من أعضاء المجتمع المصرى الأسوياء منهم وغير الأسوياء على السواء.

- وإذا كان بعض أعضاء المجتمع المصرى لم يبلغ شعورهم بالعداوة مستوى يجعلهم يستعملون العنف ضدهم، فإن أعضاء هذه القوات عاشوا فى قلق مرضى وفى حيرة من أمرهم. فهم قبل كل شئ من أبناء الوطن المفدى، هذا الوطن الذى يتعطر مناخه الثقافى الاجتماعى، فى ضوء تراثه، بالسلام وبالقيم الاجتماعية العديدة ذات الأهداف الحميدة التى منها الشعور بالمحبة، محبة الناس بعضهم لبعض، والتعاون على البر، والإيمان الخالص، وبذل النفس والنفيس فى سبيل شرف الوطن والتضحية من أجله.. إلخ.

- وإذا كان أعضاء قوات الأمن المركزى فى خلال الفترة الأخيرة (يومى ٢٥ - ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦) قد ارتكبوا جنايات عديدة تتسم بالعنف الشديد (منها جنايات القتل والضرب الذى أفضى إلى الموت)، فإن هذه الجنايات كانت فى الغالب الأعم جنايات مقاومة السلطات والتجمهر. أى أنها جنايات يرتكبها عادة جماعات ولا يرتكبها أفراد (أرجو أن يتفضل القارئ بمراجعة ماذكرته عن مفهوم العنف وما يتعلق به من قبل)، والملاحظ أنه إذا صدر العنف عن الجماعات أو التنظيمات الاجتماعية أو الثقافية أو المدنية أو السياسية المنظمة كالجامعات والأحزاب والتنظيمات الدينية (المتطرفة) والتنظيمات المهنية (يلاحظ أن قوات الأمن المركزى تنظيم مهنى) يكون هذا العنف عادة مخططا له من قبل.

- وفى ظل بعض ألوان القهر التى يعيش فى ظلها أعضاء المجتمع المصرى المعاصر، وجد أن بعض هؤلاء الأعضاء قد اشتركوا فى ارتكاب بعض الجرائم، ولكن يلاحظ أن الأغلبية الساحقة من أعضاء هذا المجتمع وقفت موقف المتفرج وكأن لسان حالهم يقول إن : "السلطة تحارب ضد السلطة". ومع ذلك فإننا لاحظنا أن عددا كبيرا من أعضاء هذا الشعب قد تعاونوا مع بعض قوات الأمن المركزى الذين أرغموا على دخول السجون

ولم يصرف لهم طعام ولاماء ثم أفرج عنهم أو هربوا من السجون ومشوا فى الطرقات. على غير هدى، وكان العديد من المصريين البسطاء الكرماء يمدون لهم العون بالطعام والشراب والملبس (حيث تركوا فى السجن بملابسهم الداخلية فقط) والمأوى، وذلك لأنهم أى المصريين البسطاء رأوهم يأكلون ما يصادفهم من حشائش الأرض المزروعة، وكانت حالاتهم يرثى لها، ولعل هذا الموقف أقصد موقف المتفرج وكذلك موقف المصريين البسطاء الكرماء أن يكونا متوقعين.

وعلى العكس من ذلك فقد لوحظ أن بعض ساكنى حى الهرم وغيرهم من سكان العمارات التى حول حديقة الحيوانات قد تبرعوا لجنود الجيش المصرى وضباطه بالشاى الساخن وبعض الحلوى والكعك، وتعتبر هذه الأنماط السلوكية متوقعة أيضا من هؤلاء السكان، وإن كانت تعتبر استثناء.

- وأننى أرجو من القارئ الكريم أن يلاحظ ما لاحظته ولاحظه الكثيرون من أعضاء المجتمع، المكان، الذى بدأ فيه العنف وتوقيت حدوثه. فالمكان كان سياحيا والتوقيت كان فى الموسم السياحى حيث يكثر الأجانب من الجنسيات المختلفة وهم خير وسيلة إعلامية خارج حدود مصرنا الخالدة للنيل من النظام الذى يعيش أعضاء مجتمعنا تحت رايته.

- وقد اتخذت صور عنف المتمردين من أعضاء قوات الأمن المركزى، وبخاصة فى منطقة القاهرة الكبرى، صورا عديدة، وكانت تهدف هذه الصور فى الأغلب الأعم إلى إزهاق الأورواح وإلى ما يملكه ذوو اليسار من أبناء الوطن أو غيرهم، وإحراق الملاهى الليلية (الكاباريهات) والفنادق والمطاعم. ويرجع ذلك إلى شدة صور العنف وقسوتها وليس بالضرورة إلى وازع دينى. فى بعض الحيان (انظر : محمد إبراهيم حسنين عمران : أحداث الشغب والعنف يومى ٢٥ و٢٦ فبراير ١٩٨٦، إشراف سيد عويس، معهد القادة لضباط الشرطة، شهر ابريل عام ١٩٨٦).

أمثلة حية تاريخية

عن بعض أنماط العنف

٨- التفرقة اللاإنسانية:-

من الوصمات اللامعة اجتماعيا، التى توجد فى الكثير من المجتمعات البشرية المعاصرة، ما يطلق عليه التفرقة اللاإنسانية، وهى أنماط عديدة منها التفرقة الطبقية والتفرقة الدينية والتفرقة العنصرية، والأمثلة على التفرقة الأخيرة وبخاصة فى قارتنا الأفريقية عديدة، وهى واضحة وضوح الشمس وهى ساطعة فى كبد السماء فى المجتمعات الغربية وبخاصة فى المجتمع الأميريكى، ونجدها فى الوقت الراهن فى معظم بلاد العالم أقصد فى معظم القارات التى تكون كوكب الأرض. يقرأ الإنسان العادى عن ذلك فى الصحافة ونسمع ونشاهد ألوانا من هذه التفرقة على الشاشة الكبيرة وعلى الشاشة الصغيرة أيضا.

ولاجدال فإن التفرقة العنصرية تسلم بوجودها، بالضرورة المبادئ غير الإنسانية بأنماطها. فهو أى وجود التفرقة العنصرية مهما كانت عوامله، لا يمكن أن تعترف به، أبدا مبادئ العدالة والإنصاف، والملاحظ إذا أمعنا النظر فى البقاع التى توجد فيها هذه التفرقة الانسانية نجد أنها مصدر هام من مصادر الشعور بالعداوة الذى بدوره يؤكد الصراعات فى المجتمعات التى تسمح بوجودها، وأرجو أن يذكر القارئ الكريم هذا الشعور أقصد الشعور بالعدلوة، أنه وليد العنف بألوانه. ففى ضوء تجاربى الواقعية التى عشتها وأنا فى الولايات المتحدة فى خلال الفترة من عام ١٩٥٣ - ١٩٥٦، وعندما زرت هذه البلاد فى خلال عام ١٩٧٠، كانت التفرقة العنصرية السائدة فى المجتمع تنم عن ألوان مستمرة من الإحباط فى صفوف الزنوج الأميريكيين، بل كانت مصدرا لا ينضب من مصادر هذه الألوان.

وكانت التجربة الأولى عندما تيسر لى السكن فى "محلة نورفلك" الواقعة فى ميدان "جون أليوت" بمدينة بوستن. واختار لى المدير غرفة من

غرف المحلة العديدة التى كان عددها حوالى مائة غرفة أو اكثر، وأننى أذكر أن هذا المدير قد قابلنى وكان بشوشا ويبدو على وجهة السرور ولم أعرف عوامل هذه البشاشة وهذا السرور إلا بعد هذه المقابلة، وقد ذكر المدير أنه نظير المبيت فى غرفتى والاستمتاع بحقوقى (استعمال المكان المخصص للراحة والمطبخ ومشاهدة برامج التليفزيون.. إلخ) أن اعطى من وقتى ست ساعات فى المساء أسبوعيا واخترت يومى الاثنين والأربعاء من كل أسبوع لأؤدى عملى كأخصائى اجتماعى متخصص فى طريقة خدمة الجماعة.

والملاحظ أن محلة "نورفلك" كانت تقع فى حى يسكنه سكان من الزنوج كثيرون وقد كانت نية مدير هذه المحلة أن يبدأ السماح لكى يلتحق بالمحلة بعض الشبان من الزنوج وبخاصة وقد وجد لونا جلديا مناسبا لريادة هؤلاء الشبان. وفى ضوء خبراتى المهنية وسمات وجهى رأى المدير أننى فى نظره صالح لقيادة هذه الجماعة من شبان الزنوج شكلا وموضوعا، وكانت نشاطاتى مع جماعة الأولاد الزنوج الذى أطلقوا على أنفسهم "ذافيبرز" أى "الأفاعى السود" متعددة، وقد لاحظت أن كل عضو من هؤلاء يلبس "جاكيت" سوداء اللون مكتوبا عليها باللون الأبيض اسم الجماعة.

وقد سعدت بمهمتى سعادة كبيرة لأننى أعمل بين الأولاد الزنوج الذين يعتبرهم "البعض" بعامة وحتى فى مدينة بوستن "مدينة الحرية والأحرار" حيث يجد الزائر لمجلس نواب هذه المدينة نصبا أقيم تخليدا لذكرى أول زنجى صرعه الإنجليز (المستعمرين) فى الحرب الثورية فى عام ١٧٧٠، أنصاف مواطنين. وأنا لا أقول هذا الكلام جزافا فقد ذكر إلى "جون جراى" الزنجى الوحيد الذى كان بيننا وهو طالب فى كلية الفنون الجميلة بمدينة بوستن، أنه لم يجئ إلى محلة نورفلك إلا بعد أن دار فى شوارع بوستن وحاراتها أياما لكى يسكن مع زميل له "أبيض" ولم يجد مكانا يؤويه إلا إحدى الكنائس التى وجهته إلى المحلة. كان أصحاب الشقق للإيجار يرحبون بزميله الأبيض ويرفضونه هو، وكانت صدمة عنيفة له لأنه كان يعتقد أن مدينة بوستن لها تاريخ وتعتبر مصدر الحرية والأحرار الذين فروا من أوربا إلى الأرض الجديدة ليعمروها بعيدين عن القيود التى كانت

مفروضة على آرائهم فى ذلك الحين، لا يمكن أن يجد فيها لونا من ألوان التفرقة.

ولن أنسى وسأذكر دائما وقع سقوط قلعة "ديان بان فو" فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤، وهى التى حاصرها الفيتناميون الأحرار حصارا دام ٥٥ يوما على قادة الولايات المتحدة السياسين وغيرهم عندما استمعت إلى الرثاء الذى بثه المذيع يوم سقوط القلعة، كان رثاء "ندابة" مصرية، صدر عن قلب مكلوم حزين حقا، ولقد دهشت لأن هذه القلعة تقع فى الشمال الغربى من "إقليم فيتنام"، وأن الذين هزموا كانوا من جنود وضباط جيش الفرنسيين ولم يكونوا من جنود وضباط جيش الولايات المتحدة، ولكنه الغرب ومصالح الغرب ومستقبل الغرب، هى التى دفعت هذا المذيع المكلوم الحزين لأن يبث مرثيته على بنات وأبناء الشعب الأميريكى وغيرهم فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤.

وسأذكر دائما انطباعات نزلاء محلة نورفلك (زميلاتى وزملائى) لما حدث فى خلال عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦، عندما هبت على المجتمع الأميريكى زوابع "جوزيف مكارثى" الذى كان يظنه البعض من خارج الولايات المتحدة أنه القائد الأميريكى "دوجلاس ماك آرثر" الذى قاد القوات الأميريكية فى الشرق الأقصى فى الحرب العالمية الثانية، والقوات المتحالفة لليابان بعد هذه الحرب، أما جوزيف مكارثى فقد كان عضوا بمجلس الشيوخ الأميريكين عن ولاية "وسكونسن" وكان من أصل أيرلندى وكاثوليكى وينتمى إلى الحزب الجمهورى؛ كان هو وأتباعه فى تلك الفترة يتعقبون بالشبهة والشائعة العديد من المثقفين الأميريكيين (كأساتذة الجامعة ومن فى حكمهم مثلا) ويتهمونهم بالموالاة للشيوعية وإثارة الفتن، وكانت جلسات محاكمة الأخيرين تعقد وتبث وتشاهد فى التليفزيون يوميا تقريبا، وكانت مواعيد هذه الجلسات محددة ويجتمع فى خلال فترة بثها ملايين الأميريكيين حول التليفزيونات متتبعين ما يدور فيها، وكنت مع معظم نزلاء محلة نورفلك حريصين على أن نفعل ذلك ونرى أمامنا ما يحدث وكأننا نرى فيلما سينمائيا مخيفا، وقد تأكدت أن مكارثى وأعوانه ومن كانوا وراءهم كانوا يبغون ألا يلفتوا نظر أعضاء المجتمع الأميريكى إلى ما يهمهم من أمور عن عمد

بوساطة جذب انتباههم إلى ما كان يحدث فى هذه المحاكمات.إن مجتمع الولايات المتحدة كما كنت أراه ويراه غيرى من العلماء والمثقفين الأميريكيين كان مجتمعا يستشرى فيه الفساد فى نواح كثيرة، فقد كانت أكبر نسبة من الجرائم توجد فى هذا المجتمع وكانت أكبر نسبة من مرضى القلب توجد فى هذا المجتمع أيضا، وكانت من كل عشر آنسات أو سيدات أربع مريضات بمرض نفسى أو عقلى، وكان من كل ١٣ رجلا واحد يمارس بل يحترف الجنسية المثلية، وكان جناح الأحداث فى ذلك الحين يستشرى فى أكثر من مليون حدث. كل هذه الحقائق وغيرها مثلها قد عرفتها وعرفها غيرى فى ضوء نتائج بحوث علمية اجتماعية أجريت فى تلك المجالات فى ذلك الحين. صحيح أن مستوى الجانب الثقافى المادى فى المجتمع الأميريكى مستوى عال ما فى ذلك من شك، وأن مستوى المعيشة فى محيط الأميريكيين مستوى عال ما فى ذلك من شك أيضا. ولكن القارئ الكريم يعلم كما أعلم تماما أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ومهما يكن من الأمر فإننا نجد فى ثنايا تاريخ الولايات المتحدة، طبقا لما ذكره "شارد بورزسميث" فى كتابه (اليانكيون والآلة)، ظواهر تشابه "ظاهرة المكارثية". أى أن ظاهرة المكارثية قد حدثت فى تاريخ هذا البلد مرات عديدة، والملاحظ أن مقومات هذه الظواهر كانت فى الأغلب الأعم متشابهة. فنجد أنها تستند إلى قيادة قوية ولكنها فى نفس الوقت قيادة غبية وأن غباءها مستحكم لدرجة أنها لا تستطيع نقد نفسها ذاتيا أو أن تكون فكرة أو تصورا عن ذاتها، وهى تستند أيضا إلى الاندفاع العصابى إما لتحقيق القوة أو للاحتفاظ بها، وهى تستند كذلك إلى ماتتزود به من شجاعة حيوانية وضحالة أخلاقية التى تيسر لها التبرير لما تقوم به من العنف أو النزوع إلى الحصول إلى المغانم غير المشروعة، فضلا عما تقوم به من أنواع الحقد وتعمد الأذى والرذيلة.

كانت هذه المقومات التى ذكرها "شارد بورزسميث" فى كتابه الذى نشر فى عام ١٩٥٤ كلها، تتحدث عن نفسها أمامنا، وأمام الملايين من أعضاء المجتمع الأميريكى، عندما كنا نشاهد ظاهرة المكارثية على الشاشة الصغيرة، وقد شهدنا قطعا أعضاء هذا المجتمع من قبل فى عام ١٦٥٠ عندما كانت الضحايا أعضاء "مذهب الكويكرز" وأعضاء "مذهب البابتستس" (المعمدون البروتستانتيون)، وما حدث فى عام ١٦٩٢ عندما طوردت

"الساحرات" وعذبن فى مدينة "سالم" بولاية ماساتشوسيت لمدة ستة شهور، وفي خلال الأعوام ١٨٤٠ - ١٨٥٠ عندما ظهرت الحركة المضادة للمذهب الكاثوليكى. (انظر شارد بورزسميث : اليانكيون والآلة باللغة الإنجليزية، نيويورك، عام ١٩٥٤، صفحة ١٠، وصفحة ٢٤٩ وصفحة ٤٦٤).

ولم أكن أدهش كثيرا عندما كنت أرى تابعا من أتباع مكارثى يدلى بشهادة فى المحكمة التى كنت أراها كما كان يراها الملايين غيرى على شاشة التليفزيون , كنت أرى فى هذا التابع ظلال الجهل الذى يعشش فى تلافيف دماغه، وكنت أرى فيه الشعور بالنقص واضحا، أما رغبته فى تحطيم من كان أفضل منه وأعظم فلم تكن تخفى على أحد، وكنت أرى فى هذا التابع كذلك محاولته التى كان يصر عليها لتظهر قدرته على إظهار كل ما هو غير ذى علاقة بموضوع اتهام ضحيته، وكانت تنتهى المحاكمة وأذكر أننا نزلاء محلة نورفلك كنا نمكث على مقاعدنا قليلا، وكان لا يتكلم منا أحد. ثم نتفرق واحدا وراء الأخر. لم يكن يتحدث معى عما رأيناه وسمعناه أحد، ولم أكن أنا أيضا أتحدث مع أحد حتى مع من كانت تجمعنى وإياهم النظرة نحو الحياة، لم يكن يجرؤ واحد منهم أن يقول لى شيئا أو يعلق على ما رآه وسمعه بشئ ولعل ذلك يرجع إلى أننى كنت فى حجرة المطبخ فى الساعة الواحدة صباحا فى يوم من أيام هذه الفترة وكان معى شاب "كندى" كنا نلتمس طعاما "تسكت به العصافير" التى كانت تزقزق فى بطن كل منا. فإذا بالنزيل الزنجى (الذى انضم معه إلى نزلاء المحلة آنستان زنجيتان فى تلك الفترة). كان فى الخارج وفى أثناء دخوله من باب المحلة ناداه أحد رجال الشرطة من الزنوج، وقال لنا جون أنه سأله عن النزلاء : ماذا يقولون وماذا يفعلون، فنفى جون أنه سمع شيئا غير عادى أو رأى فعلا استثنائيا. كان جون يقول لنا ذلك وهو ممتقع الوجه وكانت يداه ترتعشان، ولم نعلق بشئ ولكننا عرفنا أننا أى نزلاء المحلة تحت الرقابة، ومن كان تحت المراقبة وهو فى بلاد الغربة مثلى يصح له أن يعيش جبنا الاغتراب أى يعيش وهو موجود ويعيش وهو غير موجود فى أن واحد. إن المسألة، كما كنت أقول لنفسى، ليست جبنا أو خوفا أو خشية، لكن المسألة أهم من ذلك وأعظم وهى أن أحرص على حياتى أن تهدم بلا مبرر، وكانت لى تعاليم "أسبارتاكوس" العبد الثائر، الذى ثار على روما والدولة الرومانية وكانت فى عنفوانها

أو نقشها أو إعادة تبييضها أو نقشها، وكنت أرى أعضاء هذه الجماعة وقد حمل بعضهم على كتفهم "السلم الخشبى" "أو فى أيديهم الفرشاة" أو "جردل البوية". وأراهم وهم يسيرون فى الشارع بإصرار ودون ما وجل أو خشية من أحد وكنت ارى ذلك، وكان غيرى من سكان الحى يرونه، وكنت أرى الزهو أحيانا، وكنت أرى التواضع أو ما كان يبدو لى أنه تواضعة أحيانا أخرى.

ولأننى كنت من نزلاء محلة نورفلك، ولأن وقت الفراغ فى خلال فترة الصيف اطول منه فى فصل آخر، فقد كان المسئول عن نشاطات أعضاء جماعة الطالبات والطلبة المذكورين يوجه الدعوة إلى لحضور اجتماعها بعد أن يكونوا قد أدوا مهامهم اليومية، لم تكن هذه الدعوة توجه إلى يوميا بالطبع، فالجماعة لها نظامها وتقاليدها وقيمها الاجتماعية الحميدة منها فى رأيى وغير الحميدة منها فى رأيى أيضا. ولم أكن عضوا فيها، وكانت الجماعة تعيش فى محلة نورفلك فى فترة الصيف حيث لا عمل فيها أو فى الجامعات التى ينتسبون إليها. إن أعضاءها فى حقيقة الأمر كانوا يقيمون فى المحلة إقامة فعلية لفترة لا تقل عن شهر، وفى الاجتماع الذى كنت أحضره أجد أن كل عضو يدلى فى ورقة بشئ يشبه التقرير عما مر به من تجارب وما اكتسب من خبرات. وكان من بين أعضاء الجماعة من كانوا من ولايات الجنوب مثل "ولاية الباما" و "ولاية جورجيا".

وفى أحد الاجتماعات الذى دعيت إلى حضوره أدلى أحدهم وكان من احدى عائلات البيض الثرية تقريره اليومى وكان يسهم مع آخر فى تنظيف احدى الشقق لأسرة زنجية. كان هذا الشاب قد جاء من ولاية جورجيا وكان عضوا فى صفوف طلبة "جامعة هارفارد" فى منطقة "كامبردج" التى لا يفصلها عن جامعة بوستن إلا كوبرى صغير، وبدت على وجه هذا الشاب وهو يتحدث علامات التقزز والاشمئزاز والازدراء جميعا، وقال ضمن ما قاله أنه "لا يطيق رؤية أحد الزنوج يسير فى الشارع فكيف له أن يقوم بتنظيف شقة أسرة زنجية أو أن يسهم فى هذا التنظيف ؟. وكانت مشاعره تأبى عليه أن يواصل مابدأ، وبدا أن الموقف، إذ كنت حاضرا، حرجا، وكان رئيس الجماعة أو المسئول عنها لبقا فاقترح تأجيل النظر فى هذه الحالة إلى

جلسة مقبلة التى لم أحضرها لسبب بسيط لأننى لم أدع إلى حضورها أو إلى حضور غيرها من الجلسات.

وأننى أرى وأرجو من القارئ الكريم أن يرى ما أرى أن الظاهرة الاجتماعية بل إن أى شئ فى عالمنا شئ له تاريخ. كل له تاريخ هذا عنوان كتاب "بروفسور هولدين" الذى نشر فى عام ١٩٥١، وفى ضوء هذه العبارة الصادقة التى تذكرتها وأنا فى عرض المحيط الأطلنطى عائدا إلى مصرنا الخالدة بعد حصولى على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٥٦. وفى هذه الأثناء تذكرت أيضا زنوج الولايات المتحدة وكيف كانوا يجلبون قسرا من بلادهم ومن أحضان ذويهم الحانية إلى القارة الأميريكية.

كان الإنجليز من أهم تجار "العبيد" كانوا يبزون الأسبانيين والفرنسيين والبرتغاليين والهولنديين فى هذه التجارة اللاإنسانية، وقد بدأت تجارة العبيد منذ عام ١٦٨٠ عندما رأى المستعمرون أن زنوج أفريقيا خير معين لهم فى القيام بالأعمال الشاقة فى مزارعهم الشاسعة.

وكان الإنجليز من المستعمرين يقومومن بهذه التجارة عن طريق ما أطلق عليها "تجارة المثلث" حيث كانت نخرج المراكب من ميناء "ليفربول" أو "ميناء" "برستل" وهى فارغة، ويقودها القراصنة من التجار الإنجليز، الذين كانوا يسولون لأنفسهم تجارة البشر (أصبح هؤلاء فيما بعد اللوردات الإنجليز الذى طالبوا بالحكم، وأحفادهم اليوم هم الساسة المرموقون فى المجتمع الإنجليزى)، وكانت المراكب الإنجليزية الفارغة تسير إلى أن تصل إلى مرساها عند ساحل أفريقيا المطل على المحيط الأطلنطى، وكانت بضاعة هؤلاء النخاسين التي يستبدلونها بها البشر من العبيد الأفريقيين من الذى كانوا يجوعون بعد أن يصطادهم الذئاب من التجار الذين كانوا يحشدونهم فى أماكن تقع على ما يعرف الآن بـ (ساحل غينيا). كانت هذه البضاعة الزجاجات المملوءة بأنواع الكحول الرديئة والأسلحة النارية الصغيرة وبعض المنسوجات القطنية والعديد من الحلى التافهة.

وتمثل هذه العمليات الضلع الأول من مثلث هذه التجارة اللعينة. ثم يحشد ما تم أستبداله من العبيد فى المراكب لكى يعبروا المحيط (الأطلنطى) مرة ثانية فى طريقهم إلى المستعمرات الأميريكية، وكان هدف أهداف هذه

العمليات مرجعه إلى الجشع والرغبة في الربح عن طريق العنف والقسوة اللاإنسانية وكانت هذه الرغبة في الربح تتغلغل في أعماق نفوس تجار العبيد من البشر أو تجار البشر الذين أصبحوا عن طريق استخدام الإرهاب عبيدا.

وبتحقيق هذه العملية يكون قد استكمل الضلع الثاني من تجارة المثلث. ثم يبدأ الضلع الثالث وذلك بأن تكدس المواد المختلفة التي انتجتها المستعمرات الأميريكية ومن أهمها "عسل السكر" نظير ما بقي من العبيد المغلوبين على أمرهم حسب أعمارهم ونوعهم وما تبقى لهم من صحة وعافية. ثم تقلع المراكب بما حملت لتذهب من حيث أتت أي إلى ميناء ليفربول أو ميناء برستل. (الموسوعة البريطانية : عدد ٢٠، بتاريخ ١٩٦٨، صفحة ٦٣٥).

لم أكن في ذلك الوقت الرهيب جئت إلى هذه الدنيا ولكنني قرأت الإعلان المواجه لصفحة رقم ١٩٦ في الموسوعة البريطانية : عدد ١٦، بتاريخ ١٩٦٨، إذ يقول هذا الإعلان :

"للبيع على سطح مركب" بانسي : باند "يوم الأثنين ٦ من شهر مايو المقبل على "المعدية - ابليري" حمولة منتقاة من ١٥٠ زنجيا أصحاء وصلوا في الوقت الراهن من شاطئ ويندورد وريس"

والعناية التامة بهؤلاءَ الزنوج قد اتخذت، وستستمر هذه العناية حتى يتفادوا أي خطر من حيث العدوى بمرض "الجدري". ولم يسمح لأي قارب ليكون على سطح المركب، وقد تم تحريم لاتصال أي شخص آت من "مدينة شارلس".

(... ملاحظة :

نصف عدد الزنوج المذكورين أعلاه كانوا مصابين بمرض "الجدري" عندما كانوا في بلادهم).

وعشت في هذه الدراما اللاإنسانية ساعات وساعات، وكنت أتصور أنني كنت واحدا منهم وأحاول أن أتخيل التجربة أو التجارب التي كان يواجهها هؤلاء التعساء من البشر، وقد تأكدت هذه المشاعر المظلمة عندما في قرأت كتاب "الجذور" لمؤلفه "الكس هيلي" الذي نشر في عام ١٩٧٧. كان

مضمون هذا الكتاب يفصح بوضوح عن أن الإنسان يمكن أن يكون وحشا كاسرا، وعندما ما شاهدت "الفيلم" الذى عكس الدراما اللاإنسانية التى تضمنها الكتاب المذكور زادت مشاعرى المظلمة ظلاما.

وتذكرت ما كتبته عن "رفاعة رافع الطهطاوى" نقلا عن كتاب الأخ الفاضل الأستاذ الدكتور "رفعت السعيد" وعنوان هذا الكتاب (المؤلفات الكاملة: المجلد الأول، الناشر دار الثقافة الجديدة، القاهرة، تاريخ ١٩٧٨). فإذا بى أعيد قراءة وثيقة بخط رائد الأجيال رفاعة رافع الطهطاوى وختمها بخاتمه فأجد إنسانية هذا الرجل ساطعة تؤكد اهتمامه بالمرأة واحترامه لها، وعلى الرغم من وجود "الجوارى" فى منزله حيث كان رجال الشريعة الإسلامية يبيحون التمتع بهؤلاء الجوارى (ملك اليمين). وليقرأ معى القارئ الكريم الوثيقة التى أشرت إليها.

"ألتزم كاتب هذه الأحرف رفاعة بدوى رافع لبنت خاله المصونة كريمة العلامة نالشيخ محمد الفرغلى الأنصارى أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ولا جارية أيا كانت، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من نساء، أو تمتع بجارية أخرى. فإن تزوج بزوجة أياما كانت.. كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة وكذلك إذ تمتع بجارية ملك يمين، لكنه أوعدها وعدها صحيحا لا ينتقض ولا يحل أنها مادامت معه على المحبة العهودة مقيمة على الأمانه والعهد لبيتها ولأولادها ولخدميا وجواريها. ساكنة معه فى محل سكناه، لا يتزوج بغيرها أصلا، ولايخرجها من عصمته حتى يقضى الله لأحدها بقضاء. (أنظر : رفعت سعيد) المؤلفات الكاملة المجلد الأول، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، ١٩٧٨، صفحة ٣٤).

ومن نكد الدنيا أن نجد فى ضوء حقائق التاريخ أن الإنجليز بعد أن مر إثنا عشر عاما على احتلالهم لمصرنا الخالدة كما ذكر الاستاذ الصحفى "صلاح عيسى" فى كتابه"حكايات من مصر" الذى انتهى من كتابته فى شهر أبريل عام ١٩٧٢ وقد نشرته دار "الوطن العربى" بيروت - أن الرقيق كان قد ألغى من مصر بموجب معاهدة مصرية إنجليزية ابرمت فى عام ١٨٧٧ (قبل الاحتلال المشئوم)، تطبيقا لها صدر أمر عال من الخديو (اسماعيل) فى أغسطس من العام نفسه، ينص على فترة انتقال مدتها اثنا عشر عاما يسمح

فى خلالهـا للأسر التـى تمتلك جوارى أو عبيـدا أن تتـاجر فـى الرقيـق مـع غيرها"

"وبعد مضى المدة المحكى عنهـا إذا كـان أحـد مـن رعايـا الحكومـة المحلية يخالف الأمـر ويتجرأعلـى بيـع الرقيـق السودانى أو الحبشـى تصيـر مجازاته بالأشغال الشـاقة لمـدة أقلهـا خمسـة أشـهر وأكثرهـا خمـس سـنوات" (انظر صفحة : ١٥٩).

والملاحظ أنه فى ضوء ما كتب من قبل أن دور الإنجليز فـى تجـارة العبيد التى بدأت منذ عام ١٦٨٠، وكـان الزنـوج خير معيـن لهـم فـى القيـام بالأعمال الشاقة فى مزارعهم فى ذلك الحين. كانت الحالة الاقتصـادية تقتضـى وجـود هـؤلاء الزنـوج أى الأيـدى الإنسـانية العاملـة، ولمـا تطـورت الحالـة الاقتصـادية، واخـترعت الألـة، اكتفـى الإنجليز والمسـتعمرون الآخـرون بمـا فعلوه من معاملة لا إنسانيية مـن قطـاع الزنـوج القطـاع المسـتضعف. أقصـد المستعمرين وهم على أبـواب بنـاء الرأسـمالية قـد وجـدوا أن تكـاليف هـؤلاء أصبحت باهظة ومن ثم ارتفعت الأصـوات بإلغـاء الرقيـق فـى العـالم، ولعـل بالإضافة إلى ذلك "قيام الحرب الأهلية" فى الولايات المتحدة التى ناضل فيهـا الذين كانوا ينادون بإلغاء الـرق. وقـد كسـب هـؤلاء الحـرب ولكنهـم خسـروا السلم، وفى خلال الأعوام المضطربة من عام ١٨٦٥ إلى عـام ١٨٧٧ وعـن طريـق انتهازيـة بنـاة الدولـة الرأسـمالية وجشـعهم ونقـص التخطيـط وضعـت أسس نظام التفرقة الذى يعانى منه زنوج الولايات المتحدة حتى وقتنا هذا.

ولم يكن "إبراهام لنكلن" الذى قاد الحرب الأهلية "يؤيـد" إلغـاء الـرق، وكان يعتبر هذه الحرب ثورة مـن "مواطنـى" الجنـوب وليسـت مـن "ولايـات" الجنوب، ومن ثم فإننا نراه بعد انتهاء الحرب كان من رأيـه ان يـدع ولايـات الجنوب تعالج مشكلة الزنوج كما يروق لها (انظر كتاب ثورة الزنوج تـأليف لويس لوماكس، ترجمة سيد عويس، فى كتب سياسية الـدار القوميـة للطباعـة والنشر، عام ١٩٦٦، صفحة : ١٩)

وقبـل أن يمـل القـارئ الكريـم أود أن أذكـر أنـه فـى عـام ١٩٦٤ قـد حصـل "جـان بـول سـارتر" علـى جـائزة نوبـل، ولكنـه رفضهـا. كمـا حصـل "مارتن لوثر كنج" علي نفس الجائزة ولكنه قبلهـا ولـم يرفضهـا، ونلاحـظ أن

مارتن لوثر كنج الذى كان نصيرا لعدم العنف قد صرع قتيلاً فى عام ١٩٨٦، وذلك على الرغم من أن الزنوج الأميريكين، فى ضوء معاملة البيض فى كل مواقع الحياة التى يحيونها هم الذين لاصله لهم إلا استخدام العنف، فالمعروف أن "العنف يولد العنف".(المرجع السابق : صفحات، ٤٤ - ٤٧)

وقد شهد شاهد من أهلها إذ طالعتنا مجلة "تايم مجازين" (عدد رقم ١٢، شهر مارس عام ١٩٨١، صفحات ١٨ - ٢٣) بالمعلومات عن بعض جرائم العنف التى ترتكب فى المجتمع الأميريكى، فذكرت أن فى كل ٢٤ دقيقة ترتكب جريمة قتل فى مكان ما فى الولاات المتحدة (٢١٩٠٠ جريمة فى العام) وأنه فى كل عشر ثوان ترتكب جريمة سرقة فى أحد المساكن، وأن فى كل سبع دقائق ترتكب جريمة اغتصاب، وهناك أمر هام (كما ذكرت المجلة) ويعتبر جديدا بشأن جرائم القتل والسرقات والاغتصاب والإعتداء على الآخرين، وهذا الجديد يبرز أن لغة العنف فى ارتكاب الجرائم قد انتشرت وتنتشر ليس فقط فى أحياء الأقليات (ومنهم الزنوج بالضرورة) وبخاصة فى المدن التى ينتشر فيها الكساد حيث يسود الحقد، ولكن قد نجد هذا العنف منتشرا أيضا فى كل بقاع المناطق الحضرية وضواحيها وحتى فى أنحاء الريف (المسالم) ومن المهم أن نذكر (هذا ما تذكره المجلة المذكورة) أن أنواع الجرائم قد أصبحت أكثر وحشية وترتكب من وحى الغرائز دون ما منطق وبعشوائية، ومن ثم فهى بالضرورة مخيفة ومفزعة، ومن الجرائم التى تزعج الرأى العام يلاحظ أن كل أسرة من ثلاث أسر الولايات المتحدة كانت لها صلة مباشرة بنوع من أنواع الجرائم الخطيرة فى العام الماضى (أى عام ١٩٨٠)، ومن النادر أن نجد أميريكيا واحدا لا يعرف شخصيا ضحية واحدة على الأقل من ضحايا العنف فى المجتمع الأميريكيى، ونجد أن الخوف والهلع يتسلطان على المجتمع الأميريكى : أعضائه وجماعاته ومؤسساته. وفى أسبوع واحد (من يوم ٨ من شهر مارس عام ١٩٨١ حتى يوم ١٤ من شهر مارس عام ١٩٨١)، وجد ٤٠٠ أمريكى مقتولين فى الولايات المتحدة، ومعظم دوافع (وليس عوامل) ارتكاب هذه الجرائم يحدث فى أثناء مجرد عراك أو مناقشات الجيران أو فى حرب

المخدرات أو مناقشات العصابات، والملاحظ أن ثلث المجنى عليهم قد قتلهم أغراب، وفى الغالب دون أى مبرر واضح.

وقد نشرت إدارة(F. B. I.) نسبا عن جرائم العنف (جرائم القتل والاغتصاب والاعتداء العنيف والسرقات). وقد تبين أن فى عام ١٩٧٠ كانت الجرائم ترتكب بنسبة ٣٦٣,٥ جريمة لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة، فى حين وجدت هذه النسبة ٥٣٥,٥ لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٧٩. والملاحظ أن جرائم القتل ارتفعت بنسبة ٩,٧ لكل ١٠٠,٠٠٠ نمسه عام ١٩٧٩ وتأكد ان ثلث جرائم القتل قد ارتكبها مجرمون لم يقابل أحد من المجنى عليهم واحدا منهم فى حياته قط، ومن ثم فإن هؤلاء المجرمين، وهم فى الغالب يقتلون من اجل سلب الضحايا، هم الذين يسهمون فى خلق العنف فى المجتمع الأميريكى وفى إشاعة الخوف والهلع فى قلوب أعضائه، وقد تبين أن الجرائم الخطيرة التى ارتكبت فى "مدينة نيويورك" فى خلال ستة شهور من عام ١٩٨٠، قد زادت بنسبة نحو ٦٠٪ فوق المستوى القومى العام. والملاحظ أن جرائم السرقة كانت نسبتها فى هذه المدينة أعلى نسبة فى البلاد، وفى عام ١٩٨٠ بلغ عدد جرائم القتل فى هذه المدينة (نيويورك) ١٨١٤ جريمة.

٩- السجن كمؤسسة قمعية :

يلاحظ أن "السجن" هو أحد الأساليب العقابية التى كانت توقع على المدانين فى أفعال يراها المجتمع ضارة، وهى قديمة ومتعددة، كان منها الجلد والعزل والنفى والكى لإحداث علامة تدل على المدان فى أفعال لا تقرها علاات المجتمع وقيم المجتمع، وكان منها أيضا التشهير به عن طريق إدخال يديه ورأسه فى آلة خشبية أو تعذيبه عن طريق أداة خشبية ذات ثقوب كانت تقيد فيها رجلاه ويداه أو مجرد رجليه فقط!

وقد تطورت هذه الأساليب العقابية بمرور الزمن عندما تغيرت نظرة قوانين العقوبات (المقصود الذين يشرعون هذه القوانين بالطبع) منذ أوائل القرن الثامن عشر وحتى الآن. وأصبحت المؤسسات العقابية تخصص

للمذنبين من الرجال والنساء والشبان والشابات والأحداث ذكورا كانوا أو أناثا. فنجد اليوم فى أغلب دول العالم السجون وأماكن الحجز لكبار المذنبين الرجال منهم والنساء، وللشبان وللشابات المذنبين، وفضلا عن ذلك نجد أيضا المؤسسات الخاصة بإيداع الأحداث الجانحين سواء أكانوا من الذكور أم من الإناث، كما نجد أماكن للكبار وللشبان وللشابات والأحداث المتهمين لحجزهم احتياطيا تحت التحقيق أو لحجزهم فى أماكن الحجز المركزى توطئة لمحاكمتهم.

وفى ضوء النظرة القانونية الاجتماعية نلاحظ أن المؤسسات العقابية (ومنها السجن) إن هى إلا مؤسسات اجتماعية، أى أن لكل منها نجد بناء أو نسقا معينا، كما نجد لها وظائف اجتماعية معينة، ولعل أبرز سمة من سمات بناء أو نسق هذه المؤسسات هى أن الأقلية فى شخص إدارة كل مؤسسة تكون بالضرورة أقلية قوية، والأغلبية فى شخص النزلاء تكون عادة، وليس بالضرورة، أقلية سلبية مستضعفة، وربما هذه الأقلية القوية، أيضا، حكيمة وعاقلة (وهذا نادر). وربما أصبحت الأغلبية، أى النزلاء، فى بعض الأحيان، أغلبية إيجابية متعاونة، ويرجع هذا كله إلى نوع الوظائف الاجتماعية التى تقوم المؤسسة بأدائها. فهى إما أن تكون وظائف هدفها العقاب لذاته (العنف الذى يولد العنف والشعور بالعداوة فى نفوس النزلاء)، أو أن يكون هدفها التنشئة الاجتماعية، أى تكوين نزلائها ليصبحوا مواطنين صالحين فى المجتمع الذى سيخرجون إليه بعد انتهاء مدة إيداعهم.

وأعضاء مجتمع السجن أناس شتى، وهم فى الواقع لا يكونون مجتمعا بل تجمعا، ويرى بعض الناس أن هؤلاء هم حثالة المجتمع، ويرى آخرون أنهم أناس غير محظوظين. وهم، أولاد وقبل كل شئ، نتاج المجتمع (الخارجى) الذى ولدوا فيه وعاشوا، وأغلب الناس الذين يدخلون السجن من الكبار، والكبار من الناس هم غير الأحداث، وهم بالضرورة ذكور أو إناث قد خالفوا نصا من نصوص قانون العقوبات. ومنهم من ثبتت هذه المخالفة عليهم، وهم المجرمون الكبار. ومنهم من ينتظرون ثبوت هذه المخالفة أو عدم ثبوتها، ولا يطلق على الأخيرين صفة المجرمين حتى تثبت المخالفة.

ويلاحظ أن المجرمين الذين يعيشون فى غياهب السجون قد يكونون من ساكنى الحضر أو من ساكنى الريف أو من ساكنى الحضر المتريف، ومنهم من كانوا يحيون قبل دخول السجن حياة البداوة، ولكل من هذه المجتمعات سماتها الاجتماعية المختلفة وظروف معاشها وثقافتها.

وهم (أى نزلاء السجون)، أيضا قد ينتمون إلى الأغلبية، أو إلى طائفة معينة من الناس، ينتمون إلى طبقة معينة أو يعيشون فى المجتمع فى المجتمع كأفراد منعزلين.

ويلاحظ أيضا أن المجرمين الكبار فئات، فمنهم الفلاحون، ومنهم العمال، ومنهم التجار، ومنهم الموظفون الصغار، ومنهم الموظفون الكبار، ومنهم الطلبة.. إلخ. ويلاحظ كذلك أن المجرمين الكبار قد يكون منهم الأميسون، ومنهم من يحظون بقسط كبير أو صغير من التعليم، وقد يكون منهم المتزوجون أو غير المتزوجين أو المطلقون أو المنفصلون أو الأرامل ومنهم من له أبناء، ومنهم من ليس له أبناء.

ونجد أن المجرمين الكبار يرتكبون، كما ذكرت من قبل، أنواعا متباينة من الجرائم، فمنهم من يرتكب جرائم الاعتداء على الأموال، ومنهم من يرتكب الأعتداء على الأشخاص (كالقتل مثلا) ومنهم من يرتكب الجرائم الجنسية (وهذه الجرائم مثل جرائم الرشوة والمخدرات والتهريب من الجرائم غير المنظورة التى قد لا تصل إلى رجال الشرطة أو إلى المحاكم)، ومنهم من يرتكب جرائم أمن الدولة.. ونجد أيضا أن من المجرمين الكبار من يرتكب الجريمة لأول مرة، ومنهم من يعتاد ارتكاب الجريمة (كجريمة السرقة بأسلوب النشل مثلا).

ونجد كذلك أن المجرمين الكبار الذين يعيشون فى السجون من يعتبرون مجرمين شواذ سواء كان هذا الشذوذ جنسيا أو عقليا أو نفسيا، ومنهم ذو والعاهات الجسمية، ومنهم الذين لا عاهة لهم، ومنهم أيضا غير المعتادين على العمل المنتج ويستمرئون البطالة والتعطل.

وقد حظيت الجريمة، على تباين تعاريف مفهومها، بالاهتمام الكبير فى كل المجتمعات الإنسانية على اختلافها (وبخاصة الجرائم الخطيرة كما

ذكرت ذلك من قبل). كانت الجريمة، ومازالت، شيئا مخيفا رهيبا وضارا، ثم أصبح الاهتمام بالمجرم أيضا، واضحا بعد ذلك، لأن الجريمة ما هى إلا سلوك بشرى لا يرتكبها إلا إنسان، وأصبح من العلماء، اليوم (بل منذ الأربعينيات من القرن الحالى)، من لا يقصر اهتمامه على الجريمة والمجرم فقط، بل امتد هذا الاهتمام إلى المجنى عليه. فالجريمة يرتكبها بالضرورة مجرم (إنسان عاش فى ظروف اقتصادية اجتماعية غير مواتية فى العادة) ومعظم الجرائم التىيرتكبها مجرمون ترتكب ضد مجنى عليهم، وإذا كان المجرم إنسانا فإن المجنى عليه فى معظم الحالات إنسان كذلك.

وفى ضوء كل هذه الاهتمامات انبثق مفهوم معاملة المجرمين، وخصوصا الذين يدخلون السجون، وقد تغير هذا المفهوم على مر الأيام، وهذا شئ عادى، أى شئ متوقع و، فبرز فى أفق معاملة المجرم الدعوة إلى "تفريد العقوبة" وظهر مفهوم "الدفاع الاجتماعى" كما ظهر أيضا مفهوم "السياسة الجنائية" ثم "قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين" (انظر سيد عويس : المعجم العربى فى العلوم الاجتماعية، المركز الأقليمى العربى للبحوث، التوثيق فى العلوم الاجتماعية : مفاهيم، "تفريد العقوبة" و"الدفاع الاجتماعى" و"السياسة الجنائية" و"قواعد الحد الأدنى).

ويلاحظ أن مفهوم "التفريد" يعنى تصنيف أعضاء المجتمع أو اعضاء بعض جماعاته حسب سماتهم الشخصية (السن والنوع والديانة والمستوى التعليمى ومستوى الذكاء والمهنة والخلفية الاجتماعية مثلا).. والملاحظ أن هذه السمات تيسر التعرف على شخصيات أعضاء المجتمع أو أعضاء بعض جماعاته كلما دعت الحاجة إلى ذلك، كما تيسر معاملتهم بعضهم لبعض.

وإذا كان عضو المجتمع قد ارتكب احدى الجرائم وأدين فيها وحكم عليه بالسجن مثلا، فإن السجن كمؤسسة اجتماعية يجب أن يضع النظم الكفيلة بمعاملة المذنبين الدين يودعون فيها. وفى ضوء "تفريد العقوبة" نجد أن هذه النظم الكفيلة بمعاملة المذنبين تهتم، أول ما تهتم، لكى تكون هذه المعاملة مثمرة بتقسيمهم إلى مجموعات متجانسة ليس فقط من حيث السن والنوع و. و. و. ولكن أيضا من حيث نوع الجريمة التى ارتكبها والعوالم التى أدت إلى مخالفته للقانون (قانون العقوبات).

ومن ثم يتيسر للمسئولين أن يضعوا أفراد كل مجموعة من المذنبين فى مؤسسة مستقلة تتوافر فيها جميع الإمكانات الضرورية التى تيسر إعادة تربيتهم لكى يصبحوا مواطنين صالحين بعد إطلاق سراحهم وخروجهم إلى المجتمع.

وإذ ألخص ما سبق فإننى أقول، إن معاملة المذنب فى ضوء تفريد العقوبة يجب أن تناسب المذنب كشخص له سمات معينة، وذلك لأن هذا النوع من التفريد أجدى من أن تناسب العقوبة الجريمة التى ارتكبها.

ومفهوم "الدفاع الاجتماعى" هو مفهوم قديم ومتجدد. إننا نجد بذوره منذ القرن الثامن عشر (مارشيزد. بيكارا)، ونجد صياغته شبه المتكاملة فى خلال الفترة عقب الحرب العالمية الثانية (جراماتيكا الفقيه الإيطالى) والمستشار الفرنسى (مارك آنسل) - ومنذ ذلك التاريخ تغير معنى مفهوم الدفاع الاجتماعى ومضمونه، وهذا أمر متوقع، تغيرا ملحوظا.

وفى ضوء ما يلاحظ فى هذا المجال نجد أن أهم أغراض الدفاع الاجتماعى المتفق عليها هى :

- وقاية أعضاء المجتمع من الانحراف (أى الجريمة والجناح بخاصة).

- وقاية المجتمع من أعضائه المنحرفين (أى من المجرمين والجانحين بخاصة).

وذلك بإعادة تنشئتهم اجتماعيا ليصبحوا مواطنين أسوياء أى أن وقاية أعضاء المجتمع ووقاية المجتمع فى ضوء الغرضين السابقين تعنى :

- جعل أرتكاب الجريمة أكثر صعوبة من غير أن تكتشف.

- وجود سماحة أكثر نحو السلوك الذى لا يمكن ضبطه بالقانون.

- انغماس الشباب انغماسا فعالا فى عمليات التنمية.

- وجود قيادات أفضل وإتاحة الفرص الخلاقة للأشخاص المعرضين للجريمة والجناح (الذين فى سن الشباب بخاصة).

- وضـع ميزانيـات خاصـة للجماعـات الأكـثر خطـورة كـالمتعطلين والمتخلفيـن عـن المـدارس وصعـاب المـراس مـن المجرميـن (أى المجرميـن العدوانيين أو السيكوباتيين أو الذين يرتكبون الجرائم قهرا عنهم).

- تخطيط جنائى أفضل، وتقويم الاستثمارات المخصصة لمشروعات الدفاع الاجتماعى وبرامجها.

وإذا كان من أهم أغراض الدفاع الاجتمـاعى هـو، كمـا ذكـرت آنفـا، تخطيط جنائى أفضل، فالملاحظ أنه لا يمكن وجود تخطيط جنائى أفضـل إلا إذا توافرت بعض الشروط هى :

- وجود سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والأهداف.

- إجراء بحوث ودراسات علمية عديدة فى محيط الجريمة والجناح.

- تعاون المخططين الجنائيين والباحثين العلميين فى ميدان الجريمـة والجناح والعاملين فى ميادين الجريمة والجناح فضلا عن الجماهير.

والملاحظ أنه لن توجـد سياسـة جنائيـة واضحـة المعـالم والأغـراض والأهـداف، إلا إذا وجـدت سياسـة اجتماعيــة واضحــة المعـالم والأغـراض والأهداف، ولن يتم وضع هـذه السياسـة إلا فـى ضـوء أيديولوجيـة المجتمـع. ناميا كان أوغير نام، أى أن هذه السياسة يجب أن تسترشد بقيم هذا المجتمـع وتقاليده وعاداته ومثله العليا.

والملاحظ أيضا أن وجود سياسة جنائية واضحة المعـالم والأغـراض والأهداف ييسر وضوح الرؤية أمام المخططين الجنـائيين والبـاحين العلميين فى ميدان الجريمة والجناح، والعاملين الآخرين فى ميادين الجريمـة والجنـاح فضـلا عن جماهير المجتمع على اختلاف فئاتهم ومكانتهم الاجتماعية وثقافتهم. وأن تيسير وضوح الرؤية يعنى العمل الجاد وتحقيق الأهداف بأقل التكاليف.

ووجود سياسة جنائية واضحة المعالم والأغـراض والأهداف يرتكـز علـى أنـواع موضوعـات الدراسـات والبحـوث العلميـة فـى محيـط الجريمـة والجناح. ولكى تفى هذه الموضوعات بتحقيق أهداف السياسة الجنائيـة يجب أن تكـون عديـدة ومتنوعـة ومتناسـبة. أى تتنـاول علـى سـبيل المثـال حجـم

الجريمة والجناح وأنماطها (ومنها الأنماط غير المنظورة) واتجاهاتهما وعوامل وجودهما وبخاصة أنماطهما غير المنظورة، كما تتناول مناطق الجريمة والجناح كمظهر من مظاهر النمو الحضرى، فضلا عن البحوث والدراسات التقويمية والتتبعية وأحكام السجن للمجرمين أول مرة، وآثار إعادة الدخل القومى وتكافؤ الفرص على زيادة أو نقص معدلات الجريمة والجناح فى المجتمع. ولعل البحوث والدراسات عن خطورة الجريمة والجناح تكون ضرورية سواء أكانت مجالاتهما تعنى بهذه الخطورة من وجهة نظر الجماهير أم من وجهة نظر المشرعين.

أما موضوع "قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين" فإننا فى ضوء حقائق التاريخ نجد أن هذه القواعد قد أنشئت فى عام ١٩٢٩ ونوقشت فى المؤتمر الدولى الأول للأمم المتحدة الذى أقرها فى عام ١٩٥٥ ثم اعتمدها المجلس الاقتصادى الاجتماعى لمنظمة الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٧. ومن ثم أصبحت بذلك ميثاقا دوليا أجمعت الدول الأعضاء على تطبيق نصوصه وأحكامه.

وتعنى قواعد الحد الأدنى بالاهتمام بمعاملة المسجونين من حيث عدم النزول بمستوى هذه المعاملة وتنظيم وإدارة مؤسساتهم إلى ما هو من المستوى الذى حددته هذه القواعد، ويعتبر هذا النزول ليس فقط خروجا على المبادئ الأولية لعلم العقاب الحديث وأمرا لا يقره رجال الاصلاح المعاصرون فحسب، ولكنه يعتبر بالمثل امتهانا صريحا لكرام الإنسان واعتداء صارخا على حقوقه الأساسية التى كفلها له ميثاق الأمم المتحدة.

وتتضمن قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين ٩٤ قاعدة، منها ما يتعلق ببعض الملاحظات الأولية؛ والقواعد العامة المتعلقة بالتطبيق من حيث المبدأ الأساسى الذى تطبق فى ضوئه هذه القواعد بدون تحيز، ومن حيث السجلات الخاصة بالسجن وأبنيته، ومن حيث الصحة الشخصية والكساء والفراش والتغذية والرياضة البدنية والخدمات الطبية والنظام والتأديب وأدوات والإكراه ومن حيث إخطار المسجونين بالتعليمات وحقهم فى الشكوى والاتصال بالعالم الخارجى، ومن حيث الكتب، ومن حيث أداء الفرائض الدينية، ومن حيث متعلقات المسجونين والاحتفاظ بها، ومن حيث

التبليغ عن الوفاة والمرض والنقل، ومن حيث موضوع النقل نفسه والحالة التى يتم بها، ومن حيث موظفو المؤسسات (اختيارهم وتدريبهم مثلا).

وقد اهتمت القواعد بتطبيقها على طوائف خاصة من المسجونين المحكوم عليهم بعقوبة وذلك بالنسبة للمبادئ الموجهة، ومن حيث معاملتهم وعلاجهم وتقسيم وتفريد معاملتهم وعلاجهم، ومن حيث الامتيازات التى تمنح تشجيعا لسلوك المسجونين الحميد، ومن حيث العمل وبعده عن أن يكون وسيلة للتعذيب، ومن حيث التعليم والترويح والصلات الاجتماعية والرعاية اللاحقة.

أما بالنسبة للمسجونين المصابين بالجنون (أو بالشذوذ العقلى) فقد كانوا موضع اهتمام القواعد، وكذلك الأشخاص المقبوض عليهم أو المحبوسين احتياطيا، واهتمت القواعد بالمسجونين المحكوم عليهم بسبب دين أو بالحبس المدنى.

وقبل أن أختم الموضوع الحالى أرجو أن يسمح لى القارئ الكريم بأن أذكر له تجربة واجهتها عندما كنت فى مدينة "نيش" وانا أزور "يوغسلافيا" فى خلال الفترة من يوم ٦ من شهر نوفمبر عام ١٩٦٣ إلى يوم ٦ من شهر فبراير عام ١٩٦٤، حيث يسرت لى هيئة الأمم المتحدة هذه الزيارة، إذ منحتنى "منحة الزمالة" لتتاح لى فرصة الاطلاع على الدراسات الاجتماعية والجنائية التى تقوم بها الهيئات المتخصصة فى المجتمع اليوغسلافى فى ذلك الحين.

ولاحظت أن المجتمع اليوغسلافى أو المسئولين عنه يرون أن المسجونين آدميون لكل واحد منهم طاقة بشرية، وهم أقصد المسجونين، كمجموعة، عبارة عن طاقة بشرية هائلة لا يجوز أن تضيع هباء، ولا يمكن أن تترك لتتبدد، وأن العمل الإنسانى هو طقس من الطقوس فى هذا المجتمع، وهو واجب وحق لكل عضو من أعضائه، والمسجونون مهما كانت ظروفهم فهم بعض أعضاء هذا المجتمع، ومعاملتهم يجب أن يكون أهم أهدافها القيام بعملية تنشئتهم اجتماعيا، والعمل، وحده كفيل بذلك، أى أن العمل هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه العملية، فإذا أعطى المسجون الفرصة ليعمل

العمل المناسب وينتج، استرد كرامته، وسترد ثقته في نفسه، وأحس بكيانه الإنساني، وأصبح مواطنا صالحا.

وقد لاحظت أن المسجونين في المجتمع اليوغسلافي يعطون فرصة العمل المنتج مهما كانت صور جرائمهم ومهما اختلفت مكانتهم الاجتماعية ومهما تباينت أعمارهم، وهم يتعلمون ويتدرجون في التعليم حتى يتخرج منهم العمال المهرة وغير المهرة : كل حسب قدراته وحسب مدة سجنه. ولا يقف مستوى التعليم في السجون اليوغسلافية عند حد. ولعل هذا المستوى يصل إلى مستوى الجامعات والمعاهد العليا، وأهم مجالات العمل في السجون المصانع، وهي مصانع حديثة إذا دخلت في أحدها تجده مصنعا عاديا مثله مثل أي مصنع في خارج السجن، وتجد القتلة والمزيفين والمزورين وغيرهم من المسجونين يعلمون كل حسب دوره. ولا يمكن أن تميزهم عن العمال العاديين وربما كان الكثير منهم من الأميين أو من أهل الريف قبل التحاقهم بالسجن، وانظر إليهم وهم يديرون الآلات الدقيقة، وانظر إلى وجوههم، وانظر إلى نظرات عيونهم تجد الإصرار والعزيمة والجد وملامح الثقة بالنفس والأمل، كما تجد صورا زاهية من الانتصار.

وظروف العمل في السجون هي نفس ظروف العمل في خارجها. فالمسجونون يحصلون على الأجور، كل حسب عمله، كما يحصلون على مكافآت تشجيعية مرتين او ثلاث مرات في العام الواحد، وهم وإن كانوا لا يتمتعونه بعضوية النقابات فإن قواعد ونظم النقابات تطبق عليهم، والضمان الاجتماعي يشمل كل المسجونين العاملين، أيام العمل ستة أيام وهي نفس عدد أيام العمل في خارج السجن (في المجتمع اليوغسلافي في ذلك الحين)، ويتمتع المسجونون بالأجازات الرسمية أسوة بغيرهم، وهم إن عملوا في أيام الأجازات الرسمية يحصلون على أجورهم كاملة.

ولا تصرف الأجور كلها للمسجونين. فجزء منها يوفر للمسجونين وجزء آخر يرسل إلى أسر المسجونين وجزء ثالث يصرف للمسجون يشترى به ما يشبع به حاجاته الأساسية وغير الأساسية من "كانتين" السجن، وقد لاحظت أن هذا الكانتين مملوء بالسلع الاستهلاكية من المأكولات والمشروبات وغير ذلك، ولا يعرض الكانتين الخمور بأنواعها للبيع.

وفى ضوء الشعار القائل، إن العمل شرط الوجود الإنسانى، نجد أن المسجون لا يعطى أى عمل اعتباطا. فالسجن مزود بالمتخصصين فى العلوم الإنسانية، ومنهم من يستقبلون المساجين فى مركز خاص ملحق بالسجن لدراسة كل مسجون اجتماعيا وطبيا ونفسيا وعقليا، ويقوم بهذه الدراسات، عن وعى مهنى، الإخصائيون الاجتماعيون والتربويون والأطباء والأخصائيون النفسيون والأطباء النفسيون. وفى ضوء الدراسة يوجه كل مسجون إلى المهنة التى تتناسب مع شخصيته وقدراته وخبراته. فالمسجونون، هم أولا وقبل كل شئ، آدميون، لكل واحد منهم، كما سبق أن ذكرت، طاقة بشرية، وهم كمجموعة عبارة عن طاقة بشرية هائلة لا يجوز أن تضيع هباء ولا يمكن أن تترك لتتبدد.

والملاحظ أن المصانع التى يعمل بها المسجونون تكون جزءا من مصانع الدولة، أى إن إنتاج هذه المصانع يكون جزءا من الإنتاج القومى.

وقد وجدت وأنا أزور سجن نيش أنه يضم نحو ١٥٠٠ مسجون، وكلهم من المحكوم عليهم بثلاث سنوات أو أكثر. ويعمل نحو الألف منهم فى مصانع السجن ويصنعون "السخانات والأفران الكهربائية والموازين الدقيقة والبانيوهات وقطع الأثاثات.. إلخ" ويصدر معظم هذه المصنوعات إلى الخارج وتحصل الدولة عن طريق ذلك على العملات الأجنبية.

وهذا السجن وغيره تجده يحصل من بيع مصنوعاته العديدة التى يطلبها السوق الأجنبى على الأرباح سنويا، وتوزع هذه الأرباح وفقا لنظام معين بنسب معينة على الميزانية والاحتياطى ورأس المال والأعمال الجديدة والبرنامج الثقافى والمساعدات.

ويتبرع سجن نيش من أرباحه سنويا بجزء من أرباحه على مؤسسات رعاية الأحداث والشباب فى المدينة. أى أن سجن نيش، ومؤسسة اجتماعية هدفها الدول معالجة الجريمة بصورها المتعددة فى محيط الكبار، يقوم بدوره، عن وعى، فى ميدان الوقاية من الجريمة وفى ميدان التنمية الاجتماعية، فى محيط الأحداث وفى محيط الشباب، فى أن سجن نيش، كمؤسسة اجتماعية، يحس إحساسا واعيا بالمسائل الاجتماعية المتعلقة بالسلوك البشرى، السوى وغير لسوى، فى المجتمع الذى يحيط به، ويسهم

إسهاما واعيا فى مواجهة هذه المسائل. أى أنه يعيش واقعه، فى ميدان تخصصه الواسع، ويرفض العزلة والسلبية، ويؤمن بالتفاعل الاجتماعى من مجتمعه (انظر كتاب سيد عويس : "مذكرات يوغسلافية"، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، صفحات ٨٧ - ٩٤)

وأننى أعترف للقارئ الكريم بعجزى عن القيام بالمقارنة بين السجون فى مصرنا الخالدة والسجون التى ذكرت عن بعضها شيئا. فالملاحظ أن تقارير مصلحة السجون على الرغم من أنها تتضمن إحصاءات، فهى لا تشفى غليل الباحث الجاد. فعدد السجون بالجمهورية أصبح ٢٦ سجنا بما فيها ما يسمى "سجن ك (٢) ٩٧ والسجن العسكرى، وعدد المسجونين فى أوائل عقد الثمانينيات فى يوم ٣١ ديسمبر حوالى ٢٥٠٠٠ مسجون منهم نحو ٣٢٪ من النساء ويجب ألا ننسى نزلاء المعتقلات وعددهم غير معروف.

طاقة بشرية هائلة أليس من الممكن أن تكون فى ضوء بحث حالة كل مسجون اجتماعيا وطبيا ونفسيا وعقليا وطبيا أن يكونوا من المنتجين الذين يرفعون شعار الإنتاج وهو شعار الدولة فى الوقت الراهن ؟ إن ما يقومون به يعتبر ليس فقط خسارة بشرية بل خسارة مالية كذلك.

وفى ضوء خبرتى عندما كنت "عضوا فى المجلس الأعلى للسجون" كنا أقصد أعضاء المجلس ورئيسه نجتمع ثم ننفض ولا نقرر شيئا رشيدا كان ذلك فى خلال عامى ٧٣ - ١٩٧٤، وكان جدول الأعمال يهتم بتطبيق التشريعات الخاصة بالمعاملة الناجحة للمسجونين، ولكن لا تطبيق يحدث وبخاصة ما تعلق منها بـ "قواعد الحد الأدنى" التى سبق أن ذكرتها وكنت أتحدث عن سجن نيش فى دولة يوغسلافيا وما يقوم به نزلاؤه من أعمال تدر الأرباح التى تيسر الحصول على العملات الأجنبية والتى تسهم أيضا ليس فقط فى معالجة النزلاء معالجة علمية ولكن فى وقاية أحداث وشباب المجتمع الخارجى وفى بعض الأحيان فيما يحدث فإنه حوادث أو كوارث فيه (كإعادة بناء مدينة "سكوبيا" التى أصيبت فى صيف عام ١٩٦٣).

وإذا كان من الواجب ألا ننسى نزلاء المعتقلات فإنه من الوجب أن نذكر نزلاء "تخشيبات" أقسام الشرطة التى تشهد كما يقول الأستاذ ("مصطفى

طيبة" فى كتابه "رسائل مسجون سياسى إلى حبيبته، الجزء الأول"، بغداد، دار العربى للنشر والتوزيع، عام ١٩٧٧ صفحة رقم ٢٦).

"تشاطا كبيرا وأعداد من رجال الشرطة الذين يحملون القيود الحديدية التى توضع فى المعصمين فى أيدى الخطرين، أو جنزيرا طويلا يربطون به عددا من المتهمين "غير الخطرين"، ومع إشراقة صباح كل يوم عندما يسمع نزلاء التخشيبة صوت القيود والسلاسل الحديد مختلطة بأصوات رجال الشرطة تنادى عليهم يستعدون جميعا للرحيل.."

وفى ضوء ما نشر من مؤلفات بعد إطلاق المعتقلين من الإخوان المسلمين فى عام ١٩٧١، ما يدل على ألوان العنف الذى لم يحقق إلا إهدار كرامتهم، ويكفى أن نطالع عناوين بعض هذه المؤلفات لنؤكد هذه النتيجة، ومن هذه العناوين نجد مثلا :

- فى الزنزانة (على جريشة عام ١٩٧٥)

- المذبحة : فى الذكرى العشرين التى تعرض لها الإخوان المسلمون بليمان يوم السبت ١٩٥٧/٦/١ (مصطفى المصيلحى، عام ١٩٧٧).

- الأسرار الحقيقية لاغتيال حسن البنا، (جابر رزق، عام ١٩٧٨).

- يوميات الشهيد محمد يوسف هواش : مجزرة القرن العشرين (محمد روسف هواش عام ١٩٧٨).

- من المذبحة إلى ساحة الدعوة (عباس السيسى، عام ١٩٧٨).

- عشت هول المذبحة : أقسمت أن أروى (روكس مكرون، عام ١٩٧٨).

- مذبحة الإخوان فى ليمان طرة (جابر رزق، عام ١٩٧٩).

- خواطر مسجون : ديوان أزجال (سعد سرور كامل، عام ١٩٧٩).

- قال الناس ولم أقل فى حكم عبد الناصر (عمر التلمسانى، عام ١٩٨٠).

هذا بعض ما نشرته المطابع الذى صادفنى وصادفته. ومالم ينشر ربما كان أكثر، ومهما قيل فى قيمة المادة التى تضمنتها هذه المؤلفات المنشورة، فإن تأثيرها على قرائها من أبناء وبنات من تناولهم وواجهوا العذاب والتعذيب أو من أقاربهم المقربين وغير المقربين أو من الغرباء، تأثير لا جدال فيه، ولن يكون تأثيرا حسنا ابدا وبخاصة على من عاش منهم الخبرة المريرة عندما كان المعتقلون مازالوا فى المعتقلات وعندما رأوا الأحياء منهم بعد إطلاق سراحهم. فقد مات قبل صدور الأمر بإطلاق السراح من هؤلاء المعتقلين من مات، وتضمنت سجلات مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية منهم أسماء العشرات (انظر : سيد عويس، "دراسة : عن العوامل التى أدت إلى ظهور الجماعات الدينية المتطرفة، المركز الإقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية فى عام ١٩٨٢).

وقد كان من حظى العلمى أن تناولت الدراسة العلمية عن "ظاهرة التسول وحياة المتسولين فى مدينة الإسكندرية". وقد أجرى هذه الدراسة الأستاذ محمود إبراهيم حسين للحصول على درجة الماجستير قسم الانثروبولوجيا - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٨٣، وقد أشرف على هذه الرسالة المغفور له أستاذ جليل فى العلوم الاجتماعية والانثروبولجية - الأستاذ الدكتور على أحمد عيسى، وكان تناولى لموضوع هذه الرسالة بوصفى ناقدا حتى يتاح للتقرير الذى أضعه عنها لكى ينشر فى المجلة الجنائية القومية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (انظر : سيد عويس، المجلة الجنائية القومية، م ٢٨، ع ٢، يوليو عام ١٩٨٥).

وكان من النتائج الهامة التى وصل إليها الباحث عن طريق دراسته الميدانية ما يلى :

- أن العاهات التى ينتحلها بعض المتسولين قد انقرضت وحلت محلها العاهات المصطنعة.

- وجود نظام سرى فى داخل جماعات المتسولين الذين عايشهم وتقمص شخصية واحد منهم سواء كان يمتهن التسول فى شوارع مدينة الإسكندرية وبعض مناطقها أو عندما كان أحد نزلاء "ملجأ الهداية" يعيش فيه

كنزيل من نزلائه ليلا ونهارا فترة غير قصيرة (استطاع الباحث القيام بهذا الدور لضعف نظره الشديد ولأنه كان يضع على عينيه نظارة سوداء).

- إن مؤسسات الإيداع سواء أكانت تستقبل الأحداث المتسولين أم البالغين المتسولين، لا تؤدى أدوارها التربوية بل على العكس تكسب نزلاءها وبخاصة الأحداث منهم أنماطا إجرامية جديدة.

إن المتسولين يتخذون من "الملجأ" الذى يودعون فيه "الوكاندة" ويجعلون منهم وكرا للجريمة بأنماطها أو يتخذونه سوقا تجاريا لتحقيق المكاسب المادية حيث يعرضون فيها شتى السلع ومنها المخدرات بأنواعها وما سيصنعونه من أنواع الخمور وغيرها من السلع التى قد يحتاجها بعض النزلاء غير القادرين على الخروج لعجزهم عن ذلك بسبب العاهات الجسمية التى تعوق حركتهم. ويحصل الأخرون على السلع التى يحتاجون إليها نظير الثمن الذى يفرض عليهم فرضا، والذى يدفعونه من النقود التى فى حوزتهم التى تكون قد وصلت إليهم من الأقارب أو من المحسنين الذين يأتون إلى الملجأ فى المواسم والأعياد من أجل ذلك.

وكنت حين أقرأ الرسالة المذكورة أتذكر روايات "شارلز ديكنز" وبخاصة رواية "اوليفرتوست" التى قرأتها وشاهدت فيلما عنها، وكأن ملاجئ مصرنا الخالدة فى العصر الحالى، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، هى صورة تكاد أن تكون طبق الأصل من ملاجئ البلاد الإنجليزية فى خلال القرن التاسع عشر وما قبله.

10-الحرب العالمية الثانية وآثارها :-

حالة الحرب هى ذروة الشعور بالعداوة، والملاحظ أن الحرب بين الدول هى ظاهرة إنسانية يعرفها الناس جميعا على مر الزمان، كما يعرفونها فى كل بقاع العالم المعاصر، وهى شر مستطير تعانى منه الإنسانية ولا تزال، والحرب أنواع ويمكن أن نقسمها إلى نوعين رئيسيين، النوع الأول :

"هو الحرب التى تهدف إلى الاستعمار والاستغلال، استغلال الإنسان لأخيه الإنسان".؟

أما النوع الثاني :

"فهو الحرب التى تهدف إلى الدفاع عن النفس وإقرار السلام القائم على العدل"

والنوعان يتضمنان نوعين من الشعور بالعداوة الإنساني الجماعي. أحدها الشعور بالعداوة غير المشروع، وهو الشعور الذى يدعمه الحقد والبغض والاستغلال والجشع. وهذا الشعور يولد مافي ذلك شك.. النوع الثاني أى الشعور بالعداوة المشروع الذى يهدف إلى إقرار الحق وإقرار السلام القائم على العدل ويمثل إرادة الحياة الفاضلة فى مجتمعنا الإنساني.

ومهما يكن من الأمر بالحرب كذروة من ذرا الشعور بالعداوة الإنساني الجماعي : الحرب التى تهدف إلى الاستعمار والاستغلال، لا يقرها إنسان عاقل، ولا تسلمك بوجودها، بالضرورة المبادئ الإنسانية : مبادئ العدالة والإنصاف : مبادئ السلام القائم على العدل، وهى شر مستطير إذا لاحظنا بعض آثارها المعنوية السلبية. كسيادة قوانين الغاب أو محاولة ذلك، وهى شر مستطير لاحظنا بعض آثارها المدمرة، ولعل الحرب العالمية الثانية تكون مثلا واضحا على ذلك.

وقبل أن اتحدث عن الحرب العالمية الثانية، أرجو أن يسمح لى القارئ الكريم أن أذكر شيئا عن انطباعاتى وبعض الحقائق عن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨). فقد اندلعت هذه الحرب وكنت فى السنة الأولى من حياتى، لا أدرى عنها شيئا كثيرات أو قليلا. ولكننا نلاحظ فى المجتمع المصرى وفى بعض المجتمعات الأخرى أنه قد يموت الإنسان فى فراشه فيسأل الناس عن السبب، ويموت الإنسان فى ساحة الحرب فيقولون : قضاء وقدرا، ويموت الإنسان فى ساحة الحرب فيقولون : شهيدا يستحق الجنة، ويموت الإنسان مناضلا عن عقيدة أو قيمة ذات هدف حميد أو مبدأ فيقولون : شهيد يستحق الخلود، ويموت الإنسان إذا قتله آخر فيمسكون بتلابيب القاتل ويقتصون منه وقد يقتلونه فى بعض الأحيان، وقد لا يقتلونه أبدا، بل قد يكرمونه.

فالقاتل الذى ينفذ حكم الإعدام موظف مسئول يأخذ مرتبا، والقاتل الذى يقتل الجاسوس الذى يعمل ضد بلده تنهال عليه المكافآت من دولته، والقاتل الذى يمارس القتل الجماعى فى أثناء الحرب بأن يقذف بالقنابل المدمرة بأنواعها على مدن العدو وقراه الآمنة ويقتل الرجال والنساء والأطفال ينال الأوسمة والنياشين.

والأغلبية الساحقة من قتلى الإنسانية فى الحروب لا يخفون على أحد، سواء أكانوا من القتلى العسكريين أو من القتلى المدنيين، وكل جانب يدعى استشهاد قتلاه ! الظالم يفعل ذلك والمظلوم يفعل ذلك على السواء، وتغرق الإنسانية فى الدماء والخراب والتدمير فى ظل بعض الشعارات التى يشترك فى رفعها الظالم والمظلوم معا ! واتباع كل تائهون مبلبلون متعصبون ! ويترك كل لحكم التاريخ ينصف من ينصف ويدين من يدين ويستخلص العبرة والدرس، ومع ذلك فإن عدد الضحايا بمرور الوقت يتضاعف والتفنن فى القتل والتقتيل يزداد وحشية.

وإذا كنت طفلا صغيرا عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، فقد استطعت عندما شببت عن طوق ثقافيا أن أطلع على "الموسوعة البريطانية، مجلد رقم ٢٣، عام ١٩٦٨" فهالنى ما قرأته من ارقام عن القتلى من الجنود (كانوا عشرة ملايين جندى)، وعدد القتلى من المدنيين (كانوا عشرة ملايين مدنى أيضا)، أما عدد الجرحى، كنتيجة مباشرة لهذه الحرب، فقد كان عشرين مليونا، وفضلا عن ذلك فإننا نجد أن عدد الموتى بسبب الأوبئة والمجاعات التى انتشرت فى خلال هذه الحرب كان عشرين مليونا! .

وقد هالنى الدمار الذى لحق بالبشرية فى هذه الحرب، وعندما علمت عما لحق بالعالم فى الحرب العالمية الثانية التى عشت أيامها منذ ان اندلعت فى عام ١٩٣٩ وانتهت فى عام ١٩٤٥، وجدت أن الأعداد قد تضاعفت، وذلك للتقدم الهائل فى أساليب الدمار والعنف والقسوة الذى حققته الدول واتساع رقعة هذه الحرب التى شملت القارات التى كان، ومازال، يعيش فيها بنو البشر.

لقد سجل التاريخ عن الحرب العالمية الثانية الشئ الكثيرعن الجيوش التى لم يكن لها نظير، والقوات المسلحة التى لم يسبق بها وجود التى عبثت

فـى الـبر وفـى البحـر وفـى الجـو، وقـد سـجل التـاريخ عن القوة الصنـاعيـة الضخمة التى استخدمت فى هذه الحرب. هذه القوة التى لم تستخدم فى حـرب قبل ذلك. كانت هذه الحرب أعظم الصراعات التى سجلها التاريخ منذ ٧٠٠٠ عام، أى منذ أن بدأ الإنسان يسجل تـاريخ البشـرية. لقد كـانت أقدار سـبعين دولة فى هذه الحرب فى خطر، كما كان مصير نحو ٢٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مـن أعضاء البشر فيها فى خطر كذلك. لقد مس لهيب هذه الحرب العاتيـة بـلادا تكـون أكـثر مـن ثلاثـة أربـاع السكان فـى العـالم. وقـد اشـترك فـى القـوات المحاربة نحو ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مـن البشـر، أى شـخص واحـد مـن كـل ٢٠ شخصا من سكان الكرة الرضية. أن سجل القتلى والجرحى فى هذه الحـرب سجل رهيب،وإيضاح مفجع لحضارتنا، فقد تبين من الإحصاءات الرسمية أن ضحايا هـذه الحـرب مـن القتلـى أكـثر مـن ٢٠,٠٠٠,٠٠ قتيـل، وأن نحـو ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفال قد شـردوا مـن ديـارهم، وأن نحو ١٠,٠٠٠,٠٠٠ من هؤلاء قد عذبوا وذبحـوا، وأن مئـات الآلـوف مـن المساكن قد دمرت وصارت خرايا.

وقد قدر البعض لتكاليف الحرب العالمية الثانية ثمنـا، أقصـد تكـاليف مـا دمـرت واتلفـت وتسـببت فـى خسـائر اقتصاديـة، وكـان هـذا التقديـر نحـو ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولا أمريكى. وقد شمل الدمـار والخـراب ثـروات العالم العظيمة ومـوارده الماليـة والصناعيـة وطاقاتـه وقدراتـه البشـرية علـى السواء، وتراكمت على الدول الديون، وهى ديون تزيد فى جملتها على جميع الأموال التى كانت موجودة فى العـالم فـى ذلـك الحيـن، وقـد تركـت للأجيـال التالية، بالضرورة، تبعة سداد هذه الديون.

والملاحظ أن الأموال الكبيرة التى التهمتهـا الحـرب العالميـة الثانيـة، وحدها، كانت تكفى لبناء مسكن لكل أسرة فـى العـالم، أو كـانت تكفـى لتعليم كل طفل على وجه الأرض. ومقادير هذه الأموال أعظم من كل الأموال التى أنفقت فعلا على المدارس والمعابد والمستشفيات منذ أن وجدت البشرية على كوكب الأرض.

وإذا اعتبرنا الحرب العالمية الثانيـة أول وأعظـم حـرب جويـة. فهـى أيضا أول وأعظم حرب جندت لها القوات المسلحةفى البر والبحـر، إنهـا فـى

الواقـع "حـرب العلمـاء" أسـهمت فيهـا بقسـط وافـر المخترعـات والاكتشـافات والعبقرية الإنسانية الآلية والإنتاج الكبير، ومن خلال عصـر الراديو الجديد والتسلط على الزمان والمكان أصبح العالم كله فى هذه الحرب متصلاً بعضه ببعض اتصالا وثيقا، ومن خلال التصوير القتَال والمعارك أن تدخـل البيـوت فى التو واللحظة. إن الحرب العالمية الثانية قد مرت حوادثها أما أعين الذيـن عاشوها على الستار الفضى، وقد حفظـت أفـلام هـذه الحـوادث لتراهـا أعيـن الذين سيأتون من بعدها من الأجيـال القادمـة. وكلهـا تنطـق بالرهبـة والعنـف والقسوة والدمار (انظر كتاب :

Histry of world II , conada,:(m, Francis Trevelgan
.VI)- V. p. 1945, p.Toronto, Dominion Book and Bible

وإننى لا أجادل فى المكانة الرفيعة للعلم والعلماء فى الحروب الحديثة، ولكـن يجب أن نلاحظ إنه كان العلم يدمر العدو، فإنه يحمى، أيضـا، مـن يقـاتل هـذا العدو، وليس بالضرورة أن يكون هذا العدو الإنسان فحسب فقد يكون فيروسا أوميكروبا أو أثرا من آثار الطبيعة العاتية، وإذا كان العلم يسـتخدم فـى وقـت الحرب كسلاح رهيب فتاك، فإن بعـض آثـاره التـى وصـل إليهـا العلمـاء فـى أثنـاء الحـرب تنقذ الأرواح فـى وقـت السـلام، وإذا كـان معظـم العلمـاء فــى المجتمع الراسمالى الاحتكارى يكدحون فى سـبيل حفنـة مـن النـاس، يمـلأون جيوبهـم بالأربـاح الوفيرة، فـإن كـل العلمـاء فـى المجتمـع الذيـن ينــاصرون الكـادحين يعملـون مخلصيـن فـى سـبيل كـل النـاس. فبـالعلم يوضـع الأســاس الإنسانى الاقتصادى الثقافى. لتزدهر فضـائل الإنسـان، وروحانيـة الإنسـان، وذلك لأن إنسانية الإنسان تؤمن بـأن الجـائع أو الجـاهل أو العـاطل أو القلـق عاديا أو حتى مرضيا، لن يستطيع أن يفكـر ويتـأمل ويعبـد اللـه، عـن رضـا وإيمان لا عن خوف أو عن ذل وحاجة (انظر كتاب : سـيد عويـس، الخدمـة الاجتماعية ودورها القيادى فى مجتمعنا المعاصر، دار المعارف بمصر، عام ١٩٦٦، صفحتا ١٩ - ٢٠).

وإذا كنـا نبغـض الحـروب فحـرى بنـا أن ألا نرضـى أبـدا ان يسـود قـانون الغـاب، وإذا كـانت الحـروب الاسـتغلالية، وعلـى رأسـها الحـروب

الامبرالية، بآثارها المعنوية وآثارها المادية شرا مستطيرا، فإن السكوت على الحقد والكراهية والجشع والاستغلال التى تمدها بالوقود أكثر شرا. إن الحروب تحمل عادة فى طياتها التوترات الاجتماعية الرهيبة، ولكن هذه التوترات ليست فى ذاتها أشياء سيئة، وذلك لأن بعض هذه التوترات قد يخدم التقدم البشرى، وقد يساعد البناء الاجتماعى حتى لو تطلب ذلك تقديم التضحيات ! فالحروب المشروعة، أى تلك التى تشتعل للدفاع عن النفس وللدفاع عن الوجود الإنسانى : الحروب التى تهدف إلى إقرار الحق وإقرار السلام القائم على العدل (كحروب السود وهم الأغلبية ضد البيض وهم الأقلية فى جنوب أفريقيا والفلسطينين ضد اليهود فى الشرق الأوسط مثلا). إن هذه الحروب وما تحمل فى طياتها من توترات تخدم التقدم البشرى وتساعد على تحرير إنسان، وفضلا عن ذلك فإنها تمحو من الواقع الحى المؤلم استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وعلى العكس من ذلك فإن الحروب الاستغلالية، وعلى راسها الحروب الامبريالية تهدف إلى تحقيق بعض صور العبودية. ومن الواجب على كل محب للإنسان لكى يحيا حياة الأمن والأمان أن يدين جميع أشكال العبودية، كما يدين كل الحروب الامبريالية، القديمة منها والمعاصرة تعنى تقسيم وجه الأرض بين الدول الكبيرة واحتكاراتها، وذلك للحصول على أكبر ربح من العمل، العمل الرخيص لشعوب البلاد النامية (المستعمرات بمعناها الحديث). أى البلاد التى أصبحت أماكن للنهب الحر وبيع البضائع بأسعار خيالية، فضلا عن أنها الأماكن التى تربح فيها الاستثمارات الرأسمالية أكثر مما تربح فى موطنها الأصلى، ومن ثم تزداد الديون على مر الزمان وهذه الحالة تؤكد التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية جميعا.

وإننى كمصرى أعيش فى بلد عريق وأصيل أدعو دعوة صريحة إلى رفض هذه الألوان من الاستغلال. إن أعضاء المجتمع المصرى المعاصر يجب ان يحاربوا هذه الحروب الخفية بكل طاقاتهم، بشرف وأمانة، وبعزة وإرادة هى إرادة الحياة الفاضلة فى هذا المجتمع.

وإننى أرجو أن ألا يتهمنى أحد من أبناء وطنى العزيز بالمثالية، وذلك لأن القضاء على الامبريالية، الاستعمار الحديث، وعلى أذنابه فى

الداخل والخارج يعنى القضاء على التوترات الخطيرة الحالية التى تكلف الشعوب الحرة المناضلة فى سبيل الحق وفى سبيل السلام القائم على العدل الشئ الكثير.

ولعل الشعوب الحرة، ومنها شعبنا المصرى المجيد، أن تعلم جيدا أن النضال فى سبيل هذه الأهداف الإنسانية. سيستمر حتما إلى حين، ومهما يكن من الأمر فهو نضال شريف وإنسانى وأهدافه نبيلة. بعكس ما يهدف إليه أعداء السلام العادل الذين يرون :

"أن حضارتنا يجب أن تبنى حتما على جبال من الجثث، وعلى محيطات من الدموع، وعلى حشرجات الموت لأعداد لا تحصى من الناس".

كل ذلك فى سبيل تحقيق أطماعهم وجشعهم، وفى سبيل فرض الألوان العديدة من الاستغلال (انظر كتاب : سيد عويس، محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٨، صفحتا ٦٨ - ٩٦).

ومهما يكن من الأمر فإن قوة أعداء السلام القائم على العدل لن تشيع الخوف فى نفوسنا وذلك فإنه لا حاجة لنا إلى هذا الخوف. فإن كل ما نحتاجه هو معرفة الوسائل للتغلب عليهم،وفى ضوء حقائق التاريخ منذ الزمن القديم وحتى الآن سننتصر، حتما، حتى يصنع أعضاء الشعب المصرى العظيم : حياة السلام العادل والسلام الروحى.

وأود أن اؤكد هنا ماذكره "قداسة الباب بول السادس" فى رسالته التى تفضل بإلقائها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى أول شهر يناير عام ١٩٧٨ :

"يجب أن يسود السلام فالسلام ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا"

11-بعض المؤامرات السياسية.

أود أن أصارح القارئ الكريم أن الفضل كل الفضل فى إننى أتجاسر وأكتب فى هذ الموضوع يرجع إلى المؤرخ الكبير "محمد عبد الله عنان"

كنت أقرأ مقالاته الرائعة فى "مجلة الرسالة" التى كان يصدرها الأستاذ الكبير "أحمد حسن الزيات"، فضلا عن مقالاته الثرية فى جريدة "السياسة الأسبوعية" التى كان يرأس تحريرها الأستاذ الكبير "محمد حسين هيكل" ومقالاته التى لا تبارى التى كان يكتبها فى مجلة "الثقافة" التى كان يرأس تحريرها الأستاذ الكبير "أحمد أمين".

فمنذ أن كنت شابا وأنا أقرأ فى هذه الينابيع من الثقافة الرفيعة وأحاول أن استوعب ما فى مقالاتها من أفكار وأتمثلها. وكنت أنجح فى معظم الأحيان، ولما تفضل المغفور له الأستاذ محمد عبد الله عنان وجمع معظم مقالاته التى كتبها سواء فى هذه المناهل العذبة أو فى غيرها من كتب، وكان من حظى أن اشترى معظم هذه الكتب، وبدأت بكتاب "الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مارس عام ١٩٣٧" وكتاب "تراجم إسلامية : شرقية وأندلسية، يناير عام ١٩٤٧" وكتاب "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، أغسطس ١٩٥٨" وكتاب "مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، أغسطس ١٩٦٢" وكتاب "لسان الدين بن الخطيب" حياته وتراثه الفكرى، مايو عام ١٩٦٨" وكتاب "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لذى الوزارتين لسان الدين الخطيب، المجلد الأول، ١٩٨٠، والمجلد الثانى، ١٩٨١".

وكان من حسن حظى أن وقع فى يدى كتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان، بعد أن قرأت كتبه الأولى (أى حتى عام ١٩٤٧) الذى اقتبست عنوانه للدراسة الحالية وهو :

"تاريخ المؤامرات السياسة وتطوراتها الاجتماعية والقانونية. من اقدم العصور إلى أحدثها، التى نشرته ادارة الهلال بمصر فى سنة ١٩٢٨"

وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أن المؤامرات السياسية قديمة أقدم الدهر، وسأتحدث عن بعض هذه المؤامرات فى اختصار،وسأفعل ذلك أيضا عنها فى العصور الوسطى، وسيكون اهتمامى بما حدث ويحدث فى مصرنا الخالدة وبخاصة فى الفترة الراهنة.

ولعلنى فى ضوء خبراتى المحدودة أحاول التحدث عن أهم العوامل التى عرفتها من قراءاتى فى التاريخ أو تلك التى استخلصها على مسئوليتى وحدى.

إذا استعرضنا تاريخ مصرنا الخالدة وجدنا المؤامرات السياسية فى معظم مراحله · لم تكن فى كل مراحله حتى وقتنا الراهن، كان ملوك البلاد مقدسين أو شبه مقدسين، وكانوا أصحاب امتيازات مطلقة و، وكانت سلطاتهم لاحد لها، وكانوا فى الأغلب الأعم كل شئ، والشعب كل لاشئ باسم الدين كانوا يحكمون سواء كان هذا الدين وثنيا أو سماويا نجد ذلك كما ذكرت فى وقائع التاريخ، كما نجده في الأساطير. ولنا في أسطورة "إيزيس وأزوريس وحورس" دلالة واضحة. فقد تآمر "ست" أخ "اوزوريس" كما تذكر السطورة ليحل محله ويصبح ذا سلطان وامتيازات، وكان من نصيب أوزوريس أن قطع إربا إربا حتى نجحت أخته "إيزيس" وزوجته فى الوقت نفسه فى لم أشلائه حتى قام ولدها "حورس" الذى حارب عمه "ست" وتوج ملكا على عرش أبيه المسلوب.

وعلى الرغم مما تذكره هذه الأسطورة فإننا نجد في ضوء ما سجله التاريخ عنها أن "ست" قد أحاط عرشه الدى سلبه من أخيه بعصابة من المداهنين المرتزقة. على أنه بالرغم من ذلك نلاحظ أن أصحاب المؤامرات لا يلبثون أن يواجهوا عشاق الحرية، فى أى عصر، وأى مكان وأى ظروف، الذين يواجهون الطغيان من أجل السلام ويعملون فى سبيل تحقيق ذلك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وأننى لا أرى أبدا أن ما يفعلونه يعتبر تآمرا على الطاغى المستبد الذى لا يحكم إلا بحواسه، وذلك لأن الباعث على سلوك هذا السبيل الخطر هو التماس العدل والإصلاح وسيادة الحرية والسلام.

والملاحظ أن أسطورة "أوزوريس وإيزيس وحورس" قد بقيت،و لاتزال، فى وجدان المصريين حتى وقتنا هذا. فإن "أوزوريس" يعتبر فى رأيى "أول الشهداء"، وإذا كان هو كذلك فإن "الإمام الحسين بن على" رضى الله عنهما يعتبر كما يقول "العقاد" عندما تحدثت عن بعض الشهداء من قبل، "أبا الشهداء"، وإن كان يرى الكثير أن الإمام الحسين هو "سيد الشهداء"

وأرجو القارئ الكريم أن يسمح لـي بـالتحدث عن موضـوع بقاء الأسطورة القديمة فى وجدان المصريين عندما أتحـدث عـن القديسـين "مرقس الرسـول" و"مارمينا" و"القديسة دميانة" الذين واجهوا الطغيان والعنف إلى الدرجـة التـى قتلوا وقطعت جثثهم إربا إربا كما حدث للإمام الحسين بن على (انظر كتـاب سيد عويس : "الإبداع الثقافى علـى الطريقـة المصريـة : دراسـة عـن بعـض القديسـين والأوليـاء فـى مصـر، القـاهرة، دار الطباعـة الحديثـة، ١٩٨١، صفحات ٢٤ - ٧٤).

والملاحظ، ايضا أنه على الرغم من أن عصور الاستقرار فى ربـوع مصر كانت طويلة، وخاصة العصـر الأساسـى الأول (الدولـة القديمـة)، فإنـه منذ عام ٥٢٥ ق.م وحتى عام ١٩٥٣ ميلادية، أى منذ حوالى ٢٤٧٨ عامـا كان حكام مصر من الأجانب، وكان الحاكم منذ عام ٥٢٥ ق.م هـو "قمبيز بن كورش" ملك فارس، الذى زحف بالجيوش والعساكر لافتتاح مصر بسـبب عصيان "بساماتيكوس" بـن أماسيس (مـن أعيـان المصرييـن الذيـن اسـتخلفته الدولة الفارسية من قبل ثم تمرد عليها) وقـد قبـض قمبيـز علـى بساماتيكوس بعد حروب طاحنة وألزمه أن يشرب مقدارا كبيرا من دم الثـيران ففعـل ذلـك به كالسم ومات وخضعت لقمبيز بعد ذلك كل بلاد مصر وصـارت مقاطعـة فارسية وتوالى عليها نـواب ملـوك فـارس واسـتمرت مملكـة مصـر خاضعـة للفرس إلى أن افتتحها "أسكندر ذو القرنين" فى عام ٣٣٢ ق.م وبعد أن مات أسكندر تولـى زمـام مصـر "الدولـة البطليموسـية" (انظـر كتـاب : يوحنـا أبكاريوس : "قطف الزهور فى تاريخ الدهور" طبع فى بـيروت سـنة ١٨٧٣، صفحات : ١٨٥ - ١٨٧).

وبهذه المناسبة أود أن أذكر أن "هيرودوت" جاء إلى مصر فـى عهد قمبيز من بلاد اليونان ليدرس عادات أهلها وتقاليدها وليعرف مواضـع القـوة فيهم ومواضع الضـعف، توطئة لإتاحـة الفرصـة لليونـان لكـى يضموهـا إلـى مملكتهم، وقد نجح فى ذلك، كجاسوس أكثر منه مؤرخا، تماما كما حدث بعد ذلك فى البـلاد العربيـة وفـى مصـر، مـن أمثـال عمـلاء خـبراء المسـتعمرين "لورنس" و"فيلبى" و"جوردون" و"لـيـن (منصـور أفنـدى) و"دى لسـبس" وحتـى وقت قريـب، وحتـى وَقتنـا هـذا، ومـن هـؤلاء "وينـدل كيلانـد" و"جـون بـادو"

ومخابرات الدول وبخاصة الولايات المتحدة ودول أوروبا المتقدمة الغربية والشرقية وإسرائيل.. وغيرها.

وانقرضت دولة اليونان فاستولى على مصر "الرومان" فى عام ٣٢ ق. م، وقامت البلاد تحت تصرف حكامهم نحو سبع مائة سنة، وكانت البلاد المصرية تحسب ولاية من الولايات الرومانية. ثم كرس "الرسول مرقص" "اينيانيوس" المصرى أسقفا، وكان أول أسقف مصرى مسيحى، وذلك فى عام ٦٤ ميلاديا، وباسم "المقوقس عظيم القبط" سادت الديانة المسيحية بعد أن امتحن معتنقوها فى "عهد الاضطهاد الأعظم" وكان عدد الاضطهادات التى أثارها القياصرة الرومانيون على المسيحيين عشرة أولها عام ٦٤ ميلادية فى زمن "نيرون" وأخرها أى عاشرها عام ٣٠٣ ميلادية فى أيام "ديوكليتيان".

وبعد أن تولى الملك "قسطنطين" امتازت أيامه عن باقى القياصرة بأمرين عظيمين أولهما : نقل كرسى السلطنة إلى "القسطنطينية"، والثانى : اعتناقه فى عام ٣١٢ ميلادية الديانة المسيحية.

وكان "عهد الاضطهاد الأعظم" فى البلاد المصرية فى زمن الامبراطور "دقلديانوس" (٢٨٤ - ٣٠٥ ميلادية) وقيصره "جاليريوس" ثم هذا الأخير منفردا (٣٠٥ - ٣١١ ميلادية) و"ماكسيمين دازا" (+ ٣١٣ ميلادية) وقد سيق عدد كبير من المصريين المسيحيين إلى الموت زمرا،ففر كثيرون بعقيدتهم إلى الصحراء. كانت فيافى مصر وقفارها حصنا أمينا لهؤلاء الفارين بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وشهدت صحارى مصر من "النطرون" إلى "طيبة" جموعا هائلة من المصريين المسيحيين الذين أفلتوا بدينهم من قبضة الأباطرة الوثنيين. وعاش بعض من هؤلاء متوحدا تحتويه صومعة كانت أصلا أطلال قبر أو فجوة كهف، وآخرون آثروا عيش الجماعة فكانت الأديار (انظر : كتاب رأفت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى"، القاهرة كتاب روز اليوسف، يناير عام ١٩٧٤، صفحتا ٤١ - ٤٢).

وفى ضوء بعض حقائق التاريخ نجد أنه كان من جملة النازحين الفارين من الطغيان والعنف اللذين كانا وليدى الشعور بالعداوة ضد الوثنيين من الحكام، رجل يقال له "بولس" من مدينة طيبة انفرد بذاته وعكف على

العبادة والصيام فحسب أول من ظهر فيه روح الرهبنة، ولكنه ظهر في أوائل الجيل الرابع من معتنقي الديانة المسيحية رجل آخر يدعى "انطونيوس" فبنى ديرا وجمع أناسا فيه ممن كانوا يميلون للاعتزال عن العالم، ونظم لهم قوانين للسلوك بموجبها ولذلك سمي بأبي الرهبان، ثم أن هذه الطريقة أخذت في الامتداد حتى وصلت إلى فلسطين وسوريا بواسطة خلفاء أنطونيوس، وبالتدريج عمت أكثر البلاد المسيحية.

(انظر : كتاب قطف الزهور في تاريخ الدهور، صفحتا ١٧١ - ١٧٢)

وفي خلافة أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" أي في عام ٦٤٠ ميلادية غزا عمرو بن العاص مصر، ومنذ ذلك التاريخ بدأ فيها دين الإسلام في الانتشار كما بدأت اللغة العربية تجد طريقها في حديث المصريين بدلا من اللغة القبطية التي كانت سائدة، واستمرت مصر يحكمها الخلفاء الراشدون. ثم عندما أسس "معاوية بن أبي سفيان" دولة بني آمية، أرسل إلى مصر عمالا موالين لهم مدة خلافتهم. وكان جملة من ولي بالنيابة عن هذه الدولة ستة وعشرين عاملا في خلال فترة زمنية تقدر بمائة وإحدى عشرة سنة وكان هؤلاء العمال يسمون عمال خراج مصر، وأصبحت مصر عند هؤلاء مجرد "ضيعة" عندهم.

والمعلوم أن معاوية بن أبي سفيان. كان قبل تأسيس دولة الأمويين واليا على الشام منذ خلافة ابن عمه "عثمان بن عفان"، وعندما ولي "علي بن طالب" الخلافة أراد أن ينزل كل ولاة عثمان الحكم وأن يولي مكانهم نفرا من صحبه ممن يثق في ولائهم له، فبعث عاملا جديدا إلى الشام فرده أهلها، واظهر معاوية الخلاف، ووجد في المطالبة بدم عثمان حجة يستمر بها معاوية في الخلافة والملك (لقد قتل الخليفة عثمان في عام ٣٥ هـ).

ودبرت المؤامرة حيث اجتمع نفر من "الخوارج" (هم نفر من أهل العراق ممن غضبوا لأن الخليفة علي بن أبي طالب رفض أن يمضي في الحرب ضد العصاة من أمثال معاوية بن أبي سفيان) في موسم الحج سنة ٣٩ هـ، وهم عبد الرحمن ابن ملجم المرادي والحجاج بن عبد الله التميمي الصريمي، وعمرو بن بكر التميمي - وتحدثوا في أمر "الحرب الأهلية" التي

يثيرها، فى رأيهم، جشع الرؤساء، واستبداد الولاة. واتفقوا على أن الرؤساء الثلاثة أقصد "على ومعاوية وعمرو بن العاص" هم المسئولون عن وقوع هذه المصائب، وأنه يجب قتلهم وإراحة الأمة الإسلامية من شرهم وجشعهم، وتعاهدوا على أن يقوموا بتلك المهمة، وان يهبوا أنفسهم رخيصة فى سبيل تحقيقها. واتفقوا على أن يتولى عبد الرحمن بن ملجم قتل على، والحجاج الصريمى قتل معاوية، وعمرو بن بكر قتل عمرو بن الاص. على أن يكون التنفيذ فى الكوفة والشام ومصر فى وقت واحد هو ليلة ١٧ من شهر رمضان سنة ٤٠ من الهجرة.

ويرى "الأستاذ محمد عبد الله عنان" أنه يعتقد أن منشأ تلك المؤامرة الشهيرة يرجع إلى ما وراء ذلك، وان زعماء الخوارج أنفسهم هم الذين دبروها، وأن "ابن ملجم" وزميليه كانوا رجال التنفيذ فقط، ولم يكن اجتماعهم بمكة وتدبرهم لطرق تنفيذها إلا مرحلة أخيرة للمؤامرة (انظر كتاب : محمد عبد الله عنان "تاريخ المؤامرات السياسية"، القاهرة، ١٩٢٨، صفحات ٩٩ - ١٠١).

وصرع "على" أمير المؤمنين فى عام ٤٠ من الهجرة - ٦٤٠ ميلادية. ونجا معاوية وعمرو بن العاص، وقبض الناس على ابن ملجم وعلا الصياح ولتشتد الاضطراب. واجتمعت شيعة الخليفة الجريح حوله فقال : إن هلكت فاقتلوه كما قتلنى، وإن أعش فأنا ولى دمى إما عفوت وأما اقتصصت. ولكنه توفى بعد يومين، وقتل ابن ملجم بعد أن عذب وقطعت أطرافه، وفقد الإسلام بمقتل "على" زعيما من أكبر زعمائه (المرجع السابق : صفحة ١٠١).

ولعل الحديث بعد مقتل "الخليفة على" أن يملى علينا ذكر بعض الأمور عن الإمام الحسين. الذى سبق أن تحدثنا عنه عند ذكر أسطورة "أوزوريس وإيزيس وحورس" من قبل. والإمام الحسين هو "الإمام عبد الله الحسين بن على رضى الله عنه"، وهو اسم ملأ فى عصره وبعده كل مكان فى البلاد العربية والإسلامية وغيرها من المعمورة، وقد أصبح "للحسين" بعد مأساة كربلاء وبنسبه الشريف وخلقه الكريم وورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين، مكانة فى قلوب الناس لا تدانيها مكانة، وقد تواترت الروايات على أن

"الحسين" كان يقول الشعر وبخاصة فى أغراض الحكمة وأنه كان خطيبا بما أوتى من طلاقة للسان والفصاحة وحسن البيان.

وقد شهد الحسين مع أبيه موقعة الجمل ثم صفين ثم قتال الخوارج، وكانت له فى كل منها مواقف مشهودة، وبقى مع والده حتى قتل، وبعد وفاة الخليفة "على" بقى الحسين مع أخيه "الحسن" رضوان الله عليهما، إلى أن أسلم الأمر إلى "معاوية"، وكان الحسين غير راض على ما فعله أخوه "الحسن" من تسليم أمر الخلافة إلى معاوية. فلم يوافقه عليه أولا وأشار بالقتال، ولكنه نزل بعد ذلك على رأى أخيه الأكبر.

وقد صحب الحسين رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى أن توفى وهو عنه راض. ثم كان "الصديق أبو بكر" يكرمه ويعظمه وكذلك الخليفة "عمر" والخليفة "عثمان".

وفى "كربلاء" تكاثر الجيش على "الحسين" وصحبه وكانوا اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا. وقد استشهد كل صحبه وانفرد وحده بجيش "عبيد الله بن زياد"، وكان يحمل عليهم فيتفرقوا تحرجا من قتله وكان منهم من يخشى أن يصاب على يديه حتى صاح فيهم "شمر بن ذى الجوشن" :ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم. فحملوا عليه من كل جانب وضربه "زرعة بن شريك التميمي" على يده اليسرى فقطعها، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجه فأخذ يقوم ويكبر وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى لفظ نفسه الأخير. ووجد بجسده ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية بالنبل والسهام. ونزل "سنان بن أنس النخعى" فاجتز راسه وقيل فى رواية أخرى أن شمر بن ذى الجوشن هو الذى ذبحه واجتز رأسه. ثم عمدوا إلى سلب ما كان عليه من كساء فأخذ قميصه "إسحاق بن حيوة الحضرمى" وأخذ سراويله "بكحر بن كعب" وأخذ "قيس بن الأشعث" قطيفته وهى من خز، فكان يسمى بعد "قيس قطيفة" واخذ عمامته "اخنس بن مرثد الحضرمى"وأخذ نعليه "السود الأودى" وأخذ سيفه رجل من "درام" وترك الحسين يكاد أن يكون عاريا.. ثم وطأت الخيل جثته كما أمر "ابن زياد" حتى رضوا صدره وظهره (انظر كتاب : الابداع الثقافى

على الطريقة المصرية : دراسة عن بعض القديسين الأولياء فى مصر، صفحات : ٦٤ - ٦٨).

ولابد لى من كلمة عن موقعة كرباء، فقد ذكرت "سعاد ماهر محمد" فى كتابها "مساجد مصر وأولياؤها الصالحون : الجزء الأول، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧١" تحت عنوان "خروج الحسين ومقتله". صفحتا : ٣٥٥ - ٣٥٦).

"لما توفى معاوية سنة ٦٠هـ كان على المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان وعلى مكة يحيى بن حكم بن صفوان بن أمية، وعلى البصرة عبد الله بن زياد، وعلى الكوفة النعمان ابن بشير الأنصارى، فكتب يزيد بن معاوية إلى الوليد بن عتبة (من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد فإن معاوية كان عبدا من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل، فرحمه الله فقد عاش محمودا ومات برا تقيا والسلام) ثم أضاف (أما بعد فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام). فلما قرأ الوليد، وإلى المدينة فى ذلك الحين، للحسين الكتاب ونعى إليه معاوية، فقال الحسين" إنا لله وإنا إليه راجعون ورحم الله معاوية، أما البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سرا ولا أراك تقنع بها سرا قال أجل، فقال الحسين فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحدا"، وكان الحسين رضوان الله عليه قد عول على ترك المدينة إلى مكة، كما تركها قبله بليلتين ابن الزبير دون مبايعة يزيد، فخرج منها ومعه جل أهل بيته وأخوته وبنو أخيه، فلما بلغ أهل الكوفة وفاة معاوية وعلموا امتناع الحسين عن بيعة يزيد ونزوله مكة، اجتمعت الشيعة وكتبوا إليه كتبا جاء فيها "إنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق"، ثم سرحوا عدة رسائل بالكتاب إليه، وتلاقت الرسل كلها عند الحسين فكان يقرأ الكتب ويسأل الرسل عن الناس، ولبث فى مكة على هذه الحال أربعة أشهر، ثم دعا ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب فأمره بالمسير إلى الكوفة، فإن رأى الناس مجتمعين مستوثقين عجل إليه بذلك، وكتب إلى أهل الكوفة.

قبل ذلك أرسل كتابا قال فيه : "أما بعد فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرت من محبتكم بقدومي عليكم، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إلي أنه قد أجمع رأى منكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت فى كتبكم، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله، فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام".

ولما علم يزيد بخبر مسير مسلم بن عقيل إلى الكوفة كتب إلى عبيد الله بن زياد، وكان واليا على البصرة، يأمره بالمسير إلى الكوفة وتولى إمارتهم وأخذ شيعة الحسين بالشدة وبالقضاء على مسلم بن عقيل، وكان مسلم قد نزل بالكوفة وتلقى البيعة للحسين من ألوف الناس، قال عنهم ابن كثير ثمانية عشر ألفا وقال ابن قتيبة ثلاثين ألفا.

وما قدم ابن زياد إلى الكوفة حتى عمل على تحويل الناس عن مسلم، وسرعان ما قضى عليه وعلى من انضم إليه من أهل الكوفة وبعث برأسه ورؤوس من قتل معه من صحبه إلى يزيد.

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة جمع الحسين رايه على الخروج، فجاءه عبد الله بن العباس يناشده فى المقام ويعظم عليه القول فى ذم أهل الكوفة وقال له : إنك تأتى قوما قتلوا أباك وطعنوا أخاك وماأراهم إلا خاذليك" فقال له : "هذه كتبهم معى وهذا كتاب مسلم باجتماعهم (قتل مسلم بن عقيل لتسع خلون من ذى الحجة، أي بعد خروج الحسين من مكة بيوم واحد) فقال له ابن عباس "إن كنت لابد فاعلا فلا تخرج أحد من ولدك ولا حرمك ولا نسائك".

وبلغ الحسين نبأ مقتل مسلم وهو فى طريقه إلى الكوفة فدب الخلاف بين من معه من المناصرين ونصح فريق منهم بعدم مخاصمة يزيد بن معاوية، ونصح فريق آخر بإصرار على مقاتلة يزيد والفريق الثالث وقف موقفا وسطا، وانتهى بأنه لا مناص من المضى قدما فى محاربة يزيد ومواجهة الموت وإباء التسليم أو النزول على حكم الطغاة المتآمرين.

وسار الحسين حتىَ وصل به مناصروه إلى "كربلاء" وهكذا كانت النتيجة المحتومة تكاثر الجيش على الحسين وصحبه وكانوا كما سبق أن ذكرت اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا، وكلهم مشهود له بالشجاعة وسداد الرمى ومضاء الضرب بالسيف وهم على قتلهم كفء لمبارزة فرسان جيش عبد الله بن زياد واحدا بعد واحد لو جرى القتال على سنة المبارزة، ولكن هؤلاء الفرسان أقصد فرسان جيش عبيد الله بن زياد خشوا مغبتها فعدلوا عنها (المرجع السابق (صفحات : ٣٥٦ - ٣٥٩).

وأرجو من القارئ الكريم أن يوافقنى على أن رسوخ "أسطورة أوزوريس وإيزيس وحورس" فى وجدان المصريين المسلمين، يؤكد الاهتمام الذى يرقى إلى التقديس أو شبه التقديس عندما يزور المصريون المسلمون، السنيون منهم والشيعيون على السواء ضريح "الإمام الحسين" أو ضريح شقيقته "السيدة زينب" أو ضريح ابنه "على زين العابدين" ويرجع ذلك إلى أن مكانة الآلهة المصرية القديمة قد انتقلت فى فترات التحول فى تاريخ مصرنا الخالدة، بعملية توفيقية إلى الأنبياء والقديسين ثم الأولياء.

وقبل أن أتحدث عن وقائع التاريخ المصرية التالية أرانى مضطرا لكى أتحدث عن أهم الصراعات الفكرية التى حدثت وبخاصة بين الأئمة الفقهاء : أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وبين حكام البلاد فى أزمانهم الذين كانوا يحكمون باسم الدين والسلطة والسلطان فى أيديهم وحدهم فقد كانوا كل شئ والشعوب المحكومة لاشئ.

والملاحظ إننى تحدثت من قبل عن الشهداء وذكرت من بينهم أبا حنيفة النعمان بن ثابت، وقد آن الأوان أن اذكر حق القارئ الكريم فى التعرف على عوامل استشهاد هذا الفقيه الكبير، فالتاريخ يذكر أنه لم تكن حياة أبى حنيفة وإن طالت إلا معركة واحدة سلخ فيها الفكر الإنسانى سبعين عاما بين التحضير والتدبير والملحمة، ولم تكن لبطلها غاية ولا وسيلة إلا الحرية والتسامح فى كل أطوارها".

وإننى أرى وأرجو أن يرى القارئ الكريم ما أرى أن العالم الذى يقوم على التسامح هو وحده العالم الجدير بالحياة، والوجود المنبعث من

نفوس حرة هو حده السبيل إلى عمارة الدنيا بالنشاط الفكرى والرخاء المادى حتى يعم السلام ويتبدد العنف الذى يكون عادة وليد الشعور بالعداوة.

وقد قيل إن حبس أبى حنيفة النعمان كان لسبب سياسى وهو تشيعه لـ"محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب" المسمى بالنفس الزكية" أو لأخيه إبراهيم ويرد عبد الحليم الجندى فى كتابه : "أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، ١٩٦٦" قائلا :

إن من المسلم أن محمدا وأخاه إبراهيم قتلا فى سنة ١٤٥هـ حين خرج محمد بالمدينة على أبى جعفر وبعد أن خرج عليه إبراهيم فى البصرة وإن كان من المسلم به أن الأجل وافى أبا حنيفة عقب حبسه بأيام فى سنة ١٥٠هـ فإنه يكون عجيبا أن يتشيع أبو حنيفة للموتى بعد إذ ماتوا بخمس سنين وأعجب منه أن يرتاع رجل شديد البأس قوى المراس، كأبى جعفر من العطف على ذكريات الموتى.. لو جاز أن يتشيع الناس لهم ذلك التشيع الذى يخرج الفقيه الأعظم عن حكمة السبعين عاما (صعدت روحه الزكية وهو ساجد فى شهر رجب سنة ١٥٠هـ (انظر صفحة ٢٠٨ وصفحة ٢٢٢).

وقد جاءت أبا حنيفة الدعوة إلى لقاء الله وهو بين يدى الله يصلى وبين يدى التاريخ وهو سجين وبين يدى الفكر الإنسانى الداعى إلى إنسانية الإنسان وهو يتلقى العذاب من جرائه.

وأخرج من مكان حبسه فحمله خمسة أنفس فأتوا به إلى مكان غسله فغسله الحسن بن عمارة قاضى بغداد، وكان من أصحاب الحديث وزهادهم فلما فرغ من غسله قال :

"رحمك الله لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة. كنت أفقهنا وأعبدنا وأجمعنا لخصال الخير وقبت إذ قبت إلى خير وسنة وأتعبت من بعد" (المرجع السابق : صفحة ٢٢٢).

وفى ضوء ما سبق أرجو أن يوافقنى القارئ الكريم على أن أبا حنيفة قد مات فى قضية القضايا، ألا وهى قضية الحرية أو قضية القضاء. أو قضية تسخير العلماء فى خدمة الخلفاء ! فاظهر أن الزهد والعلم ليسا غاية

الحياة وإنما العمل الذى هو شرط الوجود الإنسانى هو الغاية فى الدنيا والوسيلة للآخرة.

وأبدأ حديثى عن "مالك بن أنس" صاحب "الموطأ" بمقولة قرأتها للأستاذ الجليل "زكى نجيب محمود" عندما اضطر إلى الذهاب بالقرب من مسجد الليث بن سعد" الفقيه المصرى، قال زكى نجيب محمود "ويل للمعاصرين من المعاصرين" وذلك لأن الليث كان أفقه من مالك إلا أن أصحابه أبوا عليه ان يعترفوا بذلك (لم يقوموا به).

وقد ذكر المغفور له الشيخ ابو زهرة فى كتابه الشافعى : حياته وعصره - آراؤه وفقهه - القاهرة دار الفكر العربى، الطبعة الثانية، عام ١٩٤٨، صفحات ٢٨، ٣٠".

"لما بلغ الشافعى أن مالكا تقدس آثاره وثيابه فى بعض البلاد الإسلامية ثارت نفسه ونقد آراء مالك وأعلن الزيف منها وألف كتابا "خلاف مالك" وفى هذا المقام يروى الفخر الرازى : "أن الشافعى إنما وضع الكتاب على مالك لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستقى بها. وكان يقال لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون قال مالك. فقال الشافعى : إن مالكا آدمى قد يخطئ ويغلط فصار ذلك داعيا إلى الشافعى إلى وضع الكتاب على مالك، وكان يقول : كرهت أن أفعل ذلك ولكنى استخرت الله تعالى فيه سنة.."

وعلى الرغم من عدم ميل "مالك" للنضال فقد امتحن بالسياسة وهى الاعتداء المادى على أمثاله من أصحاب العلم الدينى، بالضرب على شكل ما، وبالحبس أحيانا، فالعلماء الفقهيون فى ذلك العهد يمثلون سلطة الشعب، راضين أو كارهين، منتبهين في وعى أو غير منتبهين لأنهم لابد متحدثون عن الحقوق والواجبات لكل من الحاكمين والمحكومين.. ومن ثم فإن صفحات تاريخ السلطة الشعبية ضد الحكم المستبد الطاغى العنيف المتفرد وهى بذلك صفحات فى تاريخ الحرية الفكرية.

وكان امتحان "مالك" فى الحجاز الذى يبدو أنه لم يبرحه طوال حياته، وقد حدث هذا الامتحان فى سنة ١٤٦هـ على عهد المنصور. إذ الجو

كان مكفهرا، أقصد الجو السياسى، وكان الناس مهتاجى الأعصاب بما تفعل الدولة الجديدة (الدولة العباسية) فى تثبيت سلطانها والمخالفون ينتهزون الفرص لزعزعة مركزها.

وقد ارتكب محنة مالك العباسيون بتوجيه خليفتهم وبيد عاملهم على المدينة، والخليفة هو المنصور والوالى هو جعفر ابن سلمان.

وكانت نفس مالك تنطوى على ميل للأموية وقد بدت منه بوادر لسانية، فى الثناء على الأمويين بالأندلس، وكان مالك يحدث بحديث " ليس على مستكره يمين" ومنه أفتى الناس بالخروج مع "محمد الشبه" الذى هو بسبب ما فى الجو من تلبد، و"مالك" رغم كل مداراة الناس لا ينجو من حسد منافس حاقد ينتهز الفرصة، وكل أولئك مجتمعا يصور سبب المحنة العام، وظروف إثارتها الخاصة دون قصرها على جزئية واحدة.

وقد جرد مالك من الثياب إلا ما يستر العورة، عقابا له، ثم مد جسمه على الأرض، وربطه بالحبال تكتيفا، ووضعت اليدان فى آلة تمسكها، وبعد ان مد مالك يديه فى العقابين وضرب بالسياط على الظهر حتى خلع كتفه الأمر الذى لم يستطع معه أن يسوى رداءه، والملاحظ أن الأثر المعنوى لمثل هذا الصنيع بعالم، هو ما يكون دائما، من أن يخسر بها الطاغية الظالم القاسى وتسوء سيرته حين يعظم المعتدى عليه ويرتفع شأنه وكذلك يقول الأولون أنفسهم : أفتى بحق، وضرب بباطل فكانت هذه السياط عليه حليا حلى بها. (انظر : كتاب أمين الخولى "مالك، تجارب حياة" أعلام العرب رقم ١١، وزارة الثقافة والإرشاد القومى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، صفحات ٢٨٤ - ٣٠٦).

ويجدر بى أن أختم هذه الدراسة عن "مالك بن أنس" بما سطره يراع الأستاذ الكبير "أمين الخولى" تحت عنوان : التجربة الأخيرة، اذ يقول :

أبا عبد الله.. إمض راضيا مرضيا.

أشفقت من الفتوى، وكنت إذا سئلت فكأنما أشرف عليك الموت وقد أمضيت عمرك تفتى.. ويشرف عليك الموت كلما سئلت وفزعت من السياط.. ولكن ناشتك السياط على كبره وضعف وقد أحللتهم رغم ما أحلوا

بك مما لم تبرأ منه.. حتى أغمضت عينيك بشيبة صالحة.. وثقة صافة.. شارفت بروحك عفو الله.. وخبرت عوادك الذين سألوك : كيف تجدك ؟ أفهم سيعانون من عفو الله مالم يكن فى حساب.

غدوت إلى الروضة ورحت.. مصليا متبتلا.. ودارسا متعلما وراويا معلما، واليوم تغدو إلى الروضة مسجى محمولا.. "يصلي عليك" ويشهد الناس لك - وصاحب الدعوة خير شاهد - إنك تأخذ منه ولا ترد عليه..

وفى ثرى "المدينة" الذى اشفقت أن يطأه حافر تركبه لأن محمدا ثاو فيه.. فى هذا الثرى اليوم مثواك.. وأكرم به جوارا..

وفى روضة من رياض الجنة علمت وتعلمت.. فإلى روضة من رياض الجنة ثويت حتى يدعو الخلق داعيها فتلقى ربك وقد أوفيت.

وسلام عليك يوم ولدت.. ويوم مت.. ويوم تبعث حيا.

ومات "مالك بن انس" سنة ١٧٩هـ ودفن بالبقيع (المرجع السابق : صفحتا ٢٤٦ - ٤٢٧).

والإمام الشافعي هو : أبو عبد الله محمد بن أدريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف، أى انه عربى قرشي هاشمي وطلبي ويلتقي مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى جده عبد مناف.

وقد ولد الإمام الشافعي بغزة سنة ١٥٠هـ وهى نفس السنة التى مات فيها الإمام أبو حنيفة كما سبق أن ذكرنا وكان مولده بمدينة غزة من أرض فلسطين، ومات أبوه وهو صغير فانتقلت به أمه إلى مكة لتحافظ على شرف نسبة.

شب الشافعي فقيرا ضيق العيش وحفظ القرآن الكريم وهو صغير، وأخذ يحفظ الأحاديث النبوية ويكتبها ورحل إلى الباديةوعاشر قبيلة "هذيل" قرابة عشر سنين ليأخذ منها قواعد اللغة العربية وكلماتها، فحفظ الشافعي أشعار هذيل وأخباها وكانت هذيل أفصح العرب قاطبة.

ثم تعلم الشافعي الفقه على يد مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكـة ونبـغ فيه على حداثة سنه وأذن له أستاذه فى الافتاء ولكن همة الإمـام الشـافعي لـم تقنع بما وصل إليه، إذ بلغته أخبار إمام المدينة "مالك رضى الله عنه" وكـان ذلك في وقت ارتفـع فيـه اسم مـالك فـى الآفـاق وتناولـه الركبـان وبلـغ شـأنا عظيما فى العلم والحديث.

وقد جذبـت هـذه الأخبـار اهتمـام الشـافعي وعـول علـى الهجـرة إلـى المدينة فى طلب العلم وأعد لذلك عدته بأن استعار كتـاب (موطـأ مـالك) مـن رجل فى مكة وقرأة وحفظه ثم أخذ خطاب توصية من "أمير مكة" إلى "أمـير المدينة" ليتوسط عند مالك حتى يقبله تلميذا عنده.

وسافر الشافعي إلى المدينة وقابل مالكا. ثم أخذ يقرأ ومـالك يسـتزيده فى القراءة وظل معه يروى عنه ويتفقه عليه ويدارسه المسائل التى يفتى فيها الإمام الجليل إلى أن مات الإمام مالك سنة ١٧٩هـ.

ولم يقعد شرف "نسب" الإمام الشافعي عن العمـل والسـعي فـى طلـب الرزق ليأكل من كد يمنيه وعرق جبينه، وتصـادف ان قدم إلـى الحجـاز أحـد ولاة اليمن فحادثه بعض القرشيين فى أن يولى الشافعي على عمل فى اليمـن فقبل ورهن الشافعي دارا ليجهز نفسـه للسـفر، ثم تولـى عمـلا فـى "نجـران" ظهر فيه ذكاؤه وعدله وترفعه عن الظلم فرفض التملق والرشوة التـى كـانت تقدم لمن سبقه من الحكام وكان الإمام الشافعي يذم الحكام الظـالمين وينقدهـم ويذكر ما أعده الله من العقاب للحاكم الظالم ثم ولى على اليمن ومن أعمالهـا "نجران"، وال ظالم مستبد فكان الشافعي يـأخذ علـى يديـه ويمنـع مظالمـه أن تصل إلى ممن تحت ولايته.

فلما بلغ ذلك والى اليمن، كتب إلى "هـارون الرسـيد" كتابـا يتهم فيـه الشافعي بالتشيع لعلـى وآل بيتـه واتهمـه بـأن يسـعى سـرا لنقل الخلافـة مـن العباسيين إلى العلوييـن واتهم معـه تسـعة آخريـن، وكتـب فـى الخطـاب إلـى الرشيد (أن تسعة من العلوية تحركوا وأن هاهنا رجلا من ولد شافع المطلبـى يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه فأرسل هـارون الرشـيد إلـى اليمـن يأمره بأن يحضر أولئك النفر التسعة من العلوية ومعهم الشافعي.

أمر هارون الرشيد بضرب أعناق التسعة ثم جاء دور الشافعي فقال للخليفة : "مهلا يا أمير المؤمنين فإنك الداعي وأنا المدعو أنت الاقدر على ماتريد مني ولست القادر على ما اريده منك. يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين، أحدهما يراني أخاه والآخر يراني عبده، أيهما أحب إلي؟

قال الرشيد : الذي يراك أخاه

قال الشافعي : فذاك أنت يا أمير المؤمنين.

قال الرشيد : كيف ذاك ؟

قال الشافعي : يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد علي، ونحن بنو المطلب فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم وهم يروننا عبيدهم.

فانشرح الرشيد لذلك، وقال للشافعي : يا ابن إدريس، كيف علمك ؟ فقال الشافعي : عن أي علومه تسألني ؟ عن حفظه ؟ فقد حفظته ووعيته بين جنبي، وعرفت وقفه وابتداءه وناسخه ومنسوخه وليله ونهاره، ووحشيه وأنسيه، وما خوطب به العام يراد به الخاص وما خوطب به الخاص يراد به العام.

فقال هارون : فكيف علمك بالنجوم ؟ فقال : إني أعرف منها البري والبحري والسهلي والجبلي والمغبق والمصبح وما تجب معرفته.

فقال الرشيد : فكيف علمك بأنساب العرب ؟ فأجلب الشافعي إني لأعرف أنساب اللئام وأنساب الكرام ونسبي، ونسب أمير المؤمنين.

قال الرشيد : فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين ؟ فوعظه بموعظة مؤثرة لطاووس اليماني، فبكى الرشيد وأمر للشافعي بمال كثير وهدايا ففرقها عند الباب. (انظر كتاب سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون الجزء الثاني المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، عام ١٩٧٣، صفحات ١٤٠ - ١٤٤).

وفي ضوء وقائع التاريخ، وفي ضوء بعض ما سبق، نجد أن الإمام الشافعي بدأ دراساته الأولى في الحجاز درس أولا على "مسلم بن خالد

الزنجي" مفتى مكة ثم رحل إلى المدينة حيث تفقه على الإمام "مالك بن انس".

وأكمل الإمام الشافعي دراساته في العراق، حيث قدم إليه وهو في نحو الرابعة والثلاثين من عمره قدمته الأولى واتصل بمحمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة وناشر مذهبه.

وكان الإمام الشافعي كثير الأسفار في البلاد الإسلامية ليعلم أحوال الناس وأخبارهم وشئونهم الاجتماعية، فضلا عن طلب الحديث، وقد انتهت أسفاره ورحلاته إلى القدوم إلى مصر فيعام ١٩٩هـ (٨١٤ - ٨١٥ ميلادية) وقيل بعد ذلك بسنتين. أى أنه مكث في مصر نحو خمس سنوات وقيل نحو ثلاث سنوات، ولم يزل بمصر ناشرا العلم ملازما للاشتغال بجامع عمرو إلى أن تآمر عليه حساده فضربه جمع من السوقة بعد أن انتهى من إلقاء درسنه واصيب بضربة شديدة مرض بسببها أياما ثم مات في يوم الجمعة سلخ رجب سنة أربع ومائتين من الهجرة (٨١٩ ميلادية) وله من العمر نحو أربع وخمسين سنة (انظر كتاب سيد عويس : من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشافعي : القاهرة عام ١٩٦٥، صفحات ٥٣ - ٥٥).

ولعلنى لا أبعد كثيرا عن الموضوع الذى أنا بصدده وقد ذكرت ما جرى بين "الإمام الشافعي" وبين "الخليفة هارون الرشيد" أن يسمح لى القارئ الكريم بالحديث عن المؤامرة السياسية الكبرى، اقصد كما ذكرت في كتاب (تاريخ الطبرى، الجزء الثامن، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة منقحة، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، صفحات ٢٨٧ - ٢٩٤) تحت عنوان "ذكر الخبر عن إيقاع الرشيد بالبرامكة" والملاحظ أن هذه المؤامرة دبرها الخليفة نفسه او اشترك في تدبيرها ليسترد سلطات مغتصبة وليدعم هيبة محتضرة.

والبرامكة أسرة فارسية نابهة، ظهرت إلى ميدان الحوادث بقيام الدولة العباسية وكان عميدها ومؤسس سؤددها "خالد بن برمك" من كبار الشيعة ولاه المنصور على الموصل وأذربيجان وولى "ابنه يحيى" على أرمنية، ثم عهد إليه المهدى بتربية ولده الرشيد. فلما ولى لرشيد استوزر يحيى، وفوض إليه في مهام الحكم، وكان بنو يحيى وهم : جعفر والفضل

ومحمد وموسى جميعا من أولي العزم والنباهة، فظهروا جميعا بين رجالات الدولة، وشغلوا أعظم مناصبها. فولى الرشيد جعفر حكومة مصر ثم خراسان، واستوزر الفضل أخاه من الرضاع، ثم استوزر جعفر وبذلك اجتمعت السلطة كلها في يد يحيى وولديه، وآلت إليهم مصائر الشئون العامة، وغلب نفوذ البرامكة على كل نفوذ في الدولة.

وكان البرامكة أصحاب فضل وجود وذكاء وعزم فلبثوا يديرون شئون الدولة فترة من الزمن (١٧ عاما) وكان نفوذهم في ازدهار والدولة على أيديهم في تقدم وكانت سلطة الخلافة راسخة متمكنة، ورضي عنهم الشعب المحكوم، ومع ذلك فقد كانت لهم المكانة العليا في كل ناحية من نواحي الأمور سواء كانت عامة أو خاصة، وكانت الحال التي صار إليها أصحاب السلطة الحقيقة لم تلبث أن آثارت جزع الرشيد وتوجسه. وكان خصومهم لا ينقطعون في نفس الوقت عن الكيد والسعاية في حقهم، وأحس الرشيد بأن بهاء البرامكة يكاد يغشى بهاءه وسلطانهم يكاد يمحو سلطانه، وفي ضوء هذه الظروف والعوامل نشأت فكرة تحطيم البرامكة وسحق دولتهم التي كادت أن تكون صنوا للدولة الشرعية بل أقوى.

وكان للخليفة الرشيد اليد الطولى في تدمير هذا السلطان غير الشرعي، بل كان روح فكرة هذا التدبير.

والروايات عن نكبة البرامكة في طوايا التاريخ عديدة منها قصة العباسية ابنة "المهدي وأخت الرشيد" ومنها أن الرشيد عهد بيحيى بن عبد الله وهو من ولد علي بن أبي طالب وكان قد خرج بالديلم ودعا لنفسه فحاربه جند الرشيد وأسروه - إلى جعفر ليسهر على اعتقاله، فأطلق جعفر سراحه خفية.

وإذا رجعنا إلى ماذكره "العلامة ابن خلدون" في هذا الموضوع، وربما يستحوذ علينا الاقتناع بما ذكر :

"وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه،

فعظمت أثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم، فأورث عند مخدويهم نواشى الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة، وكامن الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبار المخالفة كقصتهم فى يحيى بن عبد الله"

(انظر كتاب : محمد عبد الله عنان، تاريخ المؤامرات السياسية وتطوراتها الاجتماعية والقانونية، صفحات : ١٠٨ - ١١١)، (انظر أيضا كتاب : يوحنا اكباريوس، قطف الزهور فى تاريخ الدهور، صفحتا ١٠٩ - ١١٠)

واستأنف حديثى عن صراع "أحمد بن حنبل" الفكرى الذى قضى عليه كما قضى على الأئمة ممن سبقوه : أبى حنيفة النعمان ومالك بن انس وأبى عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. الذين كعلماءللإسلام قد سجلوا الأسوة الحسنة لم يأت من بعدهم، فقد امتحنوا جميعا من اجل أرائهم.

وقد سجل فى كتاب "تاريخ الطبرى" الذى سبق أن ذكرته فى الحديث عن محنة البرامكة (انظر : صفحات ٦٣١ - ٦٤٥) تحت عنوان "ذكر خبر المحنة بالقرآن" وكان ذلك فى عهد "الخليفة المأمون" الذى مكر بأخيه "محمد الأمين" على الرغم بما كان أخذ عليه لهما والدهما (الرشيد) من العهود والمواثيق.

وفى عام ٢١٨هـ كتب الخليفة المأمون إلى إسحق بن إبراهيم فى امتحان القضاة والمحدثين، وأمر بأشخاص جماعة منهم إليه إلى "الرقة" وكان ذلك أول كتاب كتب فى ذلك.

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحق بن إبراهيم فى أشخاص سبعة نفر، منهم محمد بن سعد كاتب الواقدى، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وزهير بن حرب أبو خيثمة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبى مسعود، وأحمد بن الدورقى، فأشخصوا، فأمتحنهم وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأشخصهم إلى مدينة

السلام فأحضرهم إسحق بن إبراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فاقروا بمثل ما أجابوا به المأمون، فخلى سبيلهم، وكان ما فعل من ذلك إسحق بن إبراهيم بأمر المأمون.

وكتب المأمون مرة أخرى إلى بن إبراهيم آمرا إياه بأن يقرأه على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضى، ويعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شئ من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق فإن قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك، فتقدم إليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق...

فأحضر إسحق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين، وأحضر أبا حسان الزيادى وبشر بن الوليد الكندى وعلى بن أبى مقاتل والفضل بن غانم والذيال بن الهيثم وسجادة والقواريرى وأحمد بن حنبل وقتيبة وسعدوية الواسطى وعلى بن الجعد وإسحق بن أبى إسرائيل وابن الهرش وابن عليه الأكبر ويحيى بن عبد الرحمن العمرى وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب - كان قاضى الرقة - وأبانصر التمار وأبا معمر القطيعى ومحمد بن حاتم بن ميمون ومحمد بن نوح المضروب وابن الفرخان، وجماعة منهم النضر ابن شميل وابن على بن عاصم وأبو العوام بن البزاز وابن شجاع وعبد الرحمن بن إسحق، فأدخلوا جميعا على إسحق ابن إبراهيم، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتى فهموه، ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى، فقال : أقول : القرآن كلام الله، قال : أسألك عن هذا، أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شئ قال : ما القرآن شئ ؟ قال : هو شئ، قال : فمخلوق ؟ قال : ليس بخالق قال : ليس أسألك عن هذا، أمخلوق هو ؟ قال : ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه، وليس عندى غير ما قلت. فأخذ إسحق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه فقرأها عليه، ووقفه عليها فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قبله شئ ولا بعده شئ، ولا يشبه

شئ من خلقه فى معنى من المعانى، ولا وجه من الوجه، قال : نعم : وقد كنت أضرب الناس على دون هذا فقال للكاتب : اكتب ما قال...

ثم دعا إسحق بن إبراهيم "أحمد بن حنبل" فقال له : ما تقول فى القرآن ؟ قال : هو كلام الله، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها، فامتحنه بما فى الرقعة، فلما أتى على "ليس كمثله شئ" قال " (ليس كمثله شئ وهو السمع البصير) وامسك عن ألا يشبهه شئ من خلقه فى معنى من المعانى، ولا وجه من الوجوه، فقال إسحق بن إبراهيم لأحمد بن حنبل : فما معنى قوله : (سميع بصير) ؟ قال : هو كما وصف نفسه، قال : فما معناه ؟ قال لا ادرى هو كما وصف نفسه.

وقد ورد كتاب المأمون جواب إسحق بن إبراهيم فى أمر من استجوابهم بعد أن مكثوا تسعة أيام، وقد تضمن كتاب المأمون ضمن ما تضمن :

"... وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها، واستدل على جهله وآفته بها"

وفى سنة مائتين وثمانى عشرة أعاد إسحق بن إبراهيم القول عليهم إلى أن القرآن مخلوق. فأجاب القوم إلا أربعة نفر، منهم أحمد بن حنبل وسجادة والقواريرى ومحمد بن نوح المضروب. فأمر به إسحق بن إبراهيم فشدوا فى الحديد، فلما كان من الغد دعا بهم جميعا يساقون فى الحديد، فأعاد عليهم المحنة، فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله، وأصر الآخرون على قولهم فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضا، فأعاد عليهم القول، فأجاب القواريرى إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما، ولم يرجعا، فشدا جميعا فى الحديد، ووجها إلى طرسوس، وهكذا كان من نصيب أحمد بن حنبل أن يذوق بعض الموت فى خلق القرآن، دفاعا عن فكره وإصراره على رأيه فى قضية أثارها الخليفة دون مامبرر. ولكن يبدو لى أن الأذى الذى يصدر عن الطغاة هو الغذاء المستمر لمواهب الرجل الحر.

ومن الملاحظ أننا نجد فى ضوء كحقائق التاريخ قد حكم مصر منذ عام ٥٢٥ ق.م حتى عام ١٩٥٣ ميلادية حكام أجانب، وقد أنقرضوا جميعا وبقيت مصر الخالدة لا تزال، انقرضت دولة اليونان ثم دولة الرومان التى أقامت البلاد تحت تصرف حكامهم نحو سبع مائة سنة فكانت تحسب ولاية من الولايات الرومانية، وفى روة الاضطهاد الوثنى كما سبق أن ذكرت بقيت مصر المسيحية صامدة حتى فتحها "عمرو بن العاص فى خلافة "عمر بن الخطاب" سنة ٦٤٠ ميلادية وتولى بعد عزله غيره من العمال إلى أن انتهت خلاقة الخلفاء الراشدين (وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى) إلى بنى أمية. فكانوا يرسلون لها عمالا من طرفهم مدة خلافتهم، وكانوا يسمون كما ذكرت من قبل عمال خراج مصر، ثم جاءت بعدهم الدولة العباسية واستمرت تابعة لها إلى سنة ٨٦٨ ميلادية حينما قام فيها "أحمد بن طولون" وصار سلطانا، وخلفته ذريته من بعده واستمر الحكم فى أيديهم ٣٨ سنة، وانقرضت الدولة الطولونية بعد حدوث فتن عندما عصاه ابنه العباس - وقد نصح احمد بن طولون وليه فلم يذعن، وانتهى الأمر بقتل عدد كبير من اتباع العباس الذى شاهد مقتلهم وتعذيبهم على يد ابن طولون، ثم حبس العباس بأمر أبيه، وظل فى الحبس حتى مات (فى عهد أخيه خمارويه)، وفى عهد "خمارويه" تزوجت ابنته "قطر الندى" من ابن الخليفة العباسى، ولكن الخليفة المعتضد اختارها لنفسه، وكان الإسراف فى جهاز العروس داعيا إلى إفقار خمارويه وحكومة مصر، وقد قتل بدمشق.

وبعد سقوط الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥م) عادت مصر إلى التبعية المطلقة للعباسيين، ولكن الوالى أصبح من الضعف بحيث استبد به الجند، ولم تستفد مصر فى خلال الفترة التى تلت سقوط الطولونيين حتى وليها الأخشيديون. واستمرت هذه الدولة فى خلال الفترة ٣٢٣ - ٣٥٨هـ = ٩٤٣ - ٩٦٩ ميلادية، وأسس الدولة الأخشيدية "محمد أبو بكر بن طغج" وعهد "الخلفة المتقى" لابن طغج بولاية مصر سنة ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ ميلادية. على اثر انتصاره على الفاطميين جين حاولوا غزو الديار المصرية سنة ٣٢١هـ. ومن الغريب ولا غرابة فى ذلك أن علاقة الإخشيد الفاطميين فى المغرب قد تجلت فى الحملات التى بعث بها الخلفاء الفاطميون لأخذ مصر وجعلها مقر خلافة فاطمية وطلبوا إليه نشر الدعوة الفاطمية فى مصر!

وقد اشترى محمد بن طغ الخشيد "كافورا" الذى كان مجرد مملوك دميم الخلقة، وحكم كافور مصر فى خلال الفترة ٣٥٥ - ٣٥٧هـ - ٩٦٦ - ٩٦٨ ميلادية.

ويكفينى أن أذكر بهذه المناسبة قصيدة الشاعر "أبو الطيب المتنبى" أشعر شعراء عصره ومنها :

عيد بأية حال عدت ياعيد	بما مضى ام لأمر فيك تجديد
جود الرجال من الأيدى وجودهم	من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه	ان العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمة	أقوامه البيض أم أباؤه الصيد
من كل رحو وكاء البطن منفتق	لا فى الرجال ولا السنوان ومدود
أكلما اغتال عبد السوء سيده	أو خانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصى إمام الآبقين بها	فالحر مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح بأخ	لو انه فى ثياب الخز مولود
ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن	يسئ بى فيه كلب وهو محمود

(انظر كتاب : على إبراهيم حسن، "مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى، القاهرة مكتبة النهضة، الطبعة الخامسة، ١٩٦٤، صفحات ٦٥ - ٩٨)

واستولت الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ ٩٦٩ - ١٧٧١ ميلادية) على الديار المصرية بعد إشعال المؤامرات وانتشار المجاعة فى البلاد، ومكث خلفاؤهم حوالى ١٩٩ عاما حاولوا فى خلالها نشر الدعوة الشيعية،

ولكنهم ما أن انقرضوا وذهب ريحهم عاد المصريون إلى المذهب السنى كما كانوا منذ عام ٦٤٠ ميلادية، وكان عدد هؤلاء الخلفاء أربعة عشر بمصر منهم ثلاثة أنفار ظهر وما توفى بلاد المغرب وأحد عشر بمصر، وأول الآخرين المعز لدين الله بن المهدى عبيد الله المغربى، ومن هؤلاء الخلفاء "الحاكم بأمر الله" وهو الخليفة الثالث.

ولى "الحاكم بامر الله" الخلافة حدثا دون الثامنة عشرة. وكان مولده بالقصر الفاطمى بالقاهرة المعزية فى الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٥هـ (١٤ من شهر أغسطس سنة ٩٨٥ ميلادية) وأمه أم ولد، وقد كانت حسبما تقول الرواية الكنسية المعاصرة جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية (الأقباط الكاثوليك) وكان لها أيام "العزيز" (أبى الحاكم بأمر الله) نفوذ عظيم فى الدولة، وكان لهذا النفوذ أثره ولا ريب فى سياسة التسامح الواضح التى اتبعها العزيز نحو النصارى وفى تقوية جانبهم ونفوذهم.

ومنح "الخليفة العزيز" ولاية عهده لابنه الحاكم منذ كان طفلا فى الثامنة (شعبان سونة ٣٨٣هـ) وبويع بالخلافة فى "بلبيس" يوم وفاة أبيه : ولوصى الخليفة قبل موته بولده ثلاثة من أكابر رجال الدولة هم : برجوان الصقلبى خادمه وكبير خزائنه، والحسن بن عمار الكتامى زعيم كتامة أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها، محمد بن النعمان قاضى القضاة

وكانت أم الحاكم، تشهد ولدها ينمو ويترعرع فى ظل هذه الوصاية.. الخطرة حيث كان التنافس بين الأوصياء يبدو صراعا علـى السلطة.. وانتصر "برجوان" على منافسيه أو بالأحرى على مصارعيه، واستمر يعامل الحاكم (الذى أشرف على الخامسة عشرة) معاملة الطفل المحور عليه. ومن ثم أضمر الحاكم التخلص منه أى من برجوان الوصى الطاغية، ودبر مكيدة أودت بحياة "برجوان" حيث أوعز لبعض مخلصينه فانقضوا عليه طعنا بالخناجر واجتزوا رأسه ودفنوه حيث قتل (ربيع الثانى ٣٩٠هـ - أبريل سنة ٩٩٩ ميلادية).

وكان الحاكم بامر الله صبيا فى نحو السادسة عشرة حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة، وعلى الرغم من صغر سنه فإنه كان حاكما حقيقيا

يقبض على السلطة بيديه القويتين، وتقدم الرواية الإسلامية إلينا الحاكم في صور مروعة مثيرة، وقلما كان يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم وفي الأحوال النادره التي كان ينجو المعزول فيها بحياته كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك، ومن حوادث القتل والسفك التي امعن فيها الحاكم : في سنة ٣٩٩هـ قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر - وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا. وهكذا استمر الحاكم في الفتك بالزعماء ورجال الدولة والكتاب والعلماء حتى أباد معظمهم، هذا عدا من قتل من الكافة في خلال هذه الأعوام الرهيبة وهنا نجد أوضح مثال للإرهاب في نظر الحاكم كوسيلة للحكم، وكان القتل المنظم دعامة هذا الإهاب الشامل. فإذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ، فإن القتل أنجح وسيلة لسحقه وسحق نفوذه، وإذا بدرت من فريق من الناس بادارة تذمر أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين، فإن إزهاق عدد منهم يكفل عودتهم إلى السكينة والخنوع، وكانت هذه السياسة التي كانت تحيط الحاكم بسياج منيع من الرهبة.

ولعني إذ أذكر للقارئ الكريم أني لا أبرر شيئا من إجراءات الحاكم بأمر الله وتصرفاته الدموية، إذا لاحظنا في عصرنا الراهن وفي أرقى الأمم، أقصد الأمم المتقدمه غربية كانت أو شرقية إذا لاحظنا مايحدث في الأمم المتخلفة بأنواعها - أنها في الأغلب الإعم تعتمد على النظم الطاغية حيث ترتكب المذابح باستعمال أحدث الوسائل المدمرة باسم سلامة الدولة وسلامة النظم القائمة (لعل ما يحدث في العراق وإيران وفي إسرائيل وفي معظم بقاع المعمورة في زماننا الحالي خير دليل وشاهد على ما أقول).انظر كتاب محمد عبد الله عنان : "الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، القاهرة مارس سنة ١٩٣٧، صفحات ٤١ - ٥٨).

واختفى الحاكم بأمر الله، أو في قول آخر قتل، وكان ذلك سنة ٤١١هـ ٩٩٦ ميلادية ويرجع ذلك إلى أن الحاكم وقع تحت تأثير جماعة من النفعيين أقنعوه بأن روح الله قد حلت في جسده حتى أمر الناس بعبادته، وقد حاولت أخته "ست الملك" أن ترد أخاها إلى الصواب فلم تستطع ونظرت إلى

الدولة فوجدت الشعب متذمرا والحكم منحلا، والدولة مشـرفة على الانهيار، وقد اختلفت الروايات فى كيفية قتل الحاكم بأمر الله، ولكن يقال إن أخته ست الملك كانت لها يد فى قتله.

(انظر كتاب : "مصر فى العصـور الوسطى من الفتح العربـى إلى الفتح العثمانى" صفحتى ١٤٣ - ١٤٤)

وعبر القرون فى عهد المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٤ ميلادية) والمماليك البرية (١٣٨٢ - ١٥١١٧ ميلادية) مرورا بالفتح العثمانى فى عام ١٥١٧ وحتى مذبحة القلعة فى يوم ٢ من شهر مارس عـام ١٨١١ ميلاديـة، كانت أعمال العنف سائدة وكان معظمها بين الحكـام بعضهم البعض، ومـع ذلك فإن حكمهم كان قاسيا جافيا من غير قاعدة وكـانوا يظلمون الرعيـة ولا يبالون بنجاح البلاد، واستمروا فى الظلم والطغيان إلـى سنة ١٧٨٩ ميلادية حين حضر "نابليون بونابرت" بأربعين ألفا من الجيوش الفرنسـية إلى مصـر وقهرهم وفرقهم فـى أقطـار الصعيد والحجـاز، واسـتمرت أحكـام البـلاد فـى قبضته مدة ثلاث سنوات إلـى أن استخلصتها الدولـة العثمانيـة (بالاتحـاد مـع الإنجليز) سنة ١٨٠١ ميلادية وأقامت عليها واليا وبقيت على تلك الحالة نحو ثلاث سنوات حتى تولى عليها "محمد على" وتسلم مقادير حكم البلاد فى عـام ١٨٠٥ ميلادية.

وبعد أن استتب الحكم محمد على، أى فى عام ١٨١١ ميلاديـة، أقـام حفلة لتناول القهوة فى سراى القلعة احتفالا بخروج "طوسون باشا بن محمـد على باشا" لمقاتلة الإرهابيين فى شبه جزيرة العرب، وغدر محمد على بقتـل من حضر من هؤلاء المماليك بقصد تصفيتهم حيث كـان يـرى أنهم أعداؤه الحقيقيـون وكـان عـدد ممن قتـل فـى هذه المذبحـة مـا يربـو علـى أربعمائـة مملوك، ولم يكتف محمد على بذلك بل قطـع دابـر كل من وقـف فـى وجهـه حتى الذين ساندوه من المصريين وعلى رأسهم "عمر مكرم".

وقد علق "الجبرتى" على هذه المذبحة ذاكرا :

"وختـم اللـه للجميـع (مـن ذبحـوا) بـالخير - فإنـه بلغنـى ممـن عـاينهم بالحبوس، وفى حالة القتل أنهم كـانوا يقـرأون القـرآن، وينطقـون بالشـهادتين

والاستغفار، وبعضهم طلب ماء وتوضأ وصلى قبل أن يرمى عنقه، ومن لم يجد تيمم"

(انظر كتاب : عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ الجبرتى" القاهرة مطابع الشعب، الجزء السابع، عام ١٩٥٩، صفحة ٨١٤).

والملاحظ أنه فى ضوء تاريخ المجتمع المصرى الحديث والمعاصر نجد بعض الأيام التى غيرت إلى حد كبير وجه تطور هذا المجتمع، ومن هذه الأيام حادثة الإسكندرية فى ١١ من شهر يونيو عام ١٨٨٢ (هزيمة الثورة العرابية) ويوم ٤ من شهر فبراير عام ١٩٤٢ (الذى هدد فيه الملك فاروق بالتنازل عن العرش) ويوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ (الذى احترقت فيه مدينة القاهرة).

وكان حريق القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ حادثا بالغ الخطورة فى مجال التآمر على الشعب المصرى، فقد كانت الحركة الوطنية المصرية فى ذلك الحين مشتعلة ضد الاحتلال الإنجليزى، وكان الفدائيون المصريون يحيلون معسكرات الإنجليز فى القنال إلى جحيم، وكانت حكومة "النحاس" قد أعلنت إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ ووقفت فى وجه الاحتلال موقفا وطنيا صريحا. من هنا بدأت المؤامرة لتصفية حركة الفدائيين، ولإشعال فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين المصريين كان إبراهيم فرج الوزير المسيحى فى وزارة الوفد قد رفض الاستقالة على الرغم من طلب بعض المسيحيين المصريين المتعصبين بإيعاز من المستعمرين الإنجليزى، ذلك منه وانتهى الحريق إلى جانب ما أحدثه من خسائر اقتصادية فادحة وخسائر أخرى فى الأرواح إلى إسقاط الحكم الوطنى بالفعل وإقالة وزارة النحاس بعد يوم واحد من الحريق، ثم محاولة فرض حكم إرهابى على الشعب لتنفيذ خطط الاستعمار والملك فاروق، وانتهى الأمر كله فى العام نفسه بقيام ثورة ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢.

وقد كنت فى مدينة لندن عندما احترقت مدينة القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢، وكنت اقرأ عن هذا الحادث الرهيب وما حدث بعده من حوادث فى جرائد لندن المختلفة الاتجاهات. وإننى أذكر أنه عندما

تولى "على ماهر" الوزارة بعد إقالة "النحاس" أننى قرأت فى إحدى الصحف "مانشت" يملا نصف الصفحة الأولى يصفه "على ماهر" بـ "رجل الساعة".

ويقول "محمد ونيس" فى كتابه "حوادث القاهرة" بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر شهر سبتمبر عام ١٩٧٢ مايلى :

وان الاستعمار الإنجليزى وبه "مخابراته" معروف بالتجانه إلى مثل هذه الأساليب من حرق وقتل واتخاذها ذريعة لإحداث ثورة مضادة وإخماد الحركة الوطنية ومن المسلم به تماما أن مصر عاشت فترة الثورة المضادة (القصيرة الآن) منذ يوم ٢٦ من شهر ينـاير عام ١٩٥٢ حتى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢.

وجدير بالذكر أن بيانات "الضباط الأحرار" عقب حريق القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير كانت تتضمن فى تحليلها "أن الإنجليز والمخابرات الإنجليزية" بصفة خاصة هى التى تقف وراء الحريق... (انظر صفحتى : ٥٢ و٥٣).

وقبل أن أختم الموضوع الذى اهتمت به هذه الدراسة عن "بعض المؤامرات السياسية" وبخاصة بعد حدوث بعض الوقائع الخطيرة التى كادت تودى بالقتل والدمار للسادة : اللواء (حسن أبو باشا) واللواء (محمد النبوى إسماعيل) والصحفى الكبير الأستاذ (مكرم محمد أحمد) - أجد أنه من واجبى أن أدلى بدلوى فى موضوع الجرائم التى ارتكبت تحت تاثير المعتقدات الدينية. إننى لن أتحدث عن الوقائع الخطيرة السابقة فهى فى يد القضاء ولا يمكن أن أتجاسر وأخوض فيها أو فى وقائعها حتى يقول القضاء كلمته.

ولكننى أهتم فى هذه الدراسة من الوجهة الاجتماعية بجماعتى "الفنية العسكرية" و " التكفير والهجرة" اللتين قد تم البت فيهما قضائيا فعلا وحقا وأرجو أن يعذرنى القارئ الكريم إذ إننى لم أتحدث عن "تنظيم الجهاد" الذى صرع بعض أعضائه الرئيس أنور السادات وآخرين فى يوم ٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٨١، وذلك لأن المعلومات عن هذا الحادث لا أعرف عنها شيئا لأنها ليست فى متناول يدى بدافع السرية التى فرضتها السلطات الرسمية عليها.

ومع ذلك فإنه كان من حظى أن اشترك فى إحدى الندوات التى قامت بإعدادها وحدة من وحدات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى عام ١٩٨٠ عن "الحركات الاجتماعية المتطرفة" فاننى أذكر أن تقرير هذه الندوة قد تبين أن الجماعتين من أولى الجماعات التى وصل فيها العنف الدينى إلى أقصاه فلقد ذهب ضحية هذا العنف فى "قضية الفنية العسكرية" نحو أربعة عشر فردا من طلبة وحرس الكلية الفنية العسكرية، ويبدو هذا العنف أيضا جليا فى قتل "الشيخ محمد حسين الذهبى" فى القضية "التفكير والهجرة".

وقد تبين أن لأعضاء "جماعة الفنية العسكرية" صفات مشتركة تتمثل فى أن عددا كبيرا منهم فى مرحلة الشباب، وأن القلة القليلة منهم قد تجاوزت هذه المرحلة، وتبين أيضا أن أغلبيتهم من الطلبة الملحقين بمراحل التعليم الجامعى والعسكرى، وأن عددا قليلا منهم ملتحقون بمراحل التعليم المتوسط، وأن القلة غير ملتحقين بالتعليم وإن كانوا يتمتعون بقدر لا بأس به من الاستيعاب لمبادئ التعليم وقد تبين كذلك أن أعضاء الجماعة الملتحقين بمراحل التعليم العالى من المتفوقين.

أما "جماعة التفكير والهجرة" فأعضاؤها ممن لم يتجاوزوا مرحلة الشباب وتبين أن مستوياتهم التعليمية فى نطاق مرحلتى التعليم الجامعى والمتوسط، وأنه لا يوجد بينهم أميون ويتميز أعضاء هذه الجامعة بوجود روابط قربى أو مصاهرة أو جيرة أو زمالة سابقة بينهم وقد أسهمت هذه الروابط فى توثيق روابط العقيدة وفى تجنب المخاطرة فى تجنيد أشخاص غرباء لا تكتمل عوامل الثقة بهم.

ويشترك أعضاء جماعة "الفنية العسكرية" فى الاهتمام والاستزادة من الثقافة الدينية معتمدين فى ذلك على الكتب والمجلات الدينية الشائعة، وخاصة ما يصدر منها عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ومجمع البحوث الإسلامية بعض الكتابات الدينية الأخرى كتابات "أبو الأعلى المودودى" فضلا عن الخطب التى تلقى ببعض المساجد والمناقشات الدينية التى تتم فى رحابها، وخاصة ما تعلق منها بنقد الأحوال الاجتماعية والسياسية للمسلمين (حكومات وشعوبا) والمطالبة بإصلاحها.

وقد نشئ أعضاء جماعة "التفكير والهجرة" فى بيئات تتسم بالالتزام الدينى أصلا، ويتمتعون بقدر من الثقافة الدينية، وهم يهتمون ثقافيا ودينيا، فى دعم العقائد والأحكام التى تؤيد فكر جماعتهم الذى يتضمن ضمن ما يتضمن الحماسة بالآيات والأحاديث التى يدعو إلى الجهاد وتفكير من يعارض هذا الفكر، وتراهم يدعون إلى الانعزال عن المجتمعات الراهنة لأنهم يرفضون أنظمتها وتشريعاتها. وتلعب المناقشات بين أعضاءها فضلا عن التوجيهات التى تصدر من "أمراء" الجماعة، دورا ملموسا فى بلورة فكر أعضاء هذه الجماعة وفى تكوينهم الثقافى، ومن ثم نجد المسئولين عن هذه الجماعة يوصون أعضائها بترك لكليات والمعاهد التى ينتمون إليها بحجة عدم جدوى ما يتلقون فيها من علوم فضلا عن مخالفتها لأحكام الدين، وهم أى أعضاء هذه الجماعة يقرأون أيضا الكتب والمجلات الدينية الشائعة، وبوجه خاص تراهم يقبلون على مؤلفات "ابو الأعلى المودودى".

ويبرر أحد امراء "جماعة الفنية العسكرية" ما اتخذته الجماعة من رسائل العنف الذى اتبعه أعضاء هذه الجماعة بأن الحوار مع السلطة كان قد فشل ويرجع ذلك إل أن الذى كان يدير هذا الحوار ضباط الشرطة، ويتساءل الأمير قائلا : كيف يأتى اللقاء الفكرى بين عقلية ضباط الشرطة أى عقلية الموظف الروتينى السلطوى وبين عقلية المفكر المثقف العقائدى ؟ ثم أكمل حديثه قائلا : إن الجماعة (جماعة الفنية العسكرية) تطرح هذا التساؤل لتثبيت أن هدفها لم يكن العنف وإنما هو توصيل الأمانة (يقصد الدين الإسلامى) إلى الناس وإنها ليست مجموعة من الشباب المضلل أو المغرور الذى ينساق وراء شخص معين نجح فى الاستخفاف بها ! ودلالة ذلك، كما يقول هذا الأمير، وجود المد السلامى رغم أن حسن البنا وسيد قطب وصالح سرية وشكرى قد قتلوا وانتهوا ويكرر قائلا : خلاصة القول إن فشل الحوار مع السلطة أدى بالجماعة إلى العمل "تحت الأرض" وإلى استخدام العنف كبديل لحرية الكلمة وللوصول المعلن.

وأرجو من القارئ الكريم أن أقف عند هذا الحد، وأرجو أن أكون قد أبرزت فيما ذكرت بعض الملامح الموضوعية التى وصل فيها العنف

الدينى، من وجهة النظر الاجتماعية إلى أقصاه فى نطاق "جماعة الفنية العسكرية".

وإننى اذكر أنه عندما ظهرت "جماعة التكفير والهجرة" فى المجتمع المصرى ظننت أن التاريخ يعيد نفسه وهذا ما لا أعتقده، ظننت أن الاضطهاد الوثنى الذى نكب به المصريون المسيحيون فى خلال الفترة من عام ٢٨٤ - ٣١٣ ميلادية واضطرهم إلى الفرار بعقيدتهم إلى صحراء (وقد ذكرت ذلك من قبل) وكانت فيافى مصر وقفارها حصنا أمينا وملاذا لهؤلاء الفارين بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولكنى وأنا المسلم الذى أخبر عن جده "سيدى عويس القرنى" أو " سيدى أويس القرنى" النبى صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر بن الخطاب بأنه سيظهر فى زمانه أى فى زمان سيدنا عمر، فأطلب منه أن يدعو لى، وظهر هذا الجد الكبير لى ودعا للنبى صلى الله عليه وسلم (كما ذكر لى جدى لأبى).. اللهم آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مكانا محمودا الذى وعدته.

ومن ثم فإننى استبعدت أن تكون "جماعة التفكير" التى يكفر أعضاؤها المسلمين من الناس فى المجتمع ويفرون إلى الصحراء قد فعلوا "أو يفعلون" ما فعله أجدادنا المصريون المسيحيون من قبل وقلت لعل هذه الجماعة إحدى الفرق الإسلامية المتطرفة وقد تأكد لى ذلك عندما استعملوا العنف بألوانه فى قتل أحد رجال الأزهر، اقصد "الشيخ محمد حسين الذهبى".

وليعذر لى القارئ الكريم إذا اكتفيت بالحديث عن فكر هذه الجماعة فيما يلى :

تضع الجماعة قاعدة خطيرة تزعم فيها أن أية معصية يقع فيها المسلم هى بمثابة وقوع فى الشرك، وفى رأيها أن المعاصى شرك بالله تعالى ويتساوى فى ذلك عند أعضائها أى معصية سواء أكانت صغيرة أم كبيرة فكلاهما شرك بالله تعالى.

ويدعى أعضاء الجماعة ان عدم أداء طاعة واحدة مفروضة تسقط بقية الطاعات الأخرى التى يؤديها المسلم، إذ لابد أن تؤدى جميع الطاعات المفروضة مجتمعة وإلا فكأنها لم تكن. ويقولون إن الإسلام ربط الطاعة

المفروضة كشرط فيه. ففريضة الصلاة والزكاة والحج وفريضة الجهاد والتوكل على الله وكذلك فريضة إكرام الضيف وإكرام الجار (لم تذكر فريضة صوم شهر رمضان العظيم)... كل هذه الطاعات المفروضة شرط في الإسلام وغياب أى طاعة منها محبط للجميع وكأنها لم تكن.

- وتقول الجماعة إن الإصرار على معصية واحدة كفر بالله العظيم ومحبط لكل أعمال البر وإن كانت كجبال تهامة.

- تحكم الجماعة بالكفر على كل مسلم تبلغه دعوتهم ثم لا ينضم إليهم.

- وقد وصل الأمر بالجماعة أن رفضوا الإقرار بأن الإمامين مسلم والبخارى من المسلمين وذلك ما تعتقده الجماعة أن مدار نقل الخبر - أى خبر - يبنى على الصدق وليس على الإسلام.

- وترى الجماعة أن الكافر أصل الحكم فيه أنه حلال الدم والمال والعرض وان لكافرين مستحقون للقتل سواء أكانوا جماعة أم أفرادا.

وفى صدد الحديث عن الهجرة نجد أن جماعة "التكفير والهجرة" تدعى أن أرض مصر هى أرض كفر وأرض حرب. وأنه تجب الهجرة منها إلى الجبال والكهوف للإعداد لمقاتلة أهلها من أجل إقامة الإسلام أى أن خطة الجماعة تتمثل فى ضرورة الهجرة ثم يبدأ القتال دفاعيا ثم هجوميا تبعا للواقع. أما الدليل الذى تعتمد عليه الجماعة فى ضرورة وجوب هذه الهجرة فهو قوله تعالى :

"إن الذين توفاه الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا" (٤ م سورة النساء : آية رقم ٩٧)

وهم أى أعضاء جماعة التكفير والهجرة يرون أن هذه الآية تعنى أن وجود الإنسان فى أرض الكفار يدفعه إلى الوقوع فى المعصية وممارسة الفحشاء فيكون مأواه جهنم. ولهذا فإن الهجرة واجبة عليه تجنبا لذلك.

(انظر كتاب : حامد حسان وآخرون : "مواجهة الفكر المتطرف في الإسلام : مناقشة موضوعية لأفكار جماعة التكفير والهجرة من واقع سجلات المحكمة"، (الطبعة الثانية) القاهرة، مطبعة الجبلاوى، عام ١٩٨٠، صفحات ٢٠ - ٢٢ و ٤١).

١٢-دور القادة الثقافيين

يقصد بالقادة الثقافيين فى الدراسة الحالية أعضاء المجتمع.. أى مجتمع الذين يؤهلون تأهيلا مقصودا لكى يؤدوا دورهم أو أدوارهم الثقافية فى هذا المجتمع. أى لذين اتخذوا العمل الثقافى (بمعناه العلمى) مهنة لهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه والملاحظ أن هؤلاء القادة هم بعض أعضاء المجتمع الذين يعملون بالضرورة من أجل أعضائه وبهم، والملاحظ أيضا أن ميادين العمل الثقافى فى المجتمع تكون بالضررو، أيضا ميادين شتى، وأهم هذه الميادين هى ميادين الإعلام والخدمة الاجتماعية والوعظ الدينى والتعليم والتربية. فالصحفى والإذاعى ومن يعمل فى مجالات التليفزيون والمسرح والشاشة الكبيرة هم من القادة الثقافيين والإخصائى الاجتماعى الذى يعمل فى ميادين الخدمة الاجتماعية العديدة ومجالاتها، وإمام المسجد وواعظ الكنيسة ومن فى حكمهما، والمدرس والمربى هو ايضا من القادة الثقافيين.

إن كل هؤلاء من أعضاء المجنمع الذين يؤهلهم هذا المجتمع تأهيلا مقصودا لكى يؤدوا دورهم أو أدوارهم الثقافية فيه. أى الذين قد يسمون أحيانا "بالعقلانيين" وأحيانا أخرى "بالانتليجنسيا" وأحيانا ثالثة "بالمفكرين" الذين يعلمون "بالقلم أو مافى حكمه بعقولهم وبأحاسيسهم ووجدانهم وخيالاتهم أكثر من أيديهم وفئوسهم هم حملة الأقلام وهم الممثلون والإذاعيون وهم حملة الفرشاة من الفنانين ومن هؤلاء أقصد الفنانين نجد الفنانين التشكيليين والمصورين والفنانين الموسيقين وغيرهم وغيرهم.

والقادة الثقافيون فى المجتمع.. أى مجتمع الذين ذكرتهم ليسوا بالضرورة هم القادة الثقافيون الوحيدون فى هذا المجتمع إنهم بعض القادة الثقافيين فحسب. فالآباء والأمهات ورجال الحكم والرؤساء وكبار السن فى المجتمع وبخاصة فى الريف، ورجال الطرق الصوفية وأمثالهم هم أيضا قادة ثقافيون و هم فى الأغلب الأعم فى حكم هؤلاء القادة (بالمعنى العام) ومع ذلك فإننى أولى اهتماما كبيرا بالقادة الثقافيين الذين اتخذوا العمل الثقافى مهنة

لهم. فهم عندى القدوة التى يجب أن تكون حسنة وهم إذا كانوا صادقين أقصد أعمالهم تكون صادقة نتوقع التعرف على الواقع الراهن، بحلوه ومره، كما نتوقع التعرف على المستقبل القريب أوالبعيد ولا يعنى هذا عندى أننى لا أهتم.فالأخيرون رجال الحكم منهم لأهميتهم القصوى يجب أن يكونوا مجالات بشرية لدراسة أو دراسات خاصة.

ومهمما يكن من الأمر فالملاحظ أن فئة القادة الثقافيين فى المجتمع.. أى المجتمع.. فئة تؤدى بالضرورة واجبات خطيرة فى هذا المجتمع. فأعضاؤها هم، كما سبق أن أوضحت فى حقيقة الأمر، الذى يقودون كل ما يعمل فى المجتمع من يعمله وكل ما يقال فيه ومن يقوله، وكل ما يصنع فيه ومن يصنعه، ويحددون وقت حدوث هذا العمل وهذا القول وهذه الصناعة كما يحددون الظروف التى تحدث فى ظلها. أى هم فى حقيقة الأمر بعض رموز النظام الاجتماعى المجتمع وهم أيضا لسان حاله، وهم بفضل ذلك يكونون جزءا من شخصيات أعضاء المجتمع الذى يعيشون فيه ويعملون إذا كانوا صادقين من أجل أعضائه وبهم. (انظر كتاب : سيد عويس : "عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى" بيروت، ١٩٧٣، صفحة ١٥٦)

وإذا درسنا المهام التى يجب على القادة الثقافيين المصريين أن يأخذوها على عاتقهم كواجب أو واجبات من الضرورة أن يقوموا لها من أجل مصر وبخاصة فى الوقت الراهن، فإننى اتساءل ومن حق القارئ أن يتساءل كما أتساءل : هل هذه المهام تعنى مواجهة المشاكل العديدة التى تواجهها البلاد وبخاصة المشاكل الاقتصادية التى تواكبها عادة مشاكل اجتماعية وثقافية وسياسية وتحتاج إلى حلول تتفق مع ظروف المجتمع المصرى النامى مع تميزه حيث إنه مجتمع له أصالة ومراحل تاريخية لا ينكرها إلا مكابر - هل هذه المهام تعنى أن المناخ الاجتماعى لهذا المجتمع يجب أن يتغير تغيرا مقصودا ؟ (يقصد بمفهوم "المناخ الاجتماعى" السمات العامة للاتجاهات الاجتماعية الشائعة وخصوصا تلك التى ثبتت منها نسبيا، فتبلورت فى عادات اجتماعية مرعية : أعراف وقوانين) أو يجب أن يتغير بعض نواحيه ؟ وهل ذلك يقتضى بالضرورة وجود الاستعداد لهذا التغيير

عند أعضاء المجتمع ؟ وكيف يوجد هذا الاستعداد عند أعضاء المجتمع أو حتى عند قادته إذا لم يكن موجودات ؟ وهل يأتي الاستعداد عن طريق القهر؟ وهل يحتاج تكوين الاستعداد للتغيير إلى مدة ؟ وهل يحتاج تكوين الاستعداد إلى ممارسة ؟ هل يحتاج تكوين الاستعداد إلى توعية معينة مستمرة ؟

وهل يكفي وجود الاستعداد للتغيير عند أعضاء المجتمع المصرى أو حتى عند قادته، أو الذين فى حكم هؤلاء القادة، وحده ؟ وإذا كان الجواب عن هذا التساءل بالنفى فهل لابد من وجود الإمكانات التى تحقق مطالب الاستعداد ؟ وما هى هذه الإمكانات ؟

ولكن لماذا غير المصريون، على مدى تاريخهم الطويل الكثير من العناصر الثقافية المادية وغير المادية ؟ لماذا جدد الزارع المصرى فى الحقل لأدواته فى الزراعة والرى ونوع فيها على مر الزمن ؟ لماذا جدد أنواع الحيوان المستأنس وأضاف إليها مالم يكن معروفا من قبل ؟ ولماذا غير المصريون لغتهم التى يتكلمون والتى يكتبون بها أكثر من مرة فى خلال تاريخهم ؟ ولماذا استبدلوا بدينهم دينا آخر مرة أو مرتين ؟ هل الاستعمار الطويل الذى عاناه المصريون مسئول عن قهر وجود الاستعداد للتغير أو فى محيط بعض العناصر الثقافية ؟ هل كانت رواسب الظلم والقهر والاستبداد الناتجة عن هذا الاستعمار الطويل المستمر مسئولة عن معاناة الكثير من المصريين المستمرة من مواجهة المجهول ؟ ومن ثم نجدهم متمسكين بمواجهة الانتظار فى صوره المختلفة ؟

(انظر كتاب : "من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة إرسال لرسائل إلى ضريح الإمام الشافعى" صفحات : ٣٨٥ - ٣٨٧.

إن محاولة الخوض فى هذه الموضوعات كانت ولا تزال همى الأول، كما كانت حافزا لى لكى أنشر العديد من الكتب عنها، وخاصة ما وصلت إليه حتى كتابة هذه السطور إن المجتمع المصرى على الرغم من كل شئ، سواء أكان هذ الشئ ظلما أم ظلاما، قد عاش أعضاؤه لا يزالون وتجد الخريطة المصرية بين خرائط بلدان لعالم باقية لا تزال. صحيح أن الكثير من العناصر الثقافيه المصرية بعثه لا يزال مستمرا معنا (أقصد مع

المصريين المعاصرين) فى نفوسنا وفى وجداناتنا حتى الان لكن المجتمع المصرى بقدر ما أعطى إلى الدنيا أخذ منها مايرى الإفادة من ضرورية وغير ضارة فمصر كما أوضحت فى البحوث والدراسات العلمية التى قمت بإجرائها والتى أشرفت على إجرنها والتى نشرت على الملأ أو تلك لتى لما تنشر حتى الان - قد أعطت وكانت تأخذ، أعطت اليونان والرومان قبل أن تأخذ منهما وفى أثناء نير استعمارها لها. فقد عب الأغرقيون من فروع العلم المقدس المصرى ونقلوا غلى بلادهم ما كانوا يرون أنها تحتاج إليه من علوم ومعارف، وقد أعطت مصر فى خلال حكم الرومان حيث غزت الرومان بثقافتها فى عقر عقولهم، وحتى فى للغة التى نتحدث بها ونكتبها نحن المصريين نجد العديد من الألفاظ الفارسية.

وقد ينسى البعض أو يتناسى، ماسبق أن ذكرته ونشرته من ان العناصر الثقافية التى أتى الذين الإسلامى الحنيف بها إلى مصر لم تكن غريبة عن العناصر الثقافية المصرية القديمة تماما مثلها مثل العناصر الثقافية التى أتت بها الديانة المسيحية، وأرجوا أن يتذكر القارئ الكريم ما ذكرته من قبل حول هذا الموضوع من حيث إنه عندما دخلت الديانة المسيحية ثم الديانة الإسلامية إلى مصر لم يجدا فى شعب مصر أرضا بكرا أو صحراء جرداء.

ويشهد التاريخ بأن مصر فى ضوء اقتناع أبنائها، قد احتفظت بالدين الإسلامى وتعاليمه وحفظته من الشوائب فى معظم الأحيان، وعلى الرغم من معاناة اللغة القبطية المصرية وكفاحها ضد تسلط اللغة العربية حتى القرن الثامن عشر ميلادية، فإن مصر قد حافظت على اللغة العربية من الشوائب كذلك، ومع ذلك فإننى أعترف بأن الدين الإسلامى دين متغير زمانا ومكانا. فالواقع يؤكد أن الإسلام الخلفاء الراشدين غير إسلام العصر الحاضر، وأن الإسلام فى المجتمع المصرى غير الإسلام فى المجتمع الاندونوسى وأن الإسلام فى السعودية غيره فى إيران.

وقد أثبت فى بعض بحوثى ودراساتى العلمية أنصرنا الخالدة تمتاز تاريخيا بالاستمرارية ليس فقط فى العناصر الثقافية المادية (أدوات الزراعة بكل أنواعها من عهد "مينا" إلى عهد "محمد على" بخاصة مثلا) وفى

العناصر الثقافية غير المادية (التى لا يمكن فى رأيى وضع فاصل بينهما وبين العناصر الثقافية المادية) وذلك لأن العنصر الثقافى المادى يؤثر فى العنصر الثقافى غير المادى والعكس صحيح. والأمثلة فى الواقع الحى فى المجتمع.. أى مجتمع شاهدة على ما أقول. فجهاز "التليفزيون" (عنصر ثقافى مادى) فى المجتمع المصرى يختلف ما يبثه اختلافا بينا عما يبثه التليفزيون فى المجتمع الغربى (عناصر ثقافية غير مادية) مثلا. (انظر دراسة سيد عويس عن موضوع "حول موضوع الهوية والتراث وجهة ثقافية اجتماعية مصرية" بحوث ومناقشات ندوة "تكنولوجيا تنمية المجتمع العربى فى ضوء الهوية والتراث" المركز الإقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية، العربية للدراسات والنشر، ٩ - ١٠ من شهر نوفمبر ١٩٨٥، صفحات : ٢٢١ - ٢٢٣ و٢٢٧ - ٢٢٩)..

وأرجو من القارئ الكريم ألا يمل إذا حاولت أن أحدد فى حدود قدراتى وخبراتى المحدودة بعض مهام القادة الثقافيين المصريين المعاصرين، ومن حق القارئ الكريم ان يوافق على ما وصلت إليه ومن حقه أيضا أن لا يوافق. وأننى بكل تواضع صادق أذكر مايلى :

- أن المجتمع المصرى المعاصر يواجه مشاكل عديدة منها وأهمها المشاكل الاقتصادية، والملاحظ أن المجتمع المصرى ليس فريدا فى مواجهة هذه المشاكل بل إن العالم الغربى وبخاصة البلاد الرأسمالية المتقدمة اقتصاديا تعيش فى وجل منذ فترة طويلة حتى وقتنا الراهن من أن تحدث كارثة الركود أو الكساد الاقتصادى كما حدث ذلك فى أوائل الثلاثينيات من القرن الحالى، صحيح أن التنبؤات بهذا الخصوص متضاربة ولكن لا يخفى على المتتبع الواعى النظرة المتشائمة التى يحس بها المتخصصون فى ظل المناخ الاقتصادى، فى الوقت الحاضر.

- والمعلوم أن المشاكل الاقتصادية إذا لم تحل حلا مواتيا يواكبها عادة مشاكل اتماعية عديدة منها بل أهمها مشاكل الانحراف بأنواعه : فقد يكون هذا الانحراف سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا.

- وإذا كان مجتمع مصرنا الخالدة، كما ذكرت ذلك مرارا مجتمعا قديما (عجوز) فإن هذا المجتمع فى الوقت الحاضر أصبح مجتمعا شابا، فهو

يموج بالشباب والأطفال. والأخيرون (أى الأطفال) من سن ١٥ سنة فأقل يكونون مايزيد على خمسى أعضاء هذا المجتمع. وإننى أرى أن هؤلاء الأطفال فى مسيس الحاجة إلى اهتمام القادة الثقافيين المصريين.

– لأن اهتمام القادة الثقافيين المصريين بهؤلاء الأعضاء، ذكورا كانوا أو إناثا، يعنى الاهتمام بتكوينهم لكى يصبحوا مواطنين صالحين، أى ليكونوا مواطنين يعرفون حقوقهم فيطلبوا تحقيقها، كما يعرفون واجباتهم فيؤدوتها فى ضوء مبادئ المجتمع المصرى وقيمه ومثله العليا، وأرجو أن يلاحظ القارئ أننى طالبت فى الفقرة السابقة بالتعرف، أقصد تعرف أطفال المجتمع على حقوقهم قبل التعرف على واجباتهم، وذلك لأنهم كما ذكر غيرى مرارا وكما ذكرت أيضا مرارا وتكرارا ليسوا فقط فى حاجة إلى الاهتمام الواعى ولكنهم أيضا يكونون تربة صالحة لتغرس فيها الاتجاهات القويمة التى ينبغى أن يشبوا عليها لكى يستطيعوا أن يواجهوا نتائج العلم العصرى فيستوعبوها والتكنولوجيا الحديثة فيطبقوها.

– وإننى أؤكد على غرس الاتجاهات القويمة لمن هم فى سن ١٥ فأقل عن طريق أجهزة التنشئة الاجتماعية المختلفة التى توجد فى كل المجتمعات : البدائية منها والمتحضرة على السواء – لأن أعضاء هذه الفئة من أعضاء المجتمع المصرى المعاصر سريعو الإيحاء ومايرونه أو يمارسونه يكون لديهم اتجاهات وليس مجرد آراء وذلك لأنهم مازالوا يواجهون مشكلة تكوين شخصياتهم بمحدداتها التكوينية والثقافية الاجتماعية فضلا عن النفسية والعقلية على عكس أعضاء المجتمع الكبار الذين قد اكتملت شخصياتهم ويقومون فعلا بتأدية أدوارهم الاجتماعية التى نشئوا على ممارستها سلبا أو إيجابيا فى المجتمع.

١٣– غرس القيم ذات الأهداف الحميدة فى نفوس المواطنين :

لا يمكن أن نغرس قيما ذات أهداف حميدة أو غير حميدة فى نفوس المواطنين إلا بالتربية الخلقية (بمعناها العلمى) وحق القارئ الكريم على الكاتب أن يعرف أول ما يعرف "معنى مفهوم التربية ومعنى مفهوم الأخلاق"

فالملاحظ أن المفهومين من المفاهيم الإنسانية التى تكون فى الأغلب الأعم مفاهيم غامضة أى لها معان عديدة وهى أيضا مفاهيم فضفاضة أى لها صور متعددة وقد تستخدم فى بعض الأحيان فى مواقف متناقضة.

ومفهوم "التربية" قد تعددت معانيه ودلالاته ومع ذلك فإننى أرى أنه ينبغى أن نفهم التربية على أنها عملية تغيير بواسطتها ينمو الإنسان وهو يبدأ دورة حياته (أدوار الطفولة والشباب والرجولة والكهولة والشيخوخة) : أى وهو فى دور الطفولة. ثم ينمو الإنسان ويزدهر وتتفتح ملكاته وقدراته فى مراحل دورة حياته، وهو أى الإنسان إذ يفعل ذلك فإنه يكون نفسه ويتحول هوذاته، مع تكوينه وتحويله الآخرين والبيئة التى يعيش فيها. إن عملية التغيير هذه تهدف أولا وقبل كل شئ إلى إعداد المواطن (الإنسان) لكى يستطيع أن يؤدى أدواره الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع الذى ولد فيه ويعيش. إنها عملية تكوين الشخصية، أى عملية جعل "الفرد" "شخصا" أى فردا له شخصية اجتماعية، أى يكون المواطن شخصا ذا اتجاهات فكرية نحو من يحيط به بة من الناس سواء كانت هذه الاتجاهات مما يفيد أو يضر المجتمع وجماعاته، وتكون فائدته للمجتمع وجماعاته فى ضوء قيم هذا المجتمع، ويكون ضرره فى نفس هذا الضوء. أى أن قيم المجتمع قد تكون قيما إيجابية (أى أهدافها حميدة) قيما بناءة تكون من وراء أفكار أعضاء المجتمع ومن وراء اتجاهاتهم ونظرتهم نحو الامور والأشياء والأشخاص أى نحو الحياة التى يعيشونها أو التى يصنعونها أو التى يكحاولون صنعها على السواء، وهى قيم بناءة (بالمعنى السابق) لأنها تدعو إلى "الخير" ولا تدعو إلى "الشر" وأعنى بالخير هنا كل ما يعين على العمل الصالح من أجل الآخرين، أى كل ما يعين على التغيير إلى الأفضل وإلى الأقوى وإلى الأعظم. ومن ثم فهى قيم حميدة تدعم الروح المعنوية فى صفوف أعضاء المجتمع أى مجتمع "وترتفع" بهذه الروح وتثبتها وتقويها، وقد تكون قيم المجتمع وجماعاته على العكس ذلك - قيما سلبية - أى قيم أهدافها غير حميدة لا تدعو إلى الخير العام بل تدعو إلى الشر العام، أى تدعو إلى ما يعين على العمل غير الصالح من أجل الآخرين. (انظر : أولا، "من مفاهيم الدراسة الحالية"، رقم ٢).

وفى ضوء ما ذكر عن القيم الاجتماعية سابقا، أجد من واجبى شرح مفهوم هذه القيم إنها فى بساطة الأشياء التى تكون ذات قيمة معينة عند جماعة من الناس، مجتمعين أو موزعين، وتتبت القيم الاجتماعية، عادة عن طريق الرأى الجمعي لهذه الجماعة. أى أن هذه القيم لا يمكن أن تفرض من الخارج على الجماعة فرضا، ولكنها تتولد من الظروف المعاشية التى تحياها وتكون مقبولة ومعترفا بها عندها.

ويلاحظ أن الأشياء المادية تمثل أنواعا متباينة من القيم. ذلك لأن هذه الأشياء هى فى الواقع موضوع اهتمامات إنسانية متباينة قد تكون اهتمامات مادية أو اقتصادية أو معنوية فقطعة الخشب إذا صنعها نجار صارت مكتبا تمثل قيمة مادية، أى تصبح ذات قيمة نفعية، والمكتب ذاته كنتاج للعمل الإنسانى يحتوى على قيمة اقصادية، وإذا عالج قطعة الخشب ذاتها فنان أصبحت قطعة فنية ذات قيمة جمالية. ونجد قطعة الخشب، فى كل العلاقات السابقة، ليست فقط شيئا ماديا بل ظاهرة اجتماعية كذلك، أى أنها شئ ذو منفعة وسلعة ونتاج عمل فنى جميعا. أى هى موضوع اهتمامات إنسانية.

ويلاحظ أيضا أن ظواهر الوعى الاجتماعى وتتمثل فى الأفكار لها كذلك قيم، وعن طريقها يعبر الناس عن اهتماماتهم فى أسلوب أيديولوجى معين. فأفكار الكفاية والعدل والوسائل التى تحققها تتضمن فى الواقع اهتمامات فئات من أعضاء الشعب كما تتضمن أعمالهم ورغباتهم وإرادتهم، فضلا عن الأهداف العلمية للمؤسسات السياسية أو الاجتماعية التى تضمهم. ثم نجد أن هذه الأفكار كهدف لهذه الفئات من أغضاء الشعب أو كموضوع أمالهم أو كحلم يهدى أعمالهم هى.. أى هذه الأفكار فى الواقع فى الواقع مثل عليا أو قيم من القيم المعنوية.

ويلاحظ كذلك أنه بالإضافة إلى القيم المادية والاقتصادية والجمالية نجد أيضا القيم الأخلاقية، ونجد المجتمع أى مجتمع لكى يوجه أنماط سلوك أعضائه أو ينظم هذه الأنماط، يخلق عادة جهازا من المفاهيم الأخلاقية والمثل العيا وأساليب تقييم هذه الفعال، وهذه كلها من قبل القيم الأخلاقية.

وإذا كان "مفهوم التربية" يعنى كما سبق أن أوضحت، أنه عملية تغيير الفرد فى المجتمع لكى يكون شخصا أو فردا ذا شخصية له أدواره الاجتماعية التى يؤديها فى المجتمع. فإن مفهوم "الأخلاق" هو أنماط السلوك التى تصدر عن أنماط الشخصية الاجتماعية عندما تواجه الحياة بظروفها ومواقفها الاجتماعية.

والملاحظ أن أنماط السلوك البشرية عديدة ومتباينة ومتناقضة جميعا، وقد تكون أنماطا فاضلة أو أنماطا غير فاضلة، والخلق الفاضل هو ذلك الذى يرمى إلى أفضل الحالات الاجتماعية وفى الوقت نفسه يسعى ويعمل بعقل وروية على تخير الوسائل التى يدرك هذا الغرض الأسمى. والخلق غير الفاضل يرمى إلى العكس. أى يرمى إلى أسوأ الحالات الاجتماعية التى ترمى بدورها إلى السلبية والهدم، أى إلى الشر، أى ترمى إلى ما يعين على غير الصالح من الآخرين أى أننى لا أرى مايراه البعض أى أن الخلق شئ داخلى أو هو الدافع الذى يحرك الإنسان للفعل وأما الفعل نفسه فهو السلوك. أى أن للخلق هو شئ باطنى فى الإنسان لا علاقة له بالبيئة الاجتماعية إلا عن طريق شئ آخر هو السلوك. أى أن الناظر إلى الإنسان لا يرى الأخلاق وإنما يشاهد العمل أو الفعل أو بعبارة أخرى أن أحد هذين الأمرين هو سبب والآخر نتيجة له. فالأخلاق هى السبب، والسلوك أو العمل هو النتيجة - إن هذه فلسفة ثنائية - ولكن فلسفة الدين الإسلامى الحنيف هى التوحيد، وهذا بخلاف ما يقبله أهل الغرب الذين وجدوا متسعا فى بيئتهم لجميع الفلسفات من توحيدية وثنائية وحتى جمعية. فالملاحظ أننا أمعنا النظر لوجدنا أن الأمر بخلاف ذلك. فمثلا قد توجد حالة تطلب من الكائن الحى (الشخص) أن يعمل أو ينشط فترى هذا الشخص يأخذ فى التفكير - أى فى "غربلة" اختباراته السابقة بقصد امتشاف الصلة أو المشابهة بين هذه الحالة التى تستدعى عملا ونشاطا وبين ما مر عليه فى عهده السابق. وعندما يكتشف المتشابهة فى الحالتين يشرع فى البحث عما عمله فى الحالة الأولى أى أن يراجع استجابته السابقة لتلك الحالة - تلك الاستجابة التى أتت بالغرض فى الدفعة الأولى، ثم يتخيل أنه عمل فى هذه الحالة الراهنة ما عمله فى الأولى، وبالطبع يقدر لفعله الحالى نتيجته التى قد تترتب عليه وبعد أن يفرغ من كل هذا يشرع فى العمل المادى الظاهر، ويتحول مجرى التفاعل فى نفسه من تفاعل نفسانى

داخلى مستتر إلى فعل ظاهر صريح (سلوك بشرى) وكل هذه العملية هى عملية متصلة ليس لها انقطاع وليس لجزئياتها انفصال. (انظر : يعقوب فام : "التربية والأخلاق" القاهرة : مطبعة المجلة الجديدة، عام ١٩٣٠ صفحتى : ٢٦ - ٢٧).

وفى ضوء ما سبق يمكن القول بأنه إذا كان السلوك البشرى يصدر عن الشخصية الإنسانية فى ضوء محدداتها ومنها خبراتها الثقافية الاجتماعية، فالملاحظ أن القيم الاجتماعية تؤدى فى هذه العمليات دورا خطيرا، والملاحظ أيضا أن مصادر هذه القيم الاجتماعية بأنواعها العديدة، عديدة كذلك منها وأهمها التراث الدينى (وبخاصة التراث المسيحى والتراث الإسلامى) والتراث التاريخى (التاريخ القديم والمتوسط والحديث جميعا)، والتراث الأدبى والفنى (بكل أنواعهما وصورهما من شعر وأدب وفنون تشكيلية وتصويرية ومسرحية وسينمائية وما تعلق بها) ومنها المثال الشعبية (سواء كانت مكتوبة أو غير مكتوبة تحيا فى نفوس أعضاء المجتمع ووجداناتهم).

١٤- الوعى باستغلال مفهوم الوطنية فى سبيل مصالح تجار الحروب :

عندما تحدثت عن موضوع "مفهوم الضمير الإنسانى فى التراث الثقافى الاجتماعى المصرى" من قبل تحدثت عن مفهوم "التربية" كما تحدثت عن مفهوم "القيم الاجتماعية" (انظر أولا - من مفاهيم الدراسة الحالية، بند رقم ٢) كان حديثى فى هذا البند مقتضبا ولكنى توسعت فى شرح مفهوم التربية وأضفت إليه مفهوم "الأخلاق" فضلا عن مفهوم "القيم" سواء أكانت أهدافها حميدة أم غير حميدة. (انظر : خامسا - العمل من أجل السلام، بند رقم ١٣).

وابدأ حديثى الآن عن "مفهوم الوطنية" على أساس أنه من القيم الاجتماعية الأولى حيث نجد أن "ظاهرة الوطنية" تتضمن حب الوطن، والشعور بالانتماء إليه والولاء له والوفاء بحقوقه، وقد تعمدت ذكر "ظاهرة الوطنية" على أساس أنها فى رايى (المتواضع) تعتبر "قيمة مركبة" ذات

أهداف إيجابية (حميدة) أحيانا أو أهداف سلبية (غير حميدة) أحيانـا أخـرى، أى أنهـا صـور عديدة من القيم ذات الأهداف الحميدة أو الهـداف السـلبية فظاهرة الوطنية ليست فقط قيم حب الوطن والشعور بالانتماء إليه والولاء له والوفاء بحقوقه، بل هى أيضا لكى تتحقق كل هذه القيم بالإضافـة إلـى قيمـة الإيمان وقيمة العطاء وقيمة البذل وقيمة التضحية فضـلا عن قيمـة التعـاون. أى أن هـذه القيـم إذا كـانت أهدافهـا حميـدة لابد أن تكـون مـن وراء سـلوك المواطن الصالح.

والملاحظ أن معنى ظاهرة الوطنية الذى أقصده فـى هـذه الدراسـة لا يعنى فقط مجرد حب مكان إقامة الإنسان ومقره وإليه انتمـاؤه ولـد بـه أو لـم يولـد وإنمـا يعنـى كذلـك حـب وطـن الأسـلاف والإخـلاص لأرضـه وتقـاليده والدفاع عن سلامته. وأن ظاهرة الوطنيـة ترتكـز علـى التجـارب التـى تنمـو بمرور السنين منذ الطفولة وعهد الشباب، كمـا ترتكـز أيضـا علـى الارتبـاط بالأرض والبيئة وهى أقصد ظـاهرة الوطنيـة تثـير عـادة مشـاعر عميقـة فـى نفس المواطن.

وفى ضوء وقائع التاريخ نلاحظ ان ظـاهرة الوطنيـة ترتبـط ارتباطـا كبيرا بالحروب القومية وبالحروب الامبريالية، ونجد أن هذه الحـروب تـبرر باسم الوطنية ما تقوم به من استغلال باسـم الوطنيـة التـى يغـرس قيمتهـا فـى نفوس المواطنين من أبنائه الذيـن يسـتعملون أدوات الدمـار والعنـف والقسـوة ضد المواطنين المستضعفين الذين لايستطيعون مواجهة هذه الأدوات المدمرة ليس فقط لأنهم لايملكونها ولكن أيضا إذا ملكوها لايسـتطيعون الإفـادة منهـا، وذلك لأن التدريب عليها يكون عادة قاصرا وقد يرجع ذلـك إلـى أن مسـتوى العلم يكون أيضا قاصرا فضلا عن المستوى العـام لتطبيقاتـه مـن ثـم يكـون منخفضا.

إن الطرفيـن القـوى والمستضعف قـد غرسـت فـى نفـوس أعضـاء مجتمعاتهم قيم ظاهرة الوطنية ولكن الأقوى (وهم المستعمرون فى كل زمـان ومكان) يستغلون مفهوم الوطنية فى محيط اعضاء مجتمعـاتهم، جنـودا كـانوا أو مواطنين عاديين، ليزدادوا قوة على قوة، وليستغلوا ثروات المسـتضعفين وإذ أقول المواطنين العاديين فإننى أعنى مـا أقـول. فقد يكـون هـؤلاء عمـالا

فيعملوا أكثر واكثر، وقد يكون هؤلاء رجالا تحتاجهم ساحة الوغى فتحل محلهم النساء لكى يعملوا ما كان الرجال يعملونه وقت السلام.. إلخ كل ذلك يحدث أمام أعيننا فى الوقت الراهن، كما حدث فى الماضى، باسم الوطنية وحتى يستطيع بائعو الأسلحة أن يبيعوا أكثر وأكثر ليربحوا أكثر وأكثر ذلك إجابة أحد سفراء جمهورية الصين عندما عاتبه أحدهم للسماح ببيع الأسلحة لإيران فقال له إن ٤٠ دولة أخرى تبيع لإيران الأسلحة!

والدمار الذى هو وليد العنف يكون من نصيب كبار السن وغير القادرين وغير القادرات على خوض غمار الحرب أو العمل فى المصانع تماما كما ذكر "قداسة البابا بول السادس" فى رسالته التى ألقاها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى أول شهر يناير عام ١٩٧٨.

"... والسلام ماهو إلا معادلة أو موازنة تحيا بالحركة وتعطى دائما الطاقة الروحية وطاقة العمل، إنه الذكاء والشجاعة الحية ومن ثم ونحن على مشارف عام ١٩٧٨ نرجو أعضاء المجتمعات الإنسانية، الرجال منهم والنساء وبخاصة أصحاب النيات الطيبة من القادة ذوى أنماط السلوك السوية الجماعية الذين يعملون من أجل حياة المجتمعات الإنسانية سواء أكانوا من رجال السياسة أم من المفكرين أم من الناشرين أم من الفنانين أم الذين يعملون فى مجالات الرأى العام والإعلام أم من المدرسين فى مدارسهم، أم من مدرسى الفن والدعاة إلى الصلاة فضلا عن "المخططين وعمال أسواق الأسلحة فى العالم" - نرجو الجميع بلا استثناء أن يبدأوا مرة ومرات فى التأمل الأمين الكريم من أجل سيادة السلام فى عالم اليوم".

١٥- دور الجماهير :-

مفهوم "الجماهير" لغة هو من الناس جلهم، ومن كل شئ معظمه ويقال جمهر الشئ أى أخذ جمهوره وهو معظمه. (انظر كتاب : حسين يوسف مرسى وعبد الفتاح الصعيدى : الافصاح فى فقه اللغة، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٧، صفحتى ١٣٢ و١٣٧).

وفى ضوء تراث "علم الاجتماع" و" علم النفس الاجتماعى" توجد مفاهيم أخرى عديدة حول المعنى السابق. مثل مفهوم "طبقات العامة" أو "عامة الشعب" أو "التكتلات البشرية (The Masses) "ومفهوم التجمعات (Oggre gates)ومفهوم الحشد (Crowd) ومفهوم "الدهماء" أو "الرعاع" (Mobs)ومفهوم "الشعب" أو "الجمهور (The Pulblic) "والملاحظ أن هذه المفاهيم هى، فى معظم الأحيان، مفاهيم غامضة وفضفاضة.

ومنذ استخدام "ليبون (Le Bon) "لمفهوم طبقات العامة أو "عامة الشعب" أو التكتلات البشرية (The Masses) نلاحظ استخدام هذا المفهوم فى عمليات وظواهر عديدة. فقد استخدم هذا المفهوم كل من "اورتيجاى جاست" (Orte gy gasset)اميل ليدور (Emil Lederer) "روس (E. A. Rass). "وكارل مانهايم (Rarl Mannheim) "وغيرهم من الكتاب - فى أشكال مختلفة وبتعديلات مختلفة فنلاحظ ورود مفاهيم "مجتمع التكتل(Mass Soeity)يقصد بمفهوم "مجتمع التكتل" المجتمع الغربى الحديث وبخاصة مجتمع الولايات المتحدة. حيث يتميز هذا المجتمع بالتصنيع الضخم، وبالتطورات الحضارية الضخمة وبانتشار الإدارة البيروقراطية، وبازدياد الشكال والنماذج الموحدة، بالتوسط وبالتحرر من الأوهام وبالأغتراب ويتميز هذا المجتمع فضلا عن ذلك، أو بسبب ذلك، بضياع الحريات ووهن بالملامح التقليدية (انظر: G. Dunean M. G. A, Dietenary of Socialag, 198,. P.116)

كما نلاحظ أيضا ورود مفاهيم "حركة الكتلة العامة(Mass Movement)و"وسائل الاتصال الجمعى (Mass media) -" و"جماهير الشعب (mass publics) "و"البيع الإجمالى (Mass SALE) "و"مظاهرات الشعب (Mass Demonstrations) "و"العرض أو المشاهد الجماهيرية (Mass Spectacles) -" وغيرها - وهى تعبر عن المدى العريض للظواهر التى يغطيها هذا المفهوم.

والملاحظ أن مفهوم "طبقات العامة" أو"عامة الشعب" أو "التكتلات البشرية" يعنى فى حقيقة الأمر أعدادا ضخمة من الناس.

أما مفهوم "التجمعات" فيتضح معناه عندما نلاحظ الناس فى أحد الشوارع، فهم مجرد ناس يوجدون فى منطقة معينة ولكنهم يتصلون بعضهم ببعض، ولا يعيشون حياة مباشرة، ولا تجمعهم أهداف أو قيادة مشتركة، ولا تربطهم مشاعر تماسك معينة، ويدل مفهوم "التجمعات - على سبيل المثال - على جماعات الناس الذين يذهبون زرافات وهم يسوقون سياراتهم أو يمشون على الأقدام إلى أعمالهم عند الصباح، كما يدل على جماعات النساء اللاتى يذهبن إلى محلات البيع فى المواسم. إن كل واحد من هؤلاء يعيش مع نفسه ولنفسه، وتراه ينافس الآخر فى الحصول على مكان مناسب فى "الأتوبيس" يجلس فيه أو فى ركن من أركان الشارع يوقف فيه سيارته، أو فى الحصول على سلعة من السلع بثمن أرخص، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن هؤلاء الناس يتفقون - على الرغم من اختلافهم - فى بعض أنماط السلوك مثل الاستجابة إلى أوامر رجل المرور مثلا!

وإذا وجدت هذه التجمعات موضوع اهتمام مشتركا أصبحت "حشدا" أو أصبحت "رعاعا" فالحشد من النظارة الذين يجتمعون حول حادث من حوادث المرور مثلا، هم بعض الناس الذين قد لفت أنظارهم وانتباههم هذا الحادث. إنهم يقفون حول الحادث ينظرون دون أن يحدثوا شيئا. أما إذا أحدثوا هذا الشئ بأن تظاهروا مثلا، أى أصبحوا ينشطون نوعا معينا من النشاط فإن "حشدهم" يصبح "رعاعا" والحشد يطلق على الناس الذين يلتفون حول أحد الخطباء أو حول أحد الوعاظ، أو الذين يشاهدون حادثا ما او منظرا ما، أو الذين يلاحظون أناسا آخرين ينشطون نشاطا معينا كأن يمثلون أو يرقصون أو يغنون أو يتظاهرون ساخطين أو غير ساخطين.

وفى كل هذه المواقف نجد أن موضوع الاهتمام المشترك عند الحشد من الناس يؤدى إلى استجابات ذاتية (أى ليست جماعية مشتركة) قد تكون استجابات مشجعة أو ساخطة أو قد تكون مجرد الصمت الغاضب.

والملاحظ أن الناس فى الحشد يكونون على اتصال بعضهم ببعض ولكنه اتصال عشوائى. على عكس "الدهماء" أو "الرعاع" فالأخيرون ينشطون فى ضوء شعارات معينة تدعو إلى تحقيق أهداف معينة وهم يعملون تحت قيادة غير رسمية معينة، وقد ينشطون أمام حشود صديقة

تشجعهم أو أمام حشـود غير صديقـة تعـاديهم، وفـى كلتـا الحـالتين فـإن دور الحشد يكون مجرد دور المشاهد الذى لاينشط نشاطا جماعيا مشتركا.

وكما تتحول "التجمعات" من الناس فى الشارع تحت ظـروف معينـة إلى "حشود" مشاهدة فإن هذه التجمعات والحشود قد تتحـول إلـى "دهمـاء" أو "رعاع" إذا نشطت فى سبيل تحقيـق أهـداف اجتماعيـة أو سياسـية معينـة فـى ظل قيادة منظمة.

وإننـــى لا أرى مطلقـا أن يطلـــق مفهـــوم "الدهمـــاء" أو "الرعـــاع" (MoBS)اعتباطـا علـى كل جماعـة مـن النـاس منظمـة ولهـا أهـداف معينـة وتحت قيادة معينة. فإن بعض هذه الجماعات ضرورى للغاية إذا كـانت هـذه الأهداف إنسانية تحقق التقدم فى محيطها أو فى محيط المجتمـع الـذى تعيـش فيـه، وإذا كـانت القيـادة رشـيدة مخلصـة فـى سـبيل تحقيـق هـذه الأهـداف، والملاحظ فى ضوء التجارب والخبرات أقصـد تجـاربى وخـبراتى أن أعداء الحرية والذين يقفون فى سبيل تقدم الشعوب، يعمدون إلى إطلاق اسم الدهماء أو الرعاع على الكثـير مـن الشـرفاء الذيـن لا يعيشـون فـى أوطـانهم فحسـب ولكن أوطـانهم تعيش فى وجداناتهم وكياناتهم.

ويتكون "الجمهور (The Publis) "عـادة مـن أنـاس لا يعيشـون حيـاة الوجه للوجه، ولكنهم مع ذلك يظهرون عيانـا اهتمامـات متشـابهة. أو يتكـون من أناس يتعرضون إلى مؤشرات متشابهة علـى الرغـم مـن أنهـا قـد تكـون مؤشرات بعيدة إلى حد ما.

وجمهور القائد قد يكون القرينة الوحيدة على قيادته. فالقائد يقدم نفسه نموذجا رمزيا للجمهور، أو يكون كذلك على أية حال.

وفى المجتمع الإنسانى توجد أنواع عديدة من الجمهور. وفـى ضـوء هذا التعدد يتحدد مضمـون خـاص نـوع. فهنـاك علـى سـبيل المثـال "جمهـور الشباب" و "جمهور الطلبة" و "جمهور المسرح" و"جمهور السينما" و"جمهـور القراء" و"الجمهور السياسى".. إلخ ويوجد الجمهور الأخير عادة عندما يكـون للناس خارج الحكومـة الحق فـى اسداء النصيحـة إلـى الحكومـة أو فـى نقد أعمالها.

وتتكون أنواع الجمهور حسب أنواع الناس وأعمارهم واهتماماتهم وقياداتهم وما يتعرضون إليه من مؤثرت متشابهة. فقد ينتظم بعض الناس فى جماعات اختيارية اجتماعية أو علمية أو ثقافية أو ترفيهية، وقد تخلق وسائل الاتصال الجمعى أنواعا عديدة من الجمهور، وفى هذه الحالة تكون القيادة فى العادة قيادة رسمية، أى قيادة لم يتفق أعضاء الجمهور على اختيارها، وقد ترى الدولة أن تجعل من الجماعات الاختيارية السابقة جماعات منظمة تقوم هى (أى الدولة) بالإشراف عليها. (انظر كتاب :Hans gerth and I . Wright Mills, (Character and and Social Stra cture) New yark, P.Hartcourt, Brace And Co, 1953, P . 436- 433 .

والملاحظ أن أعضاء المجتمع أى مجتمع لا يعيشون فى فراغ أى أنه لا يتصور وجود فرد أو شخص (عادى) لا يعيش فى علاقات اجتماعية دائمة. فهو يعيش فى جماعة أو فى جماعات، وهذه كلها تعيش فى المجتمع، بل هى قوام المجتمع. كل واحد منا يبدأ ظهوه فى المجتمع، أول ما يبدأ، فى الأسرة التوجيهية (أى أسرة أبيه وأمه وأبنائهما) أو فى اسرة بديلة أى فى جماعة، وهذه الأسرة تعيش فى حى أو فى جيرة، أى فى مجتمع محلى، أو تعيش فى ناحية من نواحى القرية، وهذا الحى أو هذه الجيرة أو هذا المجتمع المحلى يرتبط بغيره من الأحياء أو الجيران أو المجتمعات المحلية فى المدينة (يلاحظ أن الجيرات فى مجتمع القاهرة الالى كادت أن تتلاشى معالمها أو سماتها).والملاحظ أن القرى قد تتصل بغيرها من القرى وأن بعضها أصبح اتصاله بالمدينة (المراكز والمدن الأخرى) فى الوقت الراهن ميسرا.

وإننى أرى أن كل جماعة من الجماعات التى توجد فى المدينة أو المركز أو الكفر أو النجع، إن هى إلا جمهور كل عضو فيها، أى أن مفهوم "الجمهور" فضلا عن المعنى العام السابق ذكره عندى معنى أخر خاص، والمعنى الأخير هو، بالضرورة كل جماعة من جماعات المجتمع الإنسانى. ولعل أهم الجماعات الاجتماعية الأساسية التى يكون عضو المجتمع فى ضوء الضروة الاجتماعية، عضوا فيها، هى الجماعات التى تقوم بعمليات التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع ليؤدوا أدوارهم الاجتماعية كما يتوقعها المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون.

وأهم الجماعات الأساسية التى تقوم بعمليات التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع يمكن أن نوجزها فيما يلى :

- الأسرة.
- الجيرة.
- المنظمة التربوية.
- المنظمة الدينية.
- منظمة شغل أوقات الفراغ.

وقد نلاحظ أحيانا أن البعض يرى أن مفهوم الجمهور لا يمكن أن ينطبق معناه على الأسرة فالجمهور يتكون عادة من أناس لا يعيشون حياة الوجه للوجه - والجمهور يتضمن العمومية، والأسرة تتضمن الخصوصية، والعمومية ضد الخصوصية، ويرى هذا البعض أن الجمهور هو الجماعة التى تتكون من أفراد خارج دائرة الأسرة الأليفة والدراسة الحالية فى ضوء طبيعتها لا ترى هذا الرأى الملاحظ أن الدراسة الحالية لا تهتم بأسرة معينة، بل بالأسرة كإحدى الجماعات (المنظمات) الأساسية فى المجتمع. وأن أطفال المجتمع الإنسانى العادى فى الأغلب الأعم جمهور الأسر فى هذا المجتمع، وهم أهم جمهور فيه، وأن الأسر فى المجتمع لا يمكن أن تعيش كلها حياة الوجه للوجه فى المجتمع وأن الأسرة موجودة فى كل مجتمع ويندر أن يلفت منها الطفل العادى فى أى جزء من أجزاء العالم، وذلك على الرغم من تعدد أشكالها وأحجامها وعلى الرغم من اختلاف التقاليد والعادات والقيم وحتى العقائد التى يمارسها أعضاء هذه الوحدة الأساسية (أقصد الأسرة) من مجتمع لآخر، وحتى الطفل غير العادى (أقصد الطفل غير الشرعى) فقد يعيش فى كنف أسرة بديلة وبالإضافة إلى ذلك فإن أطفال المجتمع ككل، لا يعيشون حياة الوجه للوجه وإن كانوا قد يعيشون هذا النمط من الحياة فى كل أسرة على حدة.. ومع ذلك فإننا نلاحظ فى الكثير من المجتمعات وبخاصة المجتمعات المتقدمة (Developed Societies) أو التى تسير نحو التقدم أن الأسرة لم تعد وحدها تقوم بعمليات تنشئة أطفال المجتمع، بل أصبح العديد من المنظمات والأجهزة الاجتماعية (من خارج الأسرة) تسهم فى هذه

العمليات. وأذكر فى ضوء خبرتى المحدودة على سبيل المثال لا الحصر، جماهير الأطفال التى خلقتها اجهزة الإعلام، الإذاعة المسموعة والمرئية المسموعة ودور الحضانة والسينما والمسرح والملعب فضلا عن المدرسة وغيرها، ومن ثم أصبح أطفال المجتمع من وجهة نظر هذه المجتمعات (وهى وجهة نظر الدراسة الحالية) يعرضون فى معظم الأحيان إلى مؤثرات متشابهة بعيدة إلى حد ما (أى من خارج الأسرة الخاصة).

ولكى نتحدث عن مفهوم "الجيرة" توطئة للحديث عن جمهورها، نعود إلى الوراء إلى عام ١٩٢٣. عندما صاغ "كلارنس يرى Clarence) " Perry) مفهوم الجيرة (NEIGHBOURH OOD) وعندما اقترح أهمية وجود وحدة محلية مخططة تتميز بالميزات المحلية المرضية، حيث يعتنى بتخطيط طرقها ويعنى بصحة ساكنيها وراحتهم. وأصبح بمرور الزمن لمفهوم الجيرة تعريفان : الأول وهو "تعريف مادى" يشير إلى جزء من البلدة أو المدينة الذى يتميز بحدود مغينة مثل الشوارع الرئيسية، أو السكة الحديدية، أو الأنهار، أو الترع، أو الفضاء المفتوح، كما يتميز أيضا بتشابه مبانيه، ويوجد فيه عادة مركز للحوانيت وبعض المؤسسات المحلية كالمنظمة الدينية والمقاهى والحانات والمكتبات.. إلخ.

أما التعريف الثانى لمفهوم الجيرة فهو "تعريف اجتماعى" يرى أن الجيرة تتميز بوجود سكان متشابهين اجتماعيا، ويكون هذا التشابه بخاصة فى الطبقة الاجتماعية أو فى السلالة.

والملاحظ أنه فى ضوء درجة التحضر التى يصل إليها مجتمع المدينة، تفاوت حياة سكان الجيران فى هذا المجتمع. فقد تكون هذه الحياة حياة الوجه للوجه أحيانا. وإذا بلغ التحضر فى جيرة من الجيرات درجة عالية من التعقيد تنمو فى محيط سكانها العلاقات الثانوية أحيانا أخرى (انظر كتاب :P) . (124, Dictionary of SOEIOLGY

ومهما يكن من الأمر فسكان كل جيرة هم جمهورها. فهم وإن عاشوا حياة الوجه للوجه أحيانا تراهم يتعرضون، فى الغالب، وبخاصة فى المجتمعات المعاصرة إلى مؤثرات متشابهة عديدة من خارج الجيرة.

والمنظمة التربوية بأنواعها ومراحلها من الأجهزة الهامة التى تسهم فى القيام بعمليات التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع (أطفاله وفتيانه وفتياته وشبانه) أى أن هذه المنظمة، فى الوقت الراهن، لا يمكن أن تكون بناء يحتجز العديد من جماهير المجتمع من التلاميذ والطلبة والطالبات داخل إطاره بغرض تلقينهم بعض الدروس فحسب. بل إن هذه المنظمة يجب أن تكون بالضرورة إلى جانب ذلك ومسايرة منها لتطورات الحياة الاجتماعية وما فيها من تيارات تستدعى تنمية الجوانب الاجتماعية والنفسية لأعضاء جماهيرها لكى يكونوا أقدر على مواجهة الحياة السوية - مؤسسة تربوية قبل أن تكون مؤسسة تعليمية تلقينية.

ولعل الهدف الأول من عمليات التربية بين جدران هذه المنظمة يكون الإسهام فى عمليات التنشئة، وذلك بقصد صياغة كل عضو من أعضاء جمهورها أو جماهيرها فى قالب جديد يدرك عن طريقه قيمة الحياة الاجتماعية وقداستها حتى يكون قادرا على تفهمها بروح مرنة غير متجمدة وهو فى ذلك يسعى إلى الانسجام الاجتماعى بصورة طليقة.

أى أن دور المنظمة التربوية يكون أو يجب أن يكون الإسهام فى تكوين المواطن الصالح، وفى استمراره اليكون صالحا، وذلك لأن هذه المنظمة تضم جماعات بشرية كبيرة نسبيا، ويكون جماهير التلاميذ والطلبة والطالبات بالضرورة أعضاء فيها، وهم كأعضاء فى هذه الجماعات يحاولون وهم يمارسون الحياة فى المنظمة أن يوفقوا بين تحقيق حاجاتهم الشخصية الأساسية وبين كسب ثقة هذه الجماعات وموافقتها، حتى يتمتعوا بالحياة الطيبة الخالية من العنف الذى يولد الشعور بالعداوة التى تكفلها لهم المنطقة ويؤدوا فى الوقت نفسه لها وللمجتمع الكبير خارج المنظمة أحسن ما يستطيعون أداءه.

أما "المنظمة الدينية" فهى تمثل فى أغلب الأحيان "الكنيسة" أو "المسجد" وما يتصل بكل منهما من نشاطات. والملاحظ أن جماهير المنظمة الدينية أناس شتى، منهم الأحداث ومنهم الفتيان والفتيات ومنهم الشباب ومنهم الرجال والنساء، وأدوار المنظمة الدينية فيما يتعلق بجماهيرها التعاون الأكيد من أسر الحى "الجيرة وجماهيرها" وأن تسهم هذه الأدوار فى التعاون

مع جماهير "المنظمة التربوية" وفضلا عن ذلك فإنها تتعاون تعاونا وثيقا مع أجهزة الإعلام فى المجتمع ومن ثم تكون المنظمة الدينية مكانا صالحا للقادة الثقافيين الحقيقيين من اعضاء المناطق التىتوجد فيها، حيث تتاح لهم الفرصة ليتدرسوا المشاكل الثقافية والاجتماعية التى توجد فى كل منطقة توطنة لإيجاد الحلول المواتية لمواجهتها. أى أن تكون المنظمة الدينية فضلا عن أنها مكان للعبادة مركزا اجتماعيا يقوم، فى جد وإخلاص مع جماهيرها ومن تتعاون معه من جماهير المجتمع، بالإسهام فى عمليات التنمية الاجتماعية فى محيط المادة البشرية فى محيط هذه الجماهير، وفى عمليات وقاية هذه المادة البشرية وفى عمليات علاجها على السواء.

"ومنظمة شغل أوقات الفراغ" كإحدى الجماعات الاجتماعية الأساسية جهاز اجتماعى يسهم مع الأسرة والجيزة والمنظمة التربوية والمنظمة الدينية فى تكوين المواطنين، ومن ثم فهى تكون، بالضرورة مؤسسة تربوية قبل أن تكون مؤسسة رياضية ترويحية أو حتى ثقافية. والملاحظ أن هذه المنظمة تعتبر مجالا هاما لعاية الشباب فى المجتمع فالشباب فى الأغلب الأعم هم جمهورها، والملاحظ أيضا أن رعاية الشباب فى كل مجتمع لها اتجاهات ولها أساليب تحقق هذه الاتجاهات، ولكى نقى من الانحرافات بأنواعها (ومنها بالضرورة الجريمة والجناح) فإن هذه الاتجاهات يجب أن تؤكد الرعاية المتكاملة، كما تؤكد الرعاية الشاملة، أى تهتم بجميع الفئات ويكون اهتمامها بالقاعدة الشعبية أول الاهتمامات، وأن تؤكد هذه الاتجاهات أيضا على أن تكون الرعاية على أسس علمية سليمة، والتى تهتم بالخدمات الإنشائية (التنموية) والوقائية اكثر من اهتمامها بالخدمات العلاجية فى ضوء تخطيط علمى سليم. كل ذلك بقصد إعداد المواطن الصالح (حسب ما عرف من قبل) فى كل القطاعات وفى محيط كل الجماعات، مع استمراره مواطنا صالحا.

ولعل القارئ الكريم قد شعر بنفورى من الرياضة كهدف لأنها عندى مجرد وسيلة وعن طريقها يمكن أن تسهم تربويا فى تزويد الأغلبية الساحقة من أعضاء الشعب (لا مجرد بعض الأعضاء) ليس فقط باللياقة البدنية بل أيضا بالأخلاق القويمة التى تيسر لهم القدرة على التكيف الاجتماعى إزاء

المواقف الاجتماعية التى يواجهونها حيثما يكونون، والتى تيسر لهم ايضا القدرة على التفاعل الإيجابى فى سبيل المصلحة العامة والخدمة العامة مسلحين بالقيم ذات الهداف الإيجابية التى تتفق مع ظروف المجتمع المصرى فى الوقت الراهن. (انظر : خامسا، البند رقم ١٣ من الكتاب الحالى) (انظر ايضا : سيد عويس "الدراسة التى قدمتها للمؤتمر الذى عقد فى جمهورية ليبيا فى ١١ - ١٥ أكتوبر عام ١٩٧١، وموضوعها" دور الجمهور فى الوقاية من الجريمة والجناح".

وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أن هذه الدراسة قد طلب منى إعدادها على أساس أن أذهب إلى هذا المؤتمر لعرضها حتى يناقشها أعضاؤه - ولكن إدارة المركز القومى البحوث الاجتماعية والجنائية أبت على الذهاب دون ذكر الأسباب.

١٦-دور رجال الشرطة :

لا يمكن إلا أن أتذكر المغفور له "اللواء عبد العزيز مفرح" فقد كان رجلا شرطيا يعرف واجباته فى العمل الشرطى إلى الدرجة التى يضحى من أجل واجباته نحو أسرته. ذكر لى هذا الرجل ذات مرة وسمات وجهه تنم عن خليط من الأسى والاهتمام بالواجب أن ابنة له كانت فى غرفة العمليات تجرى لها عملية جراحية عندما استدعى لأداء واجبه الشرطى. فما كان منه إلا أن لبى نداء واجب عمله تاركا ابنته فى غرفة العمليات.

ربما كان من حظى أن اعلم ذلك منه شخصيا، فقد كان عملى هذا دافعا لى لأن أكتب هذه الدراسة أقصد "دور رجال الشرطة" التى تعنى فى حقيقة الأمر الشخصية الاجتماعية لرجل الشرطة وما يجب أن تكون عليه. وإننى لا يمكن أن ادعى فى ضوء خبراتى ومعاملاتى معهم فى مواقع أعمالهم، أن كل رجال الشرطة مخلصون فى أعمالهم العديدة (والخطيرة أيضا) التى هدف أهدافها الأمن والأمان للملايين من المصريين. فهناك بالضرورة آخرون لا يفعلون ذلك تماما، كما نجد فئة من الأطباء أو اساتذة

الجامعة أو المدرسين أو رجال الإعلام والثقافة وغيرهم من أعضاء الصفوة فى البلاد، من لا يؤدون واجباتهم كما ينبغى أن تؤدى.

وإننى أرى أن الإنسان فى ضوء شخصيته الاجتماعية هو خلق تاريخى، ويمكن فهمه بوضوح إذا عرفنا الأدوار الاجتماعية المعترف بها والمندمجة فى ذاته، وهذه الأدوار الاجتماعية محددة بحكم الأنساق الاجتماعية التى حدث أن ولد وترعرع وصار بالغا فى كنفها. فذاكرته وفهمه لمعنى الوقت والمكان، وإدراكه الحسى، والبواعث التى تدفعه، وحتى الفكرة المجردة عن نفسه ووظائفها النفسية.. كل ذلك تشكلها وتوجهها، فى نسق معين، الأدوار الاجتماعية التى استوعبها وتمثلها الإنسان من مجتمعه.

وعلى هذا فكون الواحد منا له "شخصية اجتماعية" يعنى أنه بحكم كونه عضوا فى جماعات تتكون له أدوار اجتماعية يؤديها، وعلى هذا يمكن القول إن الشخصية الاجتماعية لأى شخص فى مجتمع من المجتمعات هى مجموع الأدوار الاجتماعية التى يؤيدها هذا الشخص فى هذا المجتمع.

ورجل الشرطة هو شخص يعيش فى مجتمع. أى أنه عضو فى جماعات وبحكم هذا الوضع الاجتماعى له، تكون له أدوار اجتماعية يؤديها، وشخصيته الاجتماعية يحددها العددالوفير لهذه الأدوار الاجتماعية. فهو فى مجتمع كالمجتمع المصرى "رجل" وبحكم كونه عضوا فى عائلة يكون ابنا، وقد يكون أخا أوعما أو خالا أو صهرا وقد يكون ربا لأسرة فهو زوج وهو أب وفضلا عن كل ذلك هو مواطن وجار وهو ابن من أبناء مدينة معينة أوقرية معينة أو إقليم معين، وقد يكون عضوا فى ناد أو أكثر أو فى هيئة اجتماعية معينة أو هيئة ثقافية معينة وهو فى الوقت نفسه رجل شرطة، وكونه رجل شرطة فهو يقوم بأداء أدوار اجتماعية متعددة. منها على سبيل المثال لا الحصر قيامه بمنع المجرمين من ارتكاب جرائم أو مخالفات قانونية، والقبض على من ارتكب منهم جرائم أو خالفات قانونية، والعثور على الأطفل الضالين، وتنظيم المرور ومراقبة الأندية وصالات "الرقص" ومنع وإطفاء الحرائق وتنفيذ لوائح الرفق بالحيوان وغيرها من الأدوار الاجتماعية الهامة التى لا يستطيع القيام بها غير رجل الشرطة.

ورجل الشرطة ككل إنسان يعيش فى مجتمع إنسانى يهمه جدا معرفة صورته عن نفسه والفكرة التى يكونها عن شخصه. وإننى أرى أن تحقيق هذا الهدف هو عبارة عن عملية البحث عن النفس (أقصد الذات)، وهى عملية يشترك فيها رجل الشرطة مع غيره من الناس، وينعكس عليه كيانها الأساسى من استحسان ونقد الاشخاص المحيطين به والذين يقيم لارائهم وزنا.

إن ما نظنه فى أنفسنا متأثر حتما بما يظنه غيرنا فينا. فابداء موافقتهم أو عدم موافقتهم على تصرفاتنا يرشدنا ويعلمنا كيفية أداء الأدوار الاجتماعية المكلفين بأدائها أو التى نأخذ على أنفسنا القيام بها، ونحن إذ نتأثر بآراء الناس ووجهات أنظارهم فينا وفى سلوكنا لا نكسب فقط أدوارا اجتماعية جديدة ولكن نكسب بمرور الوقت صورة عن أنفسنا. ومن المسلم به أن هذه الصورة قد تكون انعكاسا حقيقيا أو مشوها للنفس ذاتها، وعلى هذا فإن الناس الذين يسعى الشخص منها باستمرار إلى إرضائهم هم أناس لهم أهميتهم فى حياتنا ويتحكمون فى مصير أشخاصنا.

وكذلك رجل الشرطة يسعى باستمرار إلى إرضاء من لهم أهميتهم فى حياته أو يتحكمون فى مصيره، وهؤلاء يكونون عادة رؤساءه. فرجل الشرطة الحديث العهد بوظيفته يحس بالغبطة من رضاء رئيسه عليه، وإذا كانت كلمات الثناء التى يصف بها الرئيس سلوك رجل الشرطة الناشئ تهمه كثيرا، فإنه فى هذه الحالة يكون (أى رجل الشرطة الناشئ) تحت تأثير عملية توجيه نحو أدوار اجتماعية جديدة لنفسه وتصبح القيم الرئيسية للرئيس بمرور الوقت قيما أخلاقية لرجل الشرطة الناشئ الذى سيقوم بتطبيقها لا على غيره من الناس فقط، فى هذه الحالة الجمهور بل على أعماله الشخصية كذلك وقد قيل : "إن النفس مصنوعة من التقديرات المنعكسة من الناس الأخرين".

والملاحظ أنه كان الشخص الواحد يؤدى أدوارا اجتماعية مختلفة فإن كل دور اجتماعى يكون جزءا من الأنساق الاجتماعية المختلفة والمواقف الاجتماعية المختلفة التى يتحرك الشخص بينها. فنرى أن تصرف رجل الشرطة مع زملائه يختلف عن تصرفاته مع عملائه، ويختلف عن تصرفاته

مع من هم أقل منه رتبة، ويختلف عن تصرفاته مع أبنائه فى المنزل، ونجد أن تصرف الفتاة وهى فى حفل بين قريناتها يختلف عن تصرفها بين ذويها وهى على مائدة الطعام.

وحتى فرصة التعبير عن العواطف والإحساس بها تختلف باختلاف مراكز الناس الاجتماعية والطبقية. لأن التعبير عن العواطف الذى نتوقعه من الأخرين ويتوقعه الآخرون منا يكون أوصافا مميزة للكثير من الدوار الاجتماعية. فالتعبير عن العواطف بين أبناء وبنات طبقة الكادحين غيره بين أبناء وبنات الطبقة الوسطى، وهو بين أبناء وبنات الفلاحين غيره، بين أبناء وبنات البدويين وهو بين رجال الشرطة غيره بين الأغلبية الساحقة من عملائهم

والأدوار الاجتماعية التى يؤديها أعضاء المجتمع ويتوقعونها، وما تسبب من صور الأعضاء عن أنفسهم، وتأثير هذه الأدوار الاجتماعية والصور النفسية على أعضاء المجتمع – كل ذلك راسخ فى نسق اجتماعى معين، وعلى هذا فإن التعبيرات النفسية الداخلية ونظم الضبط الاجتماعى فى المجتمع مرتبطة بعضها ببعض.

وإذا سلمنا بأن أى نسق اجتماعى هو عبارة عن منظمة مكونة من أدوار اجتماعية، ويعنى هذا أن الأدوار الاجتماعية تحمل فى ثناياها درجات متفاوتة من السلطة نجد أن الأدوار الاجتماعية المتعلقة بوظيفة رجل الشرطة وهى احدى وظائف الضبط الاجتماعى تحمل فى ثناياها درجة كبيرة من السلطة يجب أن يفهمها ويقبلها باقى أعضاء الأدوار الاجتماعية الأخرى كضمان للدوام النسبى الخاص بالنماذج السلوكية الكلية للنسق الاجتماعى.

وإننى أرى أن مهمة تفهيم باقى أعضاء الأدوار الاجتماعية الأُخرى فى أى نسق اجتماع للأدوار الاجتماعية المتعلقة بوظيفة رجل الشرطة، بل بشخصية رجل الشرطة الاجتماعية المتكاملة وما تحمل فى ثناياها من سلطة ضرورية اجتماعية، ولكن المهم أن تكون عمليه التفهم هذه بقصد تقع على عاتق رجال الشرطة أنفسهم، ومجرد التفهيم هو خطورة هامة بل ضرورة تقبل باقى أعضاء الأدوار الاجتماعية لها.

وتلعب الشخصية الاجتماعية لرجل الشرطة فى أى نسق اجتماعى دورا هاما فى الحياة النفسية للأعضاء الآخرين فى النسق الاجتماعى. فرجل الشرطة فى مجتمع كالمجتمع المصرى وخاصة فى المناطق الريفية يجب أن يكون بمثابة الرئيس فى جماعة. فما يظنه الرئيس بأعضاء جماعته، كل فى دوره الاجتماعى الخاص، أو حتى ما يتصورون ظنه بهم، يعتبر جزءا منهم، وشخصية رجل الشرطة الاجتماعية يجب أن يكون لها ما للشخصية الاجتماعية للأب "الرئيس" فى الأسرة يتطلع عادة إليه كنموذج ولا يخفى ما لنظرة الأب إلى "طفله، من الأهمية وتتوقف على هذه النظرة نظرة الطفل إلى أبيه وإلى سلوكه وربما إلى نفس الطفل ذاتها. فباتخاذ هذه النظرة يبنى الطفل "آخر" فى كيان ذاته، وإدراكه لنظرة هذا نحوه شرط لنظرته نحو نفسه، وللأشخاص "الآخرين" فى أدوارهم الاجتماعية الأخرى نظرات معينة إلى الطفل ويحتمل أن تكون كل من هذه النظرات جزءا منه، وتكون فى النهاية أجزاء من صورته مع نفسه، ولكن نظرة الرئيس فى النسق الاجتماعى الذى فيه تؤدى دورا اجتماعيا هى نظرة حاسمة فى نضجنا الاجتماعى.. فإن قال "هذا فعل محمود" فإننا نشعر بالأمن والطمأنينة فيما نفعل وفيما نتصوره لأنفسنا. ويصبح الرئيس إذا ما قدرت نظرته إلى نفس العضو حق قدرها "آخر خاص" وليس معنى هذا أنه ينظر إليه على أنه شخص آخر، بل هو ولسان حال النسق الاجتماعى بأسره فهو البؤرة التى تجمع فيها النظرات النهائية لأدوارنا الاجتماعية الرئيسية ولأنفسنا فى نطاق النسق الاجتماعى فهو يحمل هذه النظرات جميعا، وعندما نعتنق هذه النظرات ويتبع ذلك ما يتوقعه الآخرون منا وما نتوقعه نحن من الآخرين فإننا بذلك نتحكم باسم هذه النظرات فى أمر سلوك النسق الاجتماعى، وهكذا عن طريق جعل هؤلاء "الآخرين" جزءا منا يصبح سلوكنا وأداء أدوارنا الاجتماعية فى حدود النسق الاجتماعى محكوما حكما ذاتيا. (انظر : سيد عويس : الدراسة التى نشرت فى مجلة البوليس وموضوعها "الشخصية الاجتماعية لرجل البوليس" عام ١٩٥٧، صفحات : ٣٨ - ٤١).

ولعله إذا تضمنت الدراسة الراهنة موضوع "السلطة" التى يتمتع بها الشرطة وهو يؤدى أدواره الاجتماعية المتعلقة بوظيفته التى هى إحدى وظائف الضبط الاجتماعى، أرجو أن يتذكر القارئ الكريم الشعار القائل :

"من الذى يستطيع أن يسيطر على رجال الشرطة(Who can PoLice) " فرجال الشرطة وبخاصة فى المجتمع المصرى هم حكام هذا المجتمع الحقيقيون، وهم يعملون ذلك ويعرفونه حق المعرفة، كما أرجو القارئ الكريم، أيضا، أن يتذكر بعض ما تضمنه تقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية الذى نشر فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٠ عن حالة "الشقى" محمود أمين سليمان الذى اشتهر فى محيط أعضاء المجتمع المصرى فى ذلك الحين باسم "السفاح" (انظر ثالثا "أمثلة حية معاصرة عن بعض أنماط العنف، بند رقم ٦ من الكتاب الحالى).

وقد تعمدت الدراسة المشار إليها أن أذكر بعض جهود رجال الشرطة المصريين وهم يؤدون واجباتهم ويتفرغون لهذا الأداء، لكى أبين للقارئ الكريم بعض ما تعكسه هذه الجهود على الشخصية الاجتماعية لرجال الشرطة فضلا عن أهمية تعاون أعضاء الجمهور معهم حتى يسود الأمن والأمان فى المجتمع المصرى الذى ولدوا فيه ويعيشون.

وأود أن أؤكد للقارئ الكريم ما سبق أن ذكرته وأذكره دائما حتى كتابة هذه السطور، من حيث إن رجل الشرطة كإنسان فى ضوء شخصيته الاجتماعية هو "خلق تاريخى" أى أنه يأخذ من المجتمع ويعطى ما يأخذه إلى المجتمع الذى فى ضوء سلطته وسلطانه قد يتحكم فى أعضاء هذا المجتمع كأحد موظفى الضبط الاجتماعى فيه.

وهذا التحكم فى ضوء ظروف المجتمع أى مجتمع سواء كانت ظروفا اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية قد يكون ظالما قاسيا وعنيفا فى بعض الأحيان، وقد يكون عادلا إنسانيا مسالما فى أحيان أخرى، والمعروف أن المجتمع المصرى فى ضوء تاريخه الطويل وخصوصا فى مراحل استعماره الطويلة، لا يعتبر رجل الشرطة صديقا فى معظم الأحوال، وأنا لا ألقى الكلام على عواهنه، ففى ضوء خبراتى فى التدريس لكبار رجال الشرطة وصغارهم كنت أسأل سؤالا فى أول حصة أحضرها عن العدو اللدود لرجل الشرطة فيكون الجواب عن هذا السؤال فى كل مرة : إنه المتهم : وإن وسيلتى "المنع والقمع" اللتين يستخدمهما عادة أو فى بعض الأحيان

تؤكدان هذا الشعور بالعداوة وبخاصة عند استجواب المتهم وقبل ذلك لأن أكبر ما يتهم به رجل الشرطة هو أن تتحول التهمة إلى إدانة.

والملاحظ أن ردود الفعل عند أعضاء المجتمع المصرى المتهمين ومن يلوذبهم ردود تشع، بالحق أو بالباطل، الكراهية لرجل الشرطة المصرى ويضرب بها الأمثال، وربما يرجع ذلك إلى ما يراه رجل الشرطة "باطلا" يرونه "حقا" وأن مايرونه "حقا" يراه رجل الشرطة "باطلا" ففى ضوء المنهج العلمى "لاشئ مطلق" وحتى فى الحياة التى يحياها الناس نجد ظاهرة الازدواجية الثقافية سائدة فى كل المجتمعات وإن تباينت عواملها، باسم الدستور وباسم القانون، وباسم الوطنية (كما ذكرت ذلك من قبل انظر : خامسا، الوعى باستغلال الوطنية فى سبيل تحقيق مصالح تجار الحروب : بند رقم ١٤ من الكتاب الحالى).

الخـاتمــة

أود أن أعترف للقارئ الكريم بأننى مجرد شخص مصـرى يحب أن يحيا الناس فى ربوع مصر بل فى ربوع العالم قاطبة حياة السلام، وأعترف اعترافا لا لبس فيه ولا إبهام بأننى لست أهلا، فى ضوء كتابة الدراسات التى يضمها الكتاب الحالى، إلا أن أدعو إلى سيادة الخير فـى محيط بنـى البشـر. أى إلا أن أدعو إلى السـلام العـادل وأن أنفـر مـن العنـف والظلم والاستبداد والاستعباد.

وإذا كان هذا هدف أو أهم أهداف الكتاب الحالى، فـإننى لا يمكـن أن أدعى أننى "رسول" أو "نبى" أو "فيلسوف" ولكنى اظن أن من حقى ألا أعيش فى رهبة مستمرة لانتشار الأسلحة النووية التى تملأ "ترسانات" الدول الغربية والشرقية وخاصة الاتحاد السوفيتى والولايات المتحـدة الأميريكيـة وتتملكنـى الرهبة أيضا إذا نظرت إلى مناطق المعمورة حيث توجد الـدول التـى تنظـر إلى بعضها البعض كـأعداء محتلين ولا تدعم رسـميا عدم انتشـار الأسـلحة (بلدان شرق آسيا وبخاصـة الصـراع بين الهنـد والباكسـتان مثـلا) وتتملكنـى الرهبة كذلك إذ كما يجد غيرى إدخال الصواريخ المتطورة فى حرب الخليج، ومـا يـرى كـل ذى بصـيرة، بـالفعل بـوادر سباق التسليح الخطير الـذى قـد يعرض للخطر بلدانا بعيدة جدا عن منطقة الخليج.

وفضلا عن كل ذلك، فإننـا نلاحـظ اسـتخدام الأسلحة الكيمائيـة فـى خـلال السنوات الأخيرة الأمـر الـذى يشـكل انتهاكـا لاتفاقيـة جنيـف لعـام (١٩٢٥)، كما نلاحظ أن الدول النامية استوردت فـى خـلال الفترة مـن عـام ١٩٧٧ إلى عام ١٩٨١ أسلحة قيمتها حوالى ١٢٨ مليار دولار أمريكـى وأن البعض ذكر أن هذا الرقم سوف يرتفع فى السنوات الخمس التالية التى انتهت فى عام ١٩٨٦ إلى ١٨٠ مليار دولار أمريكى بزيادة قدرها ٤٠٪.

ونجد فى ضوء الواقع المر أن البلاد الصناعية أو المتقدمة هى أكـبر مصدر للسلاح بأنواعه إلى البلاد النامية وغيرها وحتى التى لم تلتزم باتفاقية الانتشار النووى.

وإذا كنت لا أدعى أننى "رسول" أو "نبى أو فيلسوف" فأننى لا أدعى أيضا أننى أدعو إلى "يوتوبيا" ذات أيديولوجية، ومع ذلك فإننى أدعى بحق أننى واحد من أبناء مصر دون ماتعال أو غرور هولاء الأبناء الذين يعيشون فى أواخر القرن العشرين حيث توجد الظروف التى أوضحتها من قبل، وينظرون بلهفة إلى القرن الواحد والعشرين وما سيأتى به من معجزات قد تمهد لألوان العنف والظلم والاستبداد والاستبعاد أو قد تحد من هذا العنف حتى لا يتفشى ونيسر فى ضوء ما وصلت إليه البلاد الصناعية ما يعين على سيادة السلام العادل والحياة السوية، وذلك لأننى أرى أنه لاشئ مطلق، وأن ما يصل إليه العلماء على اختلاف مشاربهم فى أثناء الحروب يفيد حتما البشر فى مراحل السلام وقد تكون رؤيتى هذه وهما ولكنى أجد نفسى مع المتفائلين من بنى البشر، وذلك لأننى أنظر بفرح إنسانى إلى التجارب الإنسانية التى نحس بها ونراها بأعيننا فى علوم الفيزياء والكيمياء وفى مجالات الطب والهندسة الوراثية والتحكم فى الظاهرة الفلكية والتطبيقات العلمية التى توفر عناء الإنسان وتقرب المسافات والتى تنمى ذاكرة الإنسان وتفكر من أجله (الكمبيوتر المفكر مثلا).. إلخ.

وإذا كنت أحد أبناء مصرنا الخالدة، التى صنعت الحضاة الإنسانية الأولى، والتى أدركت منذ الماضى السحيق أن الحياة تمنح للمسالم (الذى يحمل السلام) ويحيق الموت بالمجرم (الذى يحمل الجريمة) والتى عرف مفكروها القدامى أن "المسالم" هو الذى يفعل ما هو "محبوب" وأن المجرم هو الذى يفعل ما هو "مكروه" وأن كل ما هو محبوب "ممدوح" وكل ما هو مذموم "مكروه" ومن ثم استطاع الإنسان المصرى منذ الماضى السحيق، التمييز بين "الخلق الحسن" و "الخلق السيئ" ثم بين قيمة "الحق" التى يكون هدفها حميدا وقيمة "الباطل" التى يكون هدفها أيضا حميدا - فإننى فى ضوء خبراتى المحدودة أجدنى منساقا لكى أدعو دعوة السلام العادل وأرجو ألا يدهش القارئ الكريم إذ أقول إن أهداف كل من قيمة الحق وقيمة الباطل يجب أن تكون بالضرورة حميدة. فالملاحظ أن من يرى الحق لا يراه على وجه الإطلاق فقد تكون قيمة الباطل حقا عند بعض الناس وقد تكون قيمة الحق باطلا عند آخرين فأنا أرى وقد ذكرت ذلك فى بعض البحوث والدراسات العلمي التى أجريتها أو قمت بالإشراف على إجرائها المنشورة

منها وغير المنشورة. وإننى أكرره الآن وأرجو ألا يمل القارئ الكريم هذا التكرار.

ومصرنا الخالدة، كما يعلم القارئ الكريم، فى ضوء مراحل تاريخها الطويل هة مهد العقائد بأنواعها، وهى أيضا مهد الديانات السماوية ومن قبل كانت جامعة الجامعات التى عب العلم المقدس فيها فلاسفة اليونان وغيرهم ممن نقلوا المناهج المتعددة لهذا العلم إلى الدنيا بأسرها على الرغم من مكابرة المبطلين والمزيفين.

وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم ماتجاسرت وأطلقت عليه "متصل السلوك العدوانى" (انظر : ثانيا دراسة عن السلوك الإنسانى بند رقم ٣ فى الكتاب الحالى). إن هذا المتصل كما ذكرت، هو أحد مفاهيم "علم الاجتماع الحضرى" وقد شرحت هذا المفهوم فى مكانه المناسب فى الكتاب الحالى، وإذا كنت قد استعرته كيما أطبقته على "السلوك العدوانى" فإننى رغبت فى شرح تدرج هذا السلوك فى محيط البشر، أقصد السلوك العدوانى، ولعل ذلك أم سكون أمرا جديدا لم يفعله أحد من قبل ورجائى الحار أن يتقبله القارئ المدقق فى سهولة ويسر وإذا عن له أن يرفع لواء النقد فحبا وكرامة. وذلك لأننى إذ فعلت ما فعلت لا أقصد سوى الاجتهاد فى هذا المجال وأرجو ان أكون قد وفقت.

ولعل ما كتبته فى صدر هذه الخاتمة يؤكد على أن "منظمة الأمم المتحدة" وبخاصة "مجلس الأمن" لم يؤديا واجبهما الأداء الكامل وذلك بمكافحة العنف الأنسانى والعمل على نشر السلام، وتقارير "لجنة لحقوق الإنسان" وتقاريره "منظمة العفو الدولية" شاهدة على ذلك. ويبدو لى أن الخير والشر فى حياتنا البشرية باقيان وتجدهما فى صراع دائم، وقد ينتصر الخير أحيانا وقد ينتصر الشر أحيانا أخرى. إن كل ما نرجوه هو أن نحيا حياة مطمئنة وأن يسود السلام فى كيان البشر.

وإننى أعترف للقارئ الكريم بأننى لا أملك صيغة تحقق هذا الهدف الكبير أو حتى تحد من أضرار العنف وشروره غير الإنسانية فأنا لا أدعى بأننى "غاندى" أو "جيفارا" أننى فى وضوء مهمتى أعرض أفكارى للسادة المنفذين كل فى موقعه. صحيح أن التاريخ قد سجل المهام الرائعة التى حققها

"المهاتما غاندى" كما سجل المثل العليا التى ضحى من أجلها "جيفارا" ولكن التاريخ قد سجل أيضا سطورا تبدو ناصحعة لكل من "نابليون بونابرت" و "ادولف هتلر" وهما كما يعلم القارئ كانا المحرضين لاستعمال أدوات الدمار فى الحروب التى اندلعت وقتل فيها الملايين من الخلق محاربين كانوا أو غير محاربين من الرجال والنساء والشباب والطفال، وقد أصبح الجميع مجرد ذكرى وبمرور الزمن وضعوا فى كفة واحدة فى تقدير شعوبهم وربما فى تقدير غير شعوبهم فى الوقت الراهن.

وإننى إذ قلت إن مهمتى هى مجرد عرض أفكارى وبخاصة ما تضمنتها دراسات الكتاب الحالى، أعترف وأنا لا أتواضع بأننى فى ضوء خبراتى المحدودة، مجرد "ياء" المفكرين المصريين الحاليين.

لقد تضمن الكتاب الحالى : "لا" للعنف و "نعم" للسلام : دراسة علمية فى تكوين الضمير الإنسانى" موضوعات شتى ويخرج منها القارئ المتشائم بأن "القوة هى الحق" وليس "الحق هو القوة" وقد تعمدت أن أتبين هذه الموضوعات الشعور بالعداوة الذى هو وليد "العنف والظلم والقسوة والاستبداد" كما أتبين الشعور بالأمن والأمان والاستقرار النفسى التى هى وليدة "السلام" وأكدت على أن السلام بألوانه يجب أن يسود فهو ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا. وإننى وقد انتهيت من كتابة هذه الموضوعات أسائل نفسى وقد قلت إننى لا أملك "صيغة" لمواجهة العنف الإنسانى بألوانه وأشكاله وإننى أعرض أفكارى للسادة المنفذين، رموز السلطة والسلطان فى المجتمع، كل فى موقعه، وإننى مجرد "ياء" المفكرين المصريين الحاليين - أسائل نفسى هلى أنا واهم ؟ أو أنا جبان ؟ أو أنا عاجز عن أفعل شيئا لتحقيق هدف أهداف الكتاب الذى كتبه عن وعى بقلمه، وكانت الإجابة عن هذه الأسئلة بالنفى، وذلك لأن الذى يقوم بالتغيير هم شباب مصرنا الخالدة.

فالملاحظ أننى أكتب للشباب المصرى العربىدائما. فهم العدة والعتاد والحاضر حاضرهم، والمستقبل مستقبلهم، وهم صرعى الحروب وقتلاها، وهم آباء وأمهات المستقبل القريب أو البعيد ! وهم فضلا عن ذلك، الذين قد خدعوا فى الماضى القريب فأعطو المكانات الاجتماعية الرفيعه دون ضرورة بقصد درء ماقد يصدر عنهم من آثار القلق المرضى من أجل

مصالح حفنة من المنفذين أصحاب السلطة والسلطان (رموز السلطة والسلطان) فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين.

وقد تضمن الكتاب الحالى على وجه الخصوص الصراعات الفكرية، وما نتج عنها من عنف وقتل وتدمير. لقد اهتممت بالصراعات الفكرية التى حدثت فى وجود "الإمام أبو حنيفة ابن النعمان" و "الإمام مالك بن أنس" و "الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى" و"الإمام أحمد بن حنبل" ويبدو أن هذا الموضوع قد أخذ بلبى لما حدث فى ثناياه من صراع ليس فقط بين المفكرين ومفكرين، ولكن بين المفكرين وأصحاب السلطة والسلطان - صحيح لقد شاهدت وقرأت النقد اللاذع بين المفكرين والكتاب المصريين فى العشرينيات وما بعدها من القرن الحالى، ولكن كان هناك من صارعوا السلطة وصرعوها أحيانا وصرعتهم أحيانا أخرى.

ومن هؤلاء اذكر الإمام محمد عبده وعبد الله النديم ومحمد فريد والغاياتى وسعد زغلول وصحبه وطه حسين وسلامة موسى وأحمد لطفى السيد وعبد الرازق السنهورى وعلى عبد الرازق ومصطفى لطفى المنفلوطى وعباس العقاد، والشيخ حسن البنا وبيرم التونسى وغيرهم وغيرهم.

وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أن بعض من ذكرت قد حكم عليه بالنفى أو السجن أو النقل إلى وظيفة غير الوظيفة التى أهل لها وكان يشغلها أو سحبت منه الشهادة العالمية أو ضرب وأهين أو الذى اضطر لكى يعيش فى المنفى وعاد إلى أرض الوطن أو توفاه الله فى منفاه أو من نجح التدبير لقتله.

وصحيح أيضا أننى شاهدت وقرأت المذكرة التى قدمها نخبة من المفكرين والكتاب المصريين وعلى رأسهم "توفيق الحكيم" إلى "محمد أنور السادات" الذى كان يتربع على كرسى الرئاسة ويقول عن نفسه إنه "وجمال عبد الناصر" آخر الفراعنة ! ثم كيف انتقم من بعض هؤلاء المفكرين والكتاب وغيرهم واعتقلهم ولم يفرج عنهم إلا بعد أن صرعه أعضاء "تنظيم الجهاد" فى يوم ٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٨١.

ويبدو لـي وهذا مجرد رأى يلاحظه القارئ المدقق لدراسات هذا الكتـاب أن الغنـى الفـاحش والفقـر المدقـع لا يمكـن الانحرافـات الدينيـة والانحرافات الاجتماعية وأقصد بمفهوم الانحرافات هنا مفهوم "التطـرف" والتطرف الاجتماعى نجده أن يكون على ونام أن يؤكد أن السلام فالملاحظ أن الغنى الفاحش وبخاصة إذا كان غنى غير مشروع (من تجارة المخدرات بأنواعها أو الاتجار فى الأعراض مثلا) وظاهرة البطالة وبخاصة فى محيط القـادرين مـن أعضـاء المجتمـع لهـا علاقـة متينـة بظـاهرة الشعور بـالعداوة وظـاهرة الشعور بـالعداوة تعنـى ردود أفعـال أهمهـا الانحرافـات السياسـية واضحا فى محيط الحصـول علـى عمـل فنجد ألوانا من الجرائم المنظـورة وغير المنظورة ترتكب فى سبيل تحقيق هذا الهدف. وكل قارئ لأية جريدة أو مجلة يجد ذلك مؤكدا.

كما يبدو لى كذلك أن التفرقة اللاإنسانية، فى ضوء خبراتى الواقعية التى عشتها فى مجتمع الولايات المتحدة مصدرها إن لم يكن من أهم عواملها لمستوى المنخفض التى يعيش فى ظله زنـوج الولايـات المتحـدة وقد سجلت هذه الخبرات فى الكتاب الحالى (انظر رابعا : أمثلة حية تاريخية عن بعض أنماط العنف بند رقم ٨) ولعل ذلـك أيضـا يوجد فـى محيط زنـوج جنـوب أفريقيا. علما بأن زنوج الولايات المتحدة الأمريكية يمثلون أقلية فى المجتمـع وأن زنوج جنوب أفريقيا يمثلون الأغلبية فى مجتمع جنوب أفريقيا.

والعمل من أجل السلام له نصيب فى الكتاب الحالى (انظر : خامسـا بنود ١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦) وقد تعمـدت أن أذكـر دور القـادة الثقـافيين، وأقصد بهم المفكرين حملة الأقلام والفنانين والموسيقيين وذلك لأننى أرى أن أدوار هؤلاء جميعا هامة فى أى مجتمع إنسانى فهم فى الأغلب الأعـم أقـرب إلى الوصول إلى الحق إن كانوا صـادقين أى أنهم يعسكون واقـع حيـاة النـاس ويرنون إلى ما يجب أن يكون عليه مستقبلهم المشرق. فهم بصدقهم يغرسون فى نفوسهم الحب والخـير والجمـال وفـى ضـوء ظـروف مجتمعنـا المصـرى المعاصر أعتقد أن تحقيق كل ذلك أمر ضرورى ولا ينكر إلا معتوه.

ولذلك خصصت بندا سميته "غرس القيم ذات الأهداف الحميدة في نفوس المواطنين" ولن يغرس هذه القيم إلا القادة الثقافيون الواعون الصادقون غير المتلونين.

أما البند الذي يلي ذلك فهو يتعلق باستغلال الناس المحاربين وغير المحاربين باسم الوطنية أي يتعلق بتجار الحروب والذين لا هم لهم إلا أن يربحوا بالضرورة ويزيدوا من أرباحهم بكل أنواع الأساليب غير المشروعة، وهؤلاء التجار ليسوا بالضرورة ان يكونوا أفرادا، بل هم الدول التي يعتنق حكامها وساستها الذين يؤمنون بأن "القوة حق" فتراهم يستعبدون الشعوب الضعيفة المستضعفة بقوتهم، أقصد عدتهم وعتادهم اختراعاتهم التي تشيع العنف والدمار لكي يفرضوا تبعية الشعوب كل الشعوب لهم. ويبقى أمامه فرض المذلة عليهم فهم القوى والأغنى، والآخرون هم الأضعاف والأفقر، ولن أنسى ما حييت الشعار الذي ملأ آفاق مجتمع الولايات المتحدة الأميريكية يوما من الأيام الذي يقول : "كل مايفيد شركة (جنرال موتورز) يفيد أميريكا" وليس كما يجب أن يكون العكس وذلك لأن أصحاب هذه الشركة وغيرها هم أصحاب المصالح الحقيقيين الذين يقفون من وراء الساسة والحكام، وكأن الأخيرين مجرد خيالات مآته في هذا المجتمع أو ذاك، ونحن نلاحظ في الوقت الحاضر ظاهرة وجود الشركات العملاقة متعددة الجنسيات وفروعها عبر القارات. وفي ضوء مراحل التاريخ البشرى نجد أن الاستعمار يتبع رءوس الأموال، والاستعمار يعني العنف ولا يمكن أن يعني السلام.

ويبقى بندان آخران وهما بند ١٥ وبند ١٦. والبند الأول يهتم بدور الجماهير، اما البند الثاني فيتعلق بدور رجال الشرطة وقد تعمدت أن أتحدث عن دور الجماهير قبل أن أتحدث عن دور رجال الشرطة، وذلك لأن الجماهير الواعين اى الذين يحرصون على أخذ حقوقهم ويحرصون على أداء واجباتهم هم صمام الأمان في مجتمع كالمجتمع المصرى ذى التاريخ القديم قدم الدهر والمستمر استمرار الحياة، ويؤكد ذلك أن الشعب المصرى على الرغم مما بذل وضحى وعانى، نجح في إبقاء خريطة مصرنا الخالدة على خريطة الحياة ولن يتأتى ذلك إلا إذا عاشت هذه الجماهير الأساليب الديمقراطية بأنواعها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو علمية. لقد رأينا في

ثنايا دراسات الكتاب الحالى كيف يهدر حكم الفرد آدمية الإنسان، وكيف يشيع ضروب العنف والفوضى، وكيف يقف حائلا بين أعضاء المجتمع وبين ازدهارهم وتحقيق نضجهم السياسى والاجتماعى والعلمى.

والقارئ الكريم المتتبع لبحوثى ودراساتى التى أجريتها أو أشرفت عليها المنشور منها بخاصة يتخلى له هذا الرأى الذى لايمكن أن أحيد عنه وبخاصه فى ضوء ظروف المجتمع المصرى الراهنة أننى إذ ادعو لا أدعو إلى الحرية المطلقة ولكنى أدعو إلى التربية التى تيسر للإنسان المصرى أن يثق فى نفسه ويحترم ذاته ويعرف حقوقه وواجباته ويؤديها عن طواعية وأن يكون واعيا بالأمور التى تدور من حوله وأن يسمع الأحاديث أو الخطب من رموز المجتمع على اختلاف مواقعهم من السلطة والسلطان فيصدقها لأن مضمون هذه الأحاديث وهذه الخطب ينفذ فعلا ولا يضيع فى الهواء سواء صدر هذا المضمون عن طريق أجهزة الإعلام بأنواعها أو صدر فى جلسات خاصة فى جلسات عامة. إن ظروف المجتمع المصرى تنفر حتما من المثقفين المصريين (بالمعنى العام) الذين لديهم القدرة على التكيف فى كل عصر وأوان. أقصد الذين يتلونون كالحرباء فى سبيل تحقيق مصالحهم التى تنتهى حتما بمرور الوقت إلى زوال.

وفى بند ١٦ وهو البند الأخير من دراسات هذا الكتاب تحدثت عن "رجال الشرطة" وإننى أرى أن رجال الشرطة هم فى حقيقة الأمر الحكام الحقيقيون فى مجتمعنا وإننى أقول مجتمعنا وذلك فى ضوء تجاربى وخبراتى معهم وبخاصة فى قاعات المحاضرات أو فى الاشتراك فى القيام ببعض البحوث والدراسات مثل جرائم المخدرات وجرائم الأحداث أو جرائم السرقة عن طريق أسلوب النشل أو جرائم المرور.. إلخ. ومن ثم فإن واجباتهم كبيرة بل هى أيضا خطيرة.

ومع ذلك فإننا نجد أنهم بشر يخطئون ويتجنبهم الصواب أحيانا سواء كانوا يعملون فى المطافىء وفى السجون وفى الأقسام أو فى طرقات المدن أو فى غيرها. وإننى مع ذلك التمس لهم الأعذار أحيانا، وذلك لأنهم من الفئات اللامعة اجتماعيا، وفى أيديهم السلطة هذا صحيح، ولكن أعضاء الفئات الأخرى الذين على شاكلتهم ليسو ملائكة. أى أنهم يرتكبون الأخطاء

ضد المواطنين أيضا، وقد ينبذونهم فـي الكثير من الأحيـان فينشروا الذعر والهلع فى نفوس الآمنين باسم الوطنية أو باسم أمن الدولة وأمانها نجد ذلك فى محيط الذين تكون مواقع أعمالهم "المخابرات" أو "المباحث" ونجد المجنى عليهم وهم مظلومون حقا، كما ذكرت من قبل رهن السجون والاعتقالات والملاحظ أن المجنى عليهم هؤلاء ليسوا فقط من سجنوا أو اعتقلوا وغنما يضاف إليهم ذووهم المقربون من الاباء والأمهات والأبناء وربما بعض الأصدقاء أو بعض الجيران.

وإذا كنت قد ذكرت أن واجبات رجال الشرطة فى معظم الحالات خطيرة لأنهم يواجهون الأخطار الجسيمة فى معظم الأحيان، فإننا يجب أن نتعرف بأن رجال الشرطة على اختلاف رتبهم هم من أعضاء الشعب المعاصر. أى أنهم يتأثرون بالضرورة بالعناصر الثقافية وغير المادية التى توجد فى مناخ هذا المجتمع إنهم عندى مثل المجرمين تماما. أى أنه إذا كانت لديهم الاستعدادات للقيام بأعمال القمع والمنع فإن ذلك يرجع إلى الظروف الاجتماعية الثقافية والسياسية والاقتصادية التى عاشوا فى كنفها. كلنا لدينا الاستعداد لارتكاب الجرائم العنيفة وغير العنيفة جميعا، ولكن البعض منا وبخاصة الذين عوملوا فى بيئتهم الصغيرة (الأسرة) أو فى بيئتهم الكبيرة (المجتمع) بأساليب التربية السوية قد ينفرون من ارتكاب الجرائم أيا كان نوعها.

وقد ذكرت فى البند المشار إليه فى مضمونه مالى وما لرجال الشرطة وما عليهم فى صراحة وفى صدق. ذكرت ماحدث لأحد اللواءات عندما ترك ابنته فى المستشفى لإجراء عملية لها من أجل تلبية واجباته الشرطية ولاذكر الآن أحدهم وكانت رتبته رتبة "الرائد" ويشغل وظيفة "كاتم أسرار وزارة الداخلية" التى يشغلها عادة شرطى تكون رتبته "اللواء" كان يجلس هذا الرائد وبجواره تليفونات عديدة تتصل بكل أركان الجمهورية. كان الكرسى الذى يجلس عليه وثيرا وكانت الغرفة التى يحتلها واسعة مؤثثة بأفخر الأثاث، وكنت أجلس بجواره كى اترجم له خطابا من اللغة لإنجليزية إلى اللغة العربية، فيجئ اللواءات والعمداء تلو اللواءات والعمداء ويحيونه "التحية العسكرية" وهو جالس على كرسيه لا يتحرك. كان هؤلاء اللواءات

والعمداء يدخلون عليه نفاقا أحيانا أو كانوا يطلبون من مطالب خاصة أحيانا أخرى وكانت المطالب الأخيرة تحدث عادة، فى أثناء وضع حركة التنقلات أو حركة الترقيات إلى مناصب أعلى. كان هذا الرائد يحس وكأنه ملء السمع والبصر وكان يجد الاحترام والتقدير المزيفين فى كل مكان وكان يجالس الوزراء والكبراء فى عهده الذى كان. وتراه عضوا فى لجان عديدة ليس لأن لديه ما يفيد ما يعرض عليها ولكن لأنه "كاتم أسرار وزارة الداخلية".

وكنت أسافر في مؤتمر من المؤتمرات خارج الجمهورية فى صحبة عدد من رجال الشرطة ورجال القضاء والمتخصصين فى علوم الإجرام والنفس. كنا ندخل المطار فلا تفتح حقائبنا سواء كان ذلك ونحن فى طريقنا إلى المؤتمر أو فى أثناء عودتنا "بالسلامة" من هذا المؤتمر. كان المسئولون لا يرون داعيا إلى فعل ذلك أى إلى أداء واجباتهم ما دمنا فى صحبة عدد من رجال الشرطة بل كنت أجد من يرفع يديه بالتحية لهولاء الرجال.

إنهم كما ذكرت آنفا من الفئات اللامعة اجتماعيا فى المجتمع المصرى، وبحكم وظائفهم ومستوى رتبهم يعتبرهم العديد من أعضاء هذا المجتمع "الشومة" المسلطة على أعناقهم من أجل تحقيق مصالح أصحاب السلطة والسلطان.

ومع كل ما ذكرت أنظر إلى الواحد منهم بعد أن يحال إلى "المعاش" أو إلى "الاستيداع" نجد ان هيلمانه الذى كان يسقط "كجلمود صخر حطه السيل من عل" وأنا لا أبالغ فيما أقول أو أنكر. وذلك لأن كبار رجال الشرطة لهم "مراسلة" أو أكثر من "مراسلة" وتحت أيديهم عربات المصلحة التى يعملون فيها، والتليفونات تحت إمرتهم يتحدثون منها إلى من يشاءون وقت ما يشاءون فضلا عن الصحافة والمجلات الصادرة يوميا أو أسبوعيا تكون فى حوزتهم دائما ولا يدفعون من ثمنها دانقا.

وأرجو من القارئ الكريم ألا يستهين باعمال "المراسلات" فهم يعملون لرؤسائهم كل مايطلبون أن يعمل. ولا يمكن إلا أن أذكر ما قاله لى أحد اللواءات الذى يشغل منصبا كبيرا وهو يعد السنين التى بقى فيها منذ الترقية إلى رتبة اللواء. قال مستنكرا : أفرض أننى خرجت من الخدمة اليوم

أو غدا فمن يأتينى بالتموين مثلا، هل عندئذ اقف فى الطابور كما يفعل الآخرون ؟ إن أعمال المراسلة والمراسلات قد تكون فى ساحة العمل وقد تكون فى ساحات بيوت الرؤساء ومن ثم فإننا نجد أن اختيار المراسلة يعتبر من سيادة الرئيس اللواء، لن لا يعمل شيئا إلا مايطلبه هذا الرئيس وتراه مميزا عن غيره من المجندين الذين ليس لديهم "الشرف" للعمل كمراسلة.

وقد تحدثت كثيرات عن واجبات رجال الشرطة عندما كنا نبحث "مشكلة المخدرات" بأنواعها وكنت أقول إن الفئات التى يجب أن نهتم بها هى المهرب والتاجر والموزع والمستهلك وإن مكافحة المخدرات بأنواعها فى مسيس الحاجة إلى رجال الدين وإلى الاخصائيين الاجتماعيين وإلى رجال القانون وإلى رجال علم النفس الطبى والى علم النفس الاجتماعى وإلى رجال الشرطة والعبرة أننا لا يجب أن نتخذ سياسة المنع والقمع فحسب. ربما تصلح هذه السياسة مع المهربين والتجار والموزعين، ولكننا لكى نقضى على هؤلاء جميعا فإنه يجب أن نبحث عن عوامل الطلب أو خلق هذا الطلب، على المخدرات بأنواعها وإن هذه العوامل ستكون بالضرورة عديدة، ولكننا يجب التعرف عليها موضوعيا، وذلك لأنه إذا لم يوجد طلب لا يوجد عرض، والطلب على المخدرات فى رأيى يرجع إلى الظروف التى يحياها أعضاء المجتمع المستهلكين لهذه الآفات.

وأرجو أن يغفر لى القارئ الكريم إذا استعرت زجل "بيرم التونسى" عن رجال الشرطة الذين كان يسميهم "العساكر" إذ يقول :

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلين
ساحبين بتاعة حلاوة جاية من شربين
شايلة على كتفها عيل عنيه وارمين
الصاج على مخها يرقص شمال ويمين
أية الحكاية يابيه ؟ جال خالف الجوانين
اشمعنى مليون حرامى فى البلد سارحين ؟
يمزعوا الجيوب ويفتحوا الدكاكين
أسال وزير الشئون ولا أكلم مين ؟

ومهما يكن من الأمر فإننى لم أحاول فى هذه الخاتمة أن ألخص مضمون دراسات الكتاب الحالى، ولكن رأيت أن أختار عينة منها فتحا لشهية القراء الكرام لكى يقرأوا هذا المضمون في تؤده وفي روية، ولعل ذلك يثير فى نفوس هؤلاء القراء بعض الانتقادات أو بعض التساؤلات وذلك لأن هدف أهداف هذا الكتاب أن يجعل هؤلاء القراء الكرام يفكرون معى لا من أجل القضاء على العنف الإنسانى قضاء مبرما ولكن للحد من هذا العنف حتى يتغلب السلام عليه لا لكي يسود على قضاء مبرما ولكن لكى يسود، وهذا الرأى لا يعنى أبدا عدم قدرة الإنسانية على التغلب على العنف الإنسانى على وجه الإطلاق ولكننى أبديه في ضوء الظروف العالمية التى نشاهدها ونسمع عنها فى كل لحظة فى هذه الأيام، وعلى ذلك فإننى جد متفائل فى المستقبل أقصد مستقبل الإنسانية. وإذ كان القارئ الكريم متفائلا مثلى على الرغم ومن كبر سنى فإننى أرى كما كان يرى المغفور له الأستاذ الكبير أحمد أمين عندما كان يحاضرنا فى معسكر "جماعة الرواد" فى منتصف الأربعينيات من هذا القرن بأن الحاجة ماسة إلى خلق "حكومة عالمية" تضم شتات البلدان على وجه المعمورة التى هى فى واقع المر مجرد قرية صغيرة. كنا فى مدينة الإسكندرية فى ذلك الحين وكان المغفور له أستاذنا الكبير يدعو هذه الدعوة وكان الحماس يملأ كيانه وكنا نحن الحاضرين المستمعين لمحاضرته نأمل فى ذلك، وفى ضوء الظروف الإنسانية القائمة مازال الأمل يداعبنا ! لعل ذلك أن يرجع إلى ماكتبه المغفور له "الأستاذ سلامة موسى" فى كتابة (هؤلاء علمونى) عن الأديب الكبير "هـ. ج ويلز" الذى ألف فى عام ١٩١٩ تاريخا للعالم كله يقول فيه :

"إننا أمة واحدة وإن هذه الدنيا قريتنا الكبرى التى يجب أن ننظمها وأن نخطط حركة المرور فيها، وأننا يجب أن نتهيأ لإيجاد حكومة مع إدارة عامة موحدة للتعليم فى دول الدنيا" وكان ويلز كما يذكر الأستاذ سلامة موسى فى كتابه المشار إليه يدعو : "إلى ارتباطات ونظم عالمية لا تزال فى نمو وارتقاء حتى تتقلص الحكومات العديدة القائمة وتزول فى حكومة عالمية واحدة، وهو يدعو إلى إيجاد قانون عام لصيانة الثروات العامة باعتبارها ملكا مشاعا للأمم، للبشر. أى يجب أن يحافظ على مناجم الفحم فى انجلترا أو عيون البترول فى إيران، وغابات أفريقيا والهند، ووحوش الغابات

باعتبار أن كل هذه الكنوز إنما هى ملك عام مشاع للبشر وليس لأمة أن تستأثر بواحد منها"

وإيمان وديانة ويلز كما يراها [*] "الأستاذ سلامة موسى" فى ضوء مؤلفاته العديدة، هما : العالمية البشرية. وكانت النبرة العالية فى صوته هى : هذا العالم هو عالمنا هو قريتنا هو حديقتنا. وعلينا أن نصلحه وننظمه.

ويقول الأستاذ سلامة موسى إذ يختم الحديث عن ويلز ما يلى :

"وإنى أكتب هذه الكلمات فى صبيحة أول يناير من عام ١٩٥١ اليوم الأول من النصف الثانى من القرن العشرين فأحس كلمات ويلز بل أحس قوة الصدق فيها. ذلك أننا قبل أربعين أو خمسين سنة كنا نقول إن حربا تقع بين دولتين أو ثلاث دول لا شأن لنا بها، ولكن هذا القول لم يعد يصدق فى أيامنا فإن حربا تقع بين روسيا وأمريكا هى حرب أهلية للعالم كله، "هى قتال جنوبى يشتبك فيه جميع سكان هذه القرية، هذا العالم، فى تشنجات دموية تزلزل وتحطم.... هذه هى عبرة ويلز وهذه هى رسالته".

---

[*](انظر كتاب : سلامة موسى "هؤلاء علمونى" اقرأ ٣٤٩ - دار المعارف - شهر يناير عام ١٩٧٢، صفحات ٢٢٢ و٢٢٥ و٢٢٧ و٢٢٨).